

الدكتور محمد بن هبط

الشرق الجديد



مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وقولاً
٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

اهداءات ۲۰۰۱

احمد محمد خديج

للمؤلف

١٩٦١		الامبراطورية الإسلامية
١٩٥٥		هكذا خلقت
١٩٥٣	ثان	مذكرات في السياسة المصرية
١٩٥١	أول	
١٩٤٥	ثان	الفاروق عمر
١٩٤٤	أول	
١٩٤٢		أبو بكر الصديق
١٩٣٧		في منزل الوحي
١٩٣٥		حياة محمد
١٩٣٣		ثورة الأدب
١٩٣٢		ولدى
١٩٢٩		تراجيم
١٩٣٥		عشرة أيام في السودان
١٩٣٥		في أوقات الفراغ
١٩٢٣	ثان	جان جاك روسو
١٩٢١	أول	
١٩١٤		زيف
١٩١٣		دين مصر العام - بالفرنسية

تحت الطبع :

المعرفة أساس الايمان

خلافة عثمان

أساطير الأولين (مجموعة قصص)

يوميات باريس

مذكرات في السياسة المصرية (الجزء الثالث)

مقدمة

بسم

الرحمن الرحيم

الشرق الجديد ، مجموعة من فصول الدكتور هيكل ومقالاته
تنظمها فصول هذا الكتاب لأول مرة .

وهو يبدأ ببيان ما كان بين الشرق والغرب من صلات تنوعت
وتعددت خلال القرون وازدهرت حيناً ثم لم يمنع تضادها من بعد
أن تعود لتبرز في صورة جديدة ، قد تكون بالغة أقصى درجات
العنف ، أو تكون علاقة سلم لا يبلغ درجة التفاهم ، حيناً آخر .
وهذا التطور في صورته المختلفة ، قديمها وحديثها ، هو موضوع الجزء
الأول من هذا الكتاب .

وإن كان مقرراً اليوم أن على الشرق أن يسرع الخطى إلى إقامة
حضارة جديدة في ربوعه ، يمزج في أصولها بين مثله الروحية التي قامت
عليها حضارته الأولى وبين مقتضيات حياته المادية في هذا العصر ،
مزاجاً يكفل التوازن بين جانبي الحياة الروحية والمادية ، فإن السبيل
الصحيح ، الذي لا سبيل غيره ، للكشف عن مقومات هذه الحضارة
المتوازنة وتوضيح معالمها وميزاتها هو الإدراك السليم لحرية الفكر

بأوسع ما يتسع له هذا اللفظ من المعاني ، لأن تلك الحرية هي الوسيلة المباشرة لنشر الأفكار بين الجماعات ، فتتولد عنها الحركات الفكرية التي تعتبر الأساس الذي لا تقوم حضارة بدونه .

على أنه إذا كان لا قيام للحضارات إلا على أساس حركات فكرية عميقة الجذور في الجماعات المختلفة ، فإن الثورات والحروب نتيجة كذلك لنوع آخر من الحركات الفكرية لا تلبث أن تدفع بالناس إلى الثورة على المفاهيم والقيم الموروثة التي تسربت إليها عوامل الاضمحلال فضعفت ثم حطمتها الحرب أو الثورة فيما حطمت فنقدت بذلك نهائياً فدرتها على صيانة السلام بين الأمم أو حماية نظمها الاجتماعية ، فوجب أن تقوم على أنقاضها أفكار وقيم جديدة تتفق مع ما تسج إليه الجماعة في طورها الجديد .

والحركات الفكرية التي تقوم على أساسها الحضارات ، وتلك التي تؤدي إلى قيام الثورات والحروب . وأثرها جميعاً في بناء الأمم بعامه ، وأمم الشرق بصفة خاصة . كلها موضوع الجزء الثاني من هذا الكتاب .

وكيف لحديث الشرق أن يكتمل دون أن يذكر فيه المهاتما غاندى «روح الهند العظيم في العصر الحاضر» . وغاندى ، كما يصفه الدكتور هيكل ، من بناء هذا القرن العشرين ، لا لمجهوداته السياسية لحسب ، تلك المجهودات التي انتهت إلى حصول الهند على استقلالها وحريتها لتصبح من بعد قوة ذات وزن في أمور السياسة الدولية ، بل لمنهج الاجتماعي الذي استهدف به تحرير المنبوذين ومساواتهم بسائر أبناء

المهند ، ولاتجاهه الإنسانى الرفيع الذى سما فيه بالكرامة الإنسانية
للناس جميعاً ، دون تفرقة مهما كان سببها ، فوق جميع الاعتبارات .
واهتمام الدكتور هيكل بثقافة الشرق الأقصى وتطوره متصل
على صفحات « السياسة » وغيرها من الصحف والمجلات بما كان ينشره
فيها من المقالات بين الحين والحين ، إلى أن دعت حكومة الهند فى ١٩٥٣
للاشتراك فى ندوة دعت إليها عشرة من كبار مفكرى العالم لدراسة
أساليب غاندى ومدى نجاحها فى المحافظة على السلام ، فأتاح له ذلك أن
يدرس فى استفاضة حضارة هذه البلاد وتطورها ونهضتها الأخيرة دراسة
دوكن خلاصتها فى عدد من المحاضرات والمقالات التى نشرت من قبل فى
« السياسة » . وهذه المحاضرات هى قوام الجزء الثالث من هذا الكتاب .

* * *

ولقد اتخذت كلمة الشرق فى هذا العصر معانى متعددة تختلف باختلاف
المجال الذى تستعمل فيه . فهى فى الفنون والآداب تختلف عنها فى السياسة
والاجتماع ، وهذه جميعاً قد تختلف كثيراً أو قليلاً عن معناها الجغرافى
البحث . فنحن حين نتحدث عن الأديان السايوية نقصد بالشرق
مصر وفلسطين وجزيرة العرب ، وحين حديثنا عن غير ذلك من
الأديان نقصد الصين والهند وما اصطلح اليوم على تسميته بالشرق
الأقصى . وحين يكون الحديث فى السياسة نقصد بالشرق عادة روسيا
السوفيتية وما يدور فى فلكها من البلاد الشيوعية ، وحين تكون
الفنون هى موضوع كلامنا ينصرف معنى الشرق إلى الفن الفرعونى
أو الفن الهندى القديم أو إلى الفنون الفارسية والإسلامية وما إليها .

وليس حتماً أن تتطابق معاني الشرق المتعددة على هذا النحو على معنى الشرق الجغرافى ، بل قد يشمل بعضها مناطق هى من صميم الغرب سرت فيها روح الشرق ، وقد يعزل من الشرق مناطق أخرى أقرب فى تفكيرها وحياتها إلى ناحية الغرب .

وموضوعات هذا الكتاب تتصل بأكثر من معنى من هذه المعانى ، وهى ترتبط كلها فى النهاية بهذه النهضة السارية فى أنحاء الشرق جميعاً ، والى تستهدف بعث الحضارة الأصلية لبلاده التى يتمتع منها الشرق العربى بنصيب وافر . وإذا قلنا إن الهدف بعث الحضارة الأصلية لبلاد الشرق فليس معنى ذلك أن نقيم الفرعونية فى مصر والفينيقية فى الشام ، والآشورية فى العراق مثلاً كانت قائمة فى كل منها منذ بضعة آلاف من السنين . . . كما اعتقد البعض فى وقت من الأوقات . معترضين بأن إبراز هذه الحضارات والدعوة إلى بعثها غير مستطاع فى عالم اليوم ؛ لأن فيه تجاهلاً لعوامل الوحدة بين بلاد الشرق العربى ، والى صاغها التاريخ فى قوالبه التى يرتبط بعضها ببعض بأوثق رباط . والمقصود ببعث الحضارة الأصلية للشرق إبراز ما كان فى هذه الحضارات من وجوه الشبه وعوامل الاتصال بين الشعوب المختلفة . حينئذ ، فنعمل على تقويتها ووصلها بما جدم من بعد على بلادنا من تطورات لأن تاريخ العالم وحدة لا سبيل إلى انفصامها ، وإن الحضارات تقوم نيه بعضها على أثر بعض دون أن يفنى بعضها بعضاً أو يقضى عليها لأنها جميعاً حلقات فى سلسلة متصلة تندمج معالم بعضها فى بعض مادامت متفقة مع تطور الإنسانية وتجدها .

وقد كتب الدكتور هيكل في ذلك يقول . . . «إن دراسة هذه الحضارات^(١) الغابرة التي قامت في مصر والشام والعراق وصور الشبه وصور الاختلاف بينها من شأنه أن يلقي كثيراً من الضياء على ما تطورت إليه الحضارة الإسلامية خلال هذه الخمسة عشر قرناً وجهت أثناء عصور طويلة منها مصير العالم ، وهي تزداد كل يوم انتشاراً وإن عدت عليها من حين لحين عادات الزمن فركبت أو جمدت . فهذه الحضارة الإسلامية لم تنشأ ولم يكتمل نظامها في حياة النبي عليه السلام ، بل تكونت من بعده شيئاً فشيئاً باختلاطها بالحضارات المختلفة التي غزا المسلمون والتي تمثلوا بعد أن تأثروا بها وأنزروا فيها . وكلما ازدادنا في إدراك هذه الحضارة دقة كننا أكثر على بعثها قوة وإقتداراً ، ويومئذ تبرز الفكرة الإسلامية ، أو الفكرة العربية كما يريد البعض تسميتها ، قوية بمثلثة جدة وحياة ونشاطا ، وثابة إلى ميادين هذه الحياة التي تحيط بنا ، قديرة على أن توجهها إلى نواح جديدة ليست الفرعونية ، وليست العربية ، وليست إسلامية العصور الوسطى ، ولا هي إسلامية عصور الانحطاط التي تجاوزنا وما تزال تغمرنا ، بل إلى نواح تسبق على الحياة الجديدة التي استمدت من العلم قوتها المادية روح الحضارة الإسلامية العربية في سموها المعنوي . فدراسة هذه العصور القديمة هي إذن وسيلة لمزيد من الدقة في دراسة العصور التي خلفتها والتي تأثرت من غير ريب بها .

(١) الفرعونية والعربية : مقال نصر في ملحق السياسة رقم ٣٢٣٢ في ٩/٢٩ سنة ١٩٣٣ ص ٤ .

د وإن من فادح الخطأ الظن بأن الإسلام والحضارة الإسلامية قد عفت على ما قبلها وطمسته طمساً ، وإن العرب قد استأصلوا كل من سواهم من أقام بالبلاد التي غزا الإسلام . وليسان ذلك يجب أن نفرق بين الإسلام كدين ، والإسلام كحضارة . الإسلام كدين يقرر عنه الكتاب الكريم أنه يعيد الأديان التي سبقت في صورتها الصحيحة ويزيل ما دخل عليها من تحريف الكلم عن مواضعه ويجلو الحقيقة الأزلية الخالدة إلى الناس كافة . وهو قد عم كعقيدة منذ اليوم الأول فلم يكن لأساسه - أساس الإيمان بالله وحده والإسلام له جل شأنه لا شريك له - أن ترد عليه أية صورة من صور التطور أو التغير . أما الإسلام كحضارة فقد كان يتطور على مر القرون ، وظل يشمل الحضارات التي جاورته حتى كان ابن رشد والفارابي وغيرهما عنقلوا الفلسفة اليونانية إلى العربية ، وعن عاونوا أكبر عون على بحثها عندما بحثها الغرب مستعينا بهؤلاء العلماء والفلاسفة المسلمين .

د وأقول إنى لا أرتاب في أن العصور الإسلامية تأثرت بالعصور التي سبقتها لهذا الذى قدمت من دراسة الفلسفة اليونانية ولما انتقل إلى العرب من أدب الفرس . وليس معقولاً أن يكون اليونان والفرس هم وحدهم الذين أثروا في الحضارة الإسلامية وأن تكون مصر والشام والعراق غير ذات أثر عميق أو سطحى فيها . هذا ثم إنى أومن بالوراثة إيماناً صادقاً قوياً . أومن بها في الجماعات كما أومن بها فى الأفراد . ولعلها فى الجماعات أدق وأبقى ، فلن يسيغ عقلى لذلك أن

أتصور إمكان الانفصال بين زمن وزمن في بقعة واحدة من الأرض
انفصالاً يحول صلة بين الزمنين ، ولن يسيخ عقل ألا يتأثر الحاضر
بالماضى ولو أصبح هذا الحاضر في يد قوة طارئة لها من السلطان كل
ما يمكن أن يكون لها . وبها نحن أولاء تغزونا الحضارة الغربية منذ
أواخر القرن الثامن عشر إلى اليوم ، أى منذ قرن ونصف قرن ،
غزوا ذريعاً ، فهل تحت هذه الحضارة مقوماتنا أو مقومات أية أمة
شريفة أخرى . وهبها وصلت إلى تغريب الشرق - على حد تعبير بعض
علماء الغرب - فهل تنقطع صلة حاضر الشرق بماضيه ؟ إن قليلاً من
التفكير ليدلنا على أن ذلك لن يكون ، ويدلنا على أن من يريد أن يفهم
حضارة مصر بعد ألف سنة ، ومن يريد أن يفهم حضارة الشرق ، بعد
ألف سنة ، لا غنى له عن أن يرجع إلى كل المهود التي سبقت هذه
الحضارة حتى يصل إلى مصر الفرعونية وإلى ما قبل مصر الفرعونية
إن كشف التاريخ عن شيء كان قبلها .

... فإذا وضحت هذه الحقائق بعد طول التنقيب والدرس ،
وألقت على الوجود ساطع ضيائها ، أمكن أن تلتقى وأن تكون منها
وحدة هى أقوى من كل وحدة تدور بخاطر إنسان ؛ وحدة روحية
قوية تنظم الحاضر والمستقبل وتدفع الناس إلى حضارة تتضاءل
أمامها الحضارات التي عرفت حتى اليوم ، لأنها تكون حضارة أوسع
أفقاً ، وأغزر مادة ، وأغنى بماضيتها الأصيل العريق .

لو أن هذه الفكرة لم يقتصر تطبيقها على الشرق الأدنى ، بل امتدت

إلى ما وراءه من بلاد الشرق الأقصى ، فإذا تكون النتائج في شأن حضارة الإنسانية ! وماذا يكون الأثر في إقامة وحدة الوجود حقيقة ملموسة ، ١١

ولئن كان لا يحيد بعد ما قد منا عن أن نرى الحضارة الجديدة لقاءً بين الشرق الروحي ، والغرب المادي ، وتفاعلا بين الحضارات على تباعد الشقة المكانية والزمانية بين كل منها ، فما السبيل إلى هذا اللقاء ؟ وما وسائله ؛ وما موقف العالم الإسلامي من ذلك كله ؟ هذا ما يعرض له الكتاب في جزئه الأخير « الإسلام والحضارة الإسلامية » .

وقد حرصت على إضافة بعض الهوامش إلى الفصول ، وأن أثبت في النهاية بياناً بمصادر الكتاب ، يتضح منها للقارئ أن فصوله كتبت في أوقات متباعدة ، وأن الدكتور هيكل لم يقصد يوم كتبها أن تكون أجزاء منتظمة من كتاب . والواقع أنني قد رأيتها ترتبط جميعاً في اتجاهها نحو إزالة بعض الغموض الذي يكتنف طريق بحث الشرق ، وأنها ، وإن لم تتسلسل على النحو المألوف للنهاج العلمية ، فهي تتضمن بعض آراء الدكتور هيكل في طائفة من المسائل هي موضع بحث الباحثين في تاريخ الشرق وفي حضارته . وغاية ما أرجو أن يحقق هذا الكتاب وما سيليه من آثار الدكتور هيكل ، بعض تلك الغاية .

الفصل الأول

الشرق والغرب

(١)

في العصور الوسطى

« الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا » . هذه الكلمة للشاعر الإنكليزي « كبلنج » ترد على كل لسان ، ويجرى بها كل قلم كلما تناول الحديث أمور الشرق والغرب . ومن الكتاب والمحدثين من يؤيدها ، ومنهم من ينقضها .. ومنهم من يسلم بأنها تنطوى على جانب غير قليل من الحق ، ثم يحاول أن يجد الوسيلة لالتقاء الشرق والغرب والميدان الذى يلتقيان فيه . ولقد أتيح لى أن أقف من قبل عند هذه الكلمة ، وأن أحاول إيجاد الصلة بين الشرق والغرب ، كما إنما كانت هذه الصلة غير موجودة من قبل .

ولأننى اليوم لأبسم إذ أذكر هذه المحاولة من جانبي ، وأبسم حين أقرأ كلمة كبلنج .. فالشرق شرق والغرب غرب هذا صحيح . لكن الشرق والغرب التقيا منذ أبعد حقب التاريخ ، وهما يلتقيان دائماً وسيلتقيان ما بقى فى العالم شرق وغرب . والنضال مستمر بينهما لم تهدأ

قط يوماً ثأثرته . وما عسى يكون التلاقي إذا لم يكن في إفضال . وهل الحياة في رأى العلماء من معاصرى كبلنج وأصدقائه غير النضال . كذلك يقول داروين في نظريته عن النضال للحياة (Struggle For Life) ، وكذلك يقول شوبنهاور عند حديثه عن فلسفة الحب ، وأنه ليس هذا المعنى الخيالى الجميل الذى يتغنى به الكتاب والشعراء ، وإنما هو الجهاد العنيف لتخليد النوع وتحسينه . فن عجب أن يحاول الكتاب أو المفكرون خلق صلة بين الغرب والشرق وهذه الصلة موجودة منذ القدم ، وهذا الالتقاء بينهما هو الذى أثار فى العالم حضارات العالم ، وهو الذى رفع فوق مجازر الحروب وأهوال التعصب الدينى قُبساً بعد قبس من ضياء النور والهدى والعلم . وفى هدى هذا للضياء سار العالم نحو السكالك خطواته البطيئة القليلة خلال بضعة آلاف السنين التى نعرف .

وهذا الالتقاء بين الشرق والغرب لقاء نضال ينتهى مرة إلى غلب ، وأخرى إلى هدنة ، وثالثة إلى صلح ، ورابعة إلى تعاهد وتحالفه تجارى أو حربى هو بعينه الالتقاء بين دول الغرب نفسها ، لقاء ينتهى إلى واحدة أو لأخرى من هذه الغايات .

وكما أن دول الغرب قد تحالفت فى حقب مختلفة كذلك لتناوى دول الشرق . كما تحالفت كذلك دول الشرق فى حقب مختلفة لتناوى دول الغرب ، فقد حدث فى غير هذه وتلك من الحقب أن تحالفت دول من الشرق وأخرى من الغرب لتناوى غيرها من دول الشرق

أو الغرب ، أو من دول منهما متحالفة هي الأخرى .

على أن التقاء الشرق والغرب لقاء نضال وتطاحن كان أكثر اتصالاً على التاريخ من تقاوم الشرق والغرب ، أو من تقاوم بعض الدول من الشرق ومن الغرب . ولسنا نريد أن تفصل ذلك هنا قفصيه ليس مقصد هذا الكتاب . ولكننا جميعاً نذكر كيف كان الغزو متصلاً بين مصر الفراعنة واليونان ، وكيف كان الغزو متصلاً بعد ذلك حين استولى إسكندر الأكبر على مصر حوالى سنة ثلاثمائة قبل الميلاد ، وكيف غزت مصر اليونان من بعد ذلك في عهد البطالمة أنفسهم ، ثم كيف غزا اليونان مصر تحت حكم يوليوس قيصر ، وكيف انتهت دولة البطالمة المصرية بانتحار كليوباتره . هذا المد والجور بين مصر واليونان وروما قد حدث مثله بين فييقيا ومصر ، وبين فييقيا واليونان ورومه . وفي هذه الحصور كانت الوثنية منشورة اللواء في هذه النواحي المعروفة من عالم يومئذ في صور إيمانها وطقوس عبادتها المتباينة المختلفة . ولم يغير ظهور موسى وبني إسرائيل من هذا الوضع في مد العالم يومئذ وجزره تغييراً يذكر . فقد خضع اليهود في ذلك العصر لحكم روما خضوع لإذعان وسكينة قانعين بأرض الميعاد والمقام حول قدس سليمان وما جاوره من الأماكن المقدسة ، فلما ظهرت المسيحية في جوار قدس سليمان ، وفي أرض الميعاد ، كان طبيعياً أن يدس اليهود لها عند الحكام الرومانيين وأن يحاولوا إظهارها في مظهر الثورة على سلطان الدولة . لكن المسيحية لقيت من نفوس الطوائف التي

كانت مضطهدة حين ظهورها سوما أكثر ما كانت إقبالا عليها أن كانت تعدها النعمة في السماء جزاء ما لقيت على الأرض من شروعت ، و بقيت المسيحية حظاً موقوفاً على هذه الطوائف المضطهدة أجيالا حتى أتاحت الأقدار لها أن تنفذ إلى قلب حاكم رقيق العاطفة عجب للضعفاء ، وانتقلت المسيحية من روما إلى البلاد التي كانت خاضعة لحكمها . انتقلت إلى مصر والشام واليونان . ثم امتدت من مصر إلى الحبشة وإلى اليمن . ثم جعلت تغزو في بطة وسكينة بعض نواحي العراق في الشرق . وبعض نواحي أوروبا البربرية إذ ذاك في الغرب .

وفي أواخر القرن السادس المسيحي ظهرت الدعوة الإسلامية . ظهرت أول أمرها ضعيفة متواضعة برسولها اليتيم الأمي وبالعبد القليل الذي اتبعه ، قوية بالدعوة إلى التوحيد وإلى الحرية وإلى الرحمة وإلى الإخاء ، دعوة تناولت القوى والضعيف ، والغنى والفقر ، والمترف والمحروم . ظهرت هذه الدعوة أول أمرها ضعيفة متواضعة لم يشعر بها أحد ولم يدع صاحبها إلى اتباعه غير عشيرته الأقربين . لكنها كانت دعوة إلى المثل الأعلى في الإيمان وفي الخلق وفي التضحية وفي تمنى الموت في سبيل الحق والحرية والخير والفضل والعدل ، لذلك استجاب إليها كثيرون من أهل مكة طيبة نفوسهم بما تلقى في سبيل إيمانها من اضطهاد وتعذيب . وتعاقبت السنون والمؤمنون بالدعوة يزدادون عدداً ويزدادون في إيمانهم قوة ، وللعذاب في سبيل هذا الإيمان حبا . ثم عرض محمد نفسه على القبائل أثناء حجها السكبة

فاستهانت في البداية بأمره . لكن كلماته انطبعت في نفوس الكثيرين من أبنائها . وعرفت بلاد العرب أمر محمد وأصحابه ، ثم اشتد ساعده بيعة العقبة الكبرى ، وبالهجرة إلى المدينة ، وباتتصاره على قريش وفتح مكة وبدخول العرب في دين الله أفواجا . وأرسل محمد رسله إلى الملوك والأمراء من حوله يدعوهم إلى الإسلام ويعدهم سعادة الدارين .

ولقد أحاطت بمحمد حين دعوته بيعة معادية أشد العداوة . أحاط به العرب الوثنيون الذين كانوا أشد الناس له عداوة ، واليهود المنبثون في أنحاء شبه الجزيرة وفي جنوب الشام ، والمجوس في فارس والنصارى في اليمن من الجنوب ، وفي الإمبراطورية الرومانية والبلاد الخاضعة لحكمها من الشمال والغرب . لكن هذه الدعوة الجديدة لم تلبث أن ظفرت بهذه القوى جميعاً ؛ ففي أقل من مائة سنة عقب وفاة النبي امتد سلطان الإسلام إلى الشام وإلى مصر وإلى شمال أفريقيا حتى المحيط الأطلنطي ، وانتقل من مراكش إلى إسبانيا كما امتد في قلب آسيا حتى أواسطها . وفي فترات متعاقبة متقاربة يعد ذلك امتد إلى الهند وإلى جزر الهند الشرقية وتغلغل في أفريقيا وفي آسيا . وبذلك قامت في العالم إمبراطورية إسلامية مترامية الأطراف تنقلت عاصمتها من مكة إلى دمشق إلى بغداد إلى القاهرة وأحيت في العالم حضارة جديدة . انكشفت أمامها الحضارة الرومانية والحضارة اليونانية ووقفت إزاءها المسيحية خائفة ترقب . وعن خوف المسيحية وعن ترقبها نشأت

الحروب الصليبية متطلعة أنظار أهلها جميعاً إلى بيت المقدس ، إلى جواره ولد المسيح وفيه قام المسجد الأقصى وعلقت صخرة سليمان . وظلت هذه الحروب قائمة شور حيناً وتهدأ حيناً ولا تقص المسیحية منها إلى شيء مما تبغى حتى ظنت في ختام الحرب الأخيرة الكبرى سنة ١٩١٨ أنها بلغت غايتها بوضع إنجلترا وحلفائها أيديهم على بيت المقدس وهتاف الفلد مارشال النبي قائد قوات الحلفاء في الشرق الأدنى يومئذ قائلاً : (اليوم انتهت الحرب الصليبية) .

رغم هذه الخصومة الأصيلة في النفوس والتي بدت من جانب أوربا منذ الحروب الصليبية الأولى فقد أبدى الشرق في هذه القرون جميعاً من التسامح الديني ما يمجدر بالمؤرخ المنصف تسجيله وتقديره . والأمر كذلك بنوع خاص حين مجد الشرق وازدهار الحضارة الإسلامية في ربوعه . أي منذ فجر الإسلام إلى ما بعد فتح الأتراك القسطنطينية وتوغلهم في أوربا إلى أسوار فيينا . ففي تسعة قرون متوالية كانت النعرة الصليبية تجمع الجيوش في ممالك أوروبا المختلفة وتوجه بها تحت إمرة ملك إنجلترا أو ملك فرنسا أو غيرها من ملوك النصرانية قاصدة غزو المسلمين واستخلاص بيت المقدس من أيديهم . ولم يكن ذلك لأن الدول الإسلامية كانت تصد المسيحيين عن أداء الطقوس الدينية في بيت المقدس . فقد كانت هذه الطقوس تؤدي . وكان المسيحيون ، سواء منهم من استظل بلواء الدولة الإسلامية ومن قدم من بلاد أجنبية ، يقومون بها في أمن وسكينة لا يكدرها مكدر . وإنما كان ذلك تعصباً للمسيحية حرصاً

من أهلها على الأخذ بالثأر . وكان المسلمون في مختلف العصور يكتفون
بصد الغزوات الصليبية دون أن يهبوا لغزو أوروبا المسيحية انتقاماً
منها عن اعتدائها على ديارهم ، بل كان هؤلاء المسلمون يحسنون
معاملة الغزاة المسيحيين الذين يقعون في أسرهم حتى سجل المؤرخون
الأوروبيون ذلك لهم بمداد الإعجاب والفخر . ولم يغير تكرار الغارات
من نفس المسلمين ولا هو أغرامهم بالانتقام من لويس التاسع حين
أخذوه أسيراً بالمنصورة ، ولا هو أغرام برتشارد قلب الأسد حين كان
في سلطان صلاح الدين الأيوبي ويده . وليس لمؤرخ منصف إلا أن يسجل
للمسلمين بالإعجاب والفخر دفاعهم عن ديارهم التي أصبحت إسلامية
ودخلت في حوزة الإسلام منذ عصوره الأولى ، وأن يشهد بأنهم كانوا
على حق فيه ، بينما كان الصليبيون هم الثاثرين المثيرين . وبينما كان
التمصب الديني هو الحافز لهم على العدوان عدواناً لم يكتب لهم التوفيق
فيه خلال خمسة عشر قرناً كاملة .

ما سبب هذا الاندفاع من جانب أوروبا المسيحية ؟ وكيف بقي
المسلمون أيام مجدهم يكتفون من هذا الاندفاع بصدّه دون مواجهته
بغزو مثله ؟ أما اندفاع أوروبا المسيحية فصدّه عاملان : أولهما أن
الإسلام أغار في أول أمره على بلاد مسيحية كانت روما وكانت
القسطنطينية من بعد ، ترجو أن تتخذنا قواعد لازدياد انتشار
المسيحية ، وكانت الشام ومصر أهم هذه البلاد ، وثانيهما أن الإسلام
أقام من البلاد التي فتحها ونشر عليه فيها سداً يفصل بين أوروبا

المسيحية وبقية العالم يومئذ ، والذي لم يكن يزيد على أفريقية وآسيا وأوربا ، فأمرى كما تكن قد اكتشفت . وقد بدأ الإسلام يصد تيار المسيحية في اللحظة التي توسمتها فاتحة النصر وبداية الوثبة إلى قلب آسيا وأفريقية ، فقد كانت الحرب السجال قائمة بين فارس المجوسية ويزانطة المسيحية ، وكان لفارس فيها انقلب أكثر الأمر ، فلما بدأ الحظ يتغير في هذه الحرب ليتسم لهرقل عاهل المسيحية فيقتصر على المجوسية ويمكنه من استرداد الصليب الأعظم من فارس وإعادته إلى بيت المقدس في حفل عظيم ، أوفى فيه بنذره أن يسير من عاصمة ملكة إلى المسجد الأقصى على قدميه يحيط به أتباعه وجنده ويقدمهم هذا الصليب الأعظم رمزاً مقدساً للإيمان والنصر . وإنه في هذه اللحظة وفي هذا الحفل بقي بنذره إذ جاءه رسول النبي العربي بكتاب محمد بن عبد الله يدعو فيه هرقل ملك الروم إلى الإسلام . ولم تمض سنوات بعد ذلك حتى كان بيت المقدس وكانت الشام كلها في قبضة المسلمين ، وحتى وقف هذا الدين الجديد ووقف سلطانه ووقفت جيوشه الظافرة حائلا بين أوربا المسيحية والوثبة إلى آسيا . وفي سنوات أخرى من بعد ذلك اندفع تيار الإسلام إلى مصر وإلى شرق أفريقيا حتى مراکش وحتى غزا المسيحية في إسبانيا ، فوقف الدين الجديد وسلطانه وجيوشه حائلا بين أوربا المسيحية والوثبة إلى إفريقيا . فإذا ظلت أوربا المسيحية مكتظة النفس غلا وحفيظة على هذا الدين الجديد وأهله ، وإذا هي حاولت في فترات كثيرة مختلفة أن تسير جيوشها الصليبية لغزوه وغزو أهله ، فلما من هذين العاملين عذر وشفيع ، ولها فيما يملآن به النفس حرصاً على

الأخذ بالثأر أكبر الرجاء في أن يكون لها على خصومها الفوز والغلب.

لكن جهود أوربا ذهبت مع ذلك هباء وتخطمت على صخرة هذا الإسلام الناشئ المطمئن إلى عزه وإلى قوته . فلماذا ؟ وكيف تتدحر أوربا ولديها من الأسباب النفسية للظفر ما يهيء أمره ويجعله ميسوراً ؟ علة ذلك ترجع في رأيي إلى جمود النصرانية يومئذ وإلى أجتهد الإسلام . ففي هذه العصور الوسطى المسيحية كانت الكنيسة قد استأثرت بكل أمر ووضعت يدها على كل شيء . كان الملك في حاجة إلى رضا الكنيسة عنه وإلى مباركتها إياه ليطمئن إلى ملكه وإلى طاعة شعبه إياه . وكان رجال الدولة يذعنون للكنيسة ويلتمسون بركتها . وكانت كلة الكنيسة معتبرة كلة الله وكلة المسيح وكلة الروح القدس نفسه ، لا يستطيع أحد أن يرفع إليها باصرتة إلا بنظرة تقديس وإجلال لا تشوبها خلجة تساؤل أو ريب . وبذلك استشرى سلطان الكنيسة إلى كل نظام ، وإلى كل مجتمع ، وبلغ حتى دخل مع الأسرة دارها ، ومع كل رجل قلبه فاحتل فواده وأخذ عليه عقله وعاطفته وكل حياته . بذلك حملت الكنيسة وحدها عن الناس تبعاتهم ، وجعلت نفسها نائبة عن الله في المغفرة لهم ، وبذلك استأثرت الكنيسة بحريتهم ، وبعقولهم ، وبضيائهم ، فأصبحوا لما عبيداً سعداء بعبوديتهم ، سعداء بالطابع الذي طبعتهم وتطبعهم به . ولم لا يكونون سعداء وقد نفت عنهم الكنيسة كل تكاليف الحياة الإنسانية . فليس لأحدهم أن يفكر مخافة أن يدفع به التفكير إلى

الخطيئة . وليس لأحدهم أن يجب مخافة أن يدفع به الحب إلى الخطيئة ،
وليس لأحدهم أن يتصرف في أمر من الأمور برأيه مخافة أن يدفع
به رأيه إلى الخطيئة . والكنيسة وحدها هي التي تفكر للناس
جميعاً ، وهي التي تدلهم على ما يحبون وعلى ما لا يحبون ، وهي التي ترشدكم
إلى ما يتصرفون به في جليل أمورهم وتأنبهم . رسمت لهم حدود كل
شيء . وجعلت تخطى هذه الحدود خطيئة ، حتى حدود عواطفهم
وأهوائهم . حتى حبهم لأزواجهم وأبنائهم . بل رسمت لهم كذلك
طريق السعي والعمل وطريق الاستحمام والنوم ، قيدت وجودهم
الإنساني بأغلال من حديد ، وجعلت منهم آلات لا تريد إلا بإرادتها
ولا تتحرك إلا بأمرها ولا تتنفس إلا هواءها . وآمنت هذه الآلات
بأن هذا الجود هو سبيل السلام ووسيلة النجاة والسلام إلى السماء
يرتقيه الإنسان ليصل إلى مقعده بين البررة الأطهار . إذا وصلت
الإرادة الإنسانية إلى هذا الفناء وكملت حرية العقل وحرية الضمير بهذه
الأصفاد فقد ضمرت فيها قوة الحياة فلم يبق لها على الحياة قوة ، ولا
على أحد من أهل الحياة سلطان ، ولم يبق لها إلى النصر والغلب سبيل .

بينما كانت الكنيسة المسيحية في العصور الوسطى تصل بالشخصية
الإنسانية إلى هذا الجود الذي يقعد بها عن أن تريد أو أن تعمل ،
كان الإسلام في نشأته وفي قوته شيا به يحطم القيود ويرفع عن الذاتية
الإنسانية عبودية لغير الله وحده لماياه نعبد ولماياه نستعين . لم يعرف
هذا الإسلام الناشئ كنيسة ، ولم يجعل لأحد من الناس على أحد

سلطاناً ، ولم يجعل لعربي فضلاً على أعجمي إلا بالتقوى . اذلك ما لبث
 الأعاجم من أهل فارس وأمثالهم من البلاد الخاضعة للملك الروم أن
 اعتنقوا الإسلام حتى رأوا فيه الحرية للعقل والعاطفة والشعور ،
 الحرية التي تنكر الفوضى والإباحية إنكارها للاستبداد والعبودية .
 الحرية التي تعترف للعقل والقلب واللسان والإلهام بحقوقها جميعاً في تنظيم
 حياة الفرد وحياة الجماعة بما يكفل للفرد السيادة وللجماعة الطمأنينة
 في حدود تقوى الله ورضاه على ما نزل بها القرآن ، لا على ما تريدها
 أهواء ذوى الحكم والسلطان . لذلك نهل المسلمون من ورد هذه
 الحرية فغزوا بعقولهم وبقلوبهم علوم اليونان وفلسفتها وحكمتها وحكمة
 فارس وخيالها وشعرها . ولم يكن لأحد ولا لصاحب السلطان أن
 يصد عن ذلك إن لم يشجع عليه . وكيف يصد الحاكم عنه ، وإنما هو
 وكيل المسلمين في حدود ما أمر الله به وما نهى عنه في القرآن الكريم .
 إن نظام الحكم الإسلامى لم يكن نظاماً أوتقراطياً للحاكم فيه الكلمة
 العليا . بل كان نظاماً محدوداً خير من عبر عن حدوده أبو بكر حين
 ولى الخلافة ؛ إذ خطب الناس فقال : « أيها الناس ، إني قد وليت أمركم
 . ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فتقومونى ،
 أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فيكم ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا
 طاعة لى عليكم » . وبالرغم من أن هذا النظام الذى رسم للحاكم حدوده
 الضيقة لم يلبث طويلاً في هذه الحدود ، ومن أن الخلافة انقلبت ملكاً
 عضوضاً منه خلافة معاوية بن أبى سفيان ، فإن الحرية التي أباح
 الإسلام للمسلمين بقيت مكفولة لهم عصوراً طويلة يتمتع العرب وأما

الشام والفرس وأهل مصر وكل من استظل بسطان الدين القيم مسلماً
كلن أو من أهل الكتاب ، وبهذه الحرية أمعن المسلمون في نهلمهم
من فلسفة اليونان وأدبهم ومن حكمة الفرس وخيالها ، ومن كل
ما يتصلون به أو يتصل بهم في البلاد التي تدين لهم أو تتعاهد وإياهم .
والحرية الإنسانية لا غالب لها ما تحطمت من حولها القيود وما استمتع
بها الإنسان متاعاً صحيحاً . وقد ظلت هذه الحرية للمسلمين مكفولة إلى
أن جاء العباسيون فزادوا في سلطان الحكم المطلق خطوة جديدة بعد
خطوة الأمويين ، خطوة نقلت الحكم من الشورى الإسلامية الصحيحة
إلى الإطلاق الفارسي إطلاقاً مهد للانحلال الذي أصاب سلطة الإسلام
في بغداد بفعل الحضارة الإسلامية التي ازدهرت في آسيا طوال عصر
الأمويين والعباسيين لثروهم في أفريقيا على ضفاف النيل ولتتخذ القاهرة
مقرها . ولئن كانت القاهرة قد تأثرت إلى حد غير قليل بما أصاب
دمشق وما أصاب بغداد فإنها احتفظت بالتراث الإسلامي الذي انتقل
إليها كخير ما يكون الاحتفاظ به ، لأن خطأ غير قليل من الحرية كان
لا يزال مسموحاً به للعلماء والمفكرين والشعراء وذوى الرأي والمكانة
من المسلمين المصريين ، ومن المسلمين الذين نزحوا إلى القاهرة حين
استقر ملك الإسلام فيها .

طبعي الا يوفق الصليبيون في غزواتهم بعد الذي رأيت من
هذه المقارنه السريعه بين حالهم وحال المسلمين في هذه الفترة من
فترات عصور المسيحية الوسطى . وطبعي أن يريدهم قوا إلى الانحدار

حتمداً على المسلمين . اسكن أحدهم لم يكن قادراً على شيء . فالجود
والتعصب حقودان بطبعهما ، عاجزان كذلك بطبعهما . والحرية
والاجتهاد في صورتها الصحيحة لا يعرفان الحق وليكنهما لا يغلبان ،
ولذلك لم يقابل المسلمون غزوات الصليبيين بغزوات مثلاً .
ولذلك كان الصليبيون كلما دارت عليهم دائرة المزيمة أرتدوا إلى
ديارهم فاستجموا زمناً يجتزون خلالها هزيمتهم ثم تضطرم من جديد
نار الحق في نفوسهم بعد سنين أو عشرات السنين في تجهزون للحرب
صليبية أخرى يكون نصيبهم فيها المزيمة التي كانت نصيبهم في سابقتها .
وفيما بين المزيمتين ، وخلال عشرات السنين هذه ، يطمئن الأوروبيون
ويطمئن أهل الشرق إلى حياة سكونية وجد وسعى في منابك الأرض
ابتغاء الرزق . وظلت الحال كذلك إلى أن جاء الأتراك من آسيا
غزاة يفتحون الممالك ويدوخون الملوك ويظفرون بدول الإسلام
أكثر مما يظفرون بدول المسيحية ، ثم يتوغلون في أوروبا حتى
تصدهم أسوار فيينا .

كان هذا نصيب الحروب الصليبية ، وكانت تلك أسباب فشل
الصليبيين فيها . على أن واحدة من هذه الحروب الصليبية قد نجحت
وقد بلغت من النجاح أكثر مما كانت تطمح . أول أمرها فيه . تلك
هي الحرب التي أجلت أوروبا فيها الإسلام من الأندلس ، فقد دخل
الإسلام حين سؤدد سلطانة إلى شبه جزيرة إيبيريا . أملأ أن يمتد منها
إلى فرنسا . وإلى سائر أوروبا ليتصل بالإسلام الزاحف من الشرق

عن طريق الشام والأناضول إلى المملكة الرومانية . لكن هذا الزحف من ناحية الشرق وقف بعد أن بدأ انقلاب نظام الحكم من الثورى الإسلامية إلى الأتوقراطية الفارسية ، وبعد أن أتى هذا الانقلاب ثمرة المحتومة : انحلال القوى المعنوية وتضعف الإيمان الصادق في النفوس . لذلك لم يتح للذين فتحوا الأندلس أن يتوغلوا في أوروبا بعد أن صدتهم عن التقدم إلى فرنسا فاكثفوا بإقامة الدولة الإسلامية في إسبانيا وظلت هذه الدولة قوية مزدهرة زمناً ، لكنها أصيبت هي الأخرى في نظام حكمها بما أصيبت بغداد وسائر الأقطار الإسلامية . ثم إنها اطمأنت إلى النعمة المادية في الأندلس طمأنينة آتت ثمراتها ، وثمرات الطمأنينة في النعمة المادية التناقص ، عليها والتحاسد في سبيلها والتناحر والتطاحن للاستزادة منها . وذلك ماحدث . وكان من أثره أن كثرت الإمارات وأن ضعف السلطان المركزى وأن طمع المسيحيون في استرداد ما يؤمنون بأنه حقهم ، وشغلت سائر دول الإسلام يومئذ بمثل ما شغلت به الأندلس من الجرى وراء مطامع الحياة الدنيا والتفانى في سبيلها تفانياً أنسى المسلمين أنهم إخوة يجب أن يسرع كل منهم إلى نجدة أخيه . وأجلت المسيحية الإسلام عن الأندلس واستعادت إسبانيا كلها وإن قعد بها ما وصفنا من جمودها عن أن تتأثر المسلمين في تراجعهم وأن تبعهم في أفريقيا . وبذلك قويت القوتان الإسلامية والمسيحية وجهاً لوجه يفصل بينهما البحر تروسط ، وقد دب إلى دول الإسلام انحلال كالذى أدى إلى زيمة المسيحية . انحلال سببه هذا الجمود الذى أصاب المسلمين .

فجعل علماءهم ومفكرهم يزولون لصاحب السلطان عن حريتهم ويضعون تحت تصرفه عليهم لقاء ما يقدفه عليهم من نعم مادية كانوا أشد فرحاً بها منهم بحريتهم ويعلمهم . وبذلك لم يقووا على صد غزوة الترك الذين ظفروا بهم ثم ظفروا من بعدهم بالقسطنطينية وبما تلاها من بلاد المسيحية حتى قينا .

لم يكن الأتراك في هذا الغزو دعاة إلى حضارة ، ولادعاة إلى دين . بل كانوا غزاة طامعين في أسلاب الغزو وفي استغلال الأمم التي يغزون على مثال أكثر الغزاة في ذلك العصر وعلى مثال أوربا في هذا العصر الحاضر ، ولقد كان لهم من العذر في ذلك أن ظروفهم الخاصة لم تكن لتبني لهم الاضطلاع بعبد حضارة معينة . لقد كانوا مسلمين ، وكان الطبيعي أن يرتعد أعداء الحضارة الإسلامية المهدة يومئذ بالانحلال تحت ألقاض الجود . لكن مقومات الحضارة الإسلامية كانت تعوز هؤلاء الزاحفين من قلب آسيا حيث كانت تحيط بهم أثناء مقامهم في وطنهم صور من العقيدة والحضارة لاتتفق في شيء مع صور الحضارة الإسلامية والعقيدة الإسلامية . ثم إنهم أبدوا حرصاً على لغتهم ونفوذاً من اللغة العربية . واللغة العربية كانت في البلاد الإسلامية جميعاً لغة الدين ، ولغة العلم ، ولغة الأدب ، ولغة المقومات الأساسية جميعاً لأية حضارة من الحضارات . لذلك كانوا أشد حرصاً على مغائهم الغزو منهم على تأييد الحضارة الإسلامية . ولذلك لم يفكر أحد منهم في رفع نير الجود الذي أصاب المسلمين في عقائدهم وفي فقههم وفي

لقتهم وإن حرصوا على أن يأخذوا من مصر ومن سائر البلاد التي غزوا مهرة الصناعات ورجال الفن من وثقوا بمقدرتهم على تشييد المظاهر المادية وعلى توطيد أسباب الثروة والنعمة المادية . كانت النتيجة المحتومة لهذا الغزو التركي المعتمد على الملكات الحربية ، النفور من مقومات الحضارة الإسلامية الصحيحة ، أن ازدادت الأمم الإسلامية جهوداً في العقيدة وفي التفكير ، وأن نشأت فيها طائفة من رجال الدين على مثال الطائفة التي قيدت المسيحية في عصورها الوسطى بأثقل الأغلال : طائفة أنكر الإسلام منذ ظهوره حقها في الوجود . ووضعت طائفة رجال الدين المفتعلة نفوذها وحريتها وما تدعى من علم في خدمة الغزاة الغالبين بما أدى إلى استمرار الانحطاط والتدهور في العالم الإسلامي الذي خضع للنير التركي . ولكن هذا الغزو التركي كان له في أوروبا المسيحية نتيجة هي النقيض من هذه . نتيجة محسنة آذنت بانتقال مد الحضارة إلى الغرب بمقدار ما كان من طردها في الشرق الإسلامي ، وكانت مقدمة البعث الأوربي والحضارة الغربية الحاضرة .

ظهرت هذه النتيجة التي أثمرت الحضارة الغربية في بطنها وأناة وبعد جهود شاقة ونضال عنيف عشرات السنين بل مئاتها . كان الجيل يعقب الجيل ، وفي كل جيل يبدو من هذه الثمرة أثر جديد ، وفي هذه الأثناء كانت الامبراطورية التركية ينفس مدى سلطانها الحربي ليزيد الأمم الإسلامية جهوداً وركوداً . فلما آن للغرب أن يسترد — باستردادته الحرية الإنسانية — مكانته ، اتجه إلى هذه الامبراطورية التركية يريد

أن ينتقم منها لنفسه ، كما وجه الغزوات الصليبية من قبل إلى أمم الإسلام ليبتقم منها . وحاولت أوروبا بعد الحرب الكبرى أن تقضى القضاء الأخير على الرجل المريض ، وألقى اللورد النبي تصريحه بأن الحروب الصليبية انتهت . يريد بذلك أن المسيحية انتقامت لنفسها انتقاماً حاسماً من الإسلام . وتلك لعمري سخريه من القدر مُرّة . فلو أن شيئاً اسمه الاعتراف بالجميل كانت تعرفه العلاقات الدولية لذكرت أوروبا للترك فضلها الأول في القضاء على الدول الإسلامية بالجمود ، وفي تمهيد الطريق للبعث الأوربي وللحضارة الغربية الحاضرة . لكن الحياة لا تعرف هذه المعاني إلا بمقدار ما تعاون هذه الحياة . فإن هي وقفت في سبيلها حطمتها وداستها وتخطتها إلى ما هو خلاق بمزيد في الحياة .

كيف أدى الغزو التركي إلى بعث أوروبا وإلى الحضارة الغربية الحاكمة اليوم في الشرق والغرب ؟ وكيف اضمحلت دول الشرق حتى خضعت كلها لنير أوروبا ؟ وهل اضطلعت الحضارة الغربية برسالة خاصة تنجيه بالإنسانية نحو كمالها وسعادتها ؟ وماذا كان موقف الشرق من الغرب في هذه الظروف المختلفة ؟ وما موقفه اليوم ؟ . . .

إبان البعث الأوربي

تقدم الأتراك في أواسط آسيا فغزوا البلاد الواقعة في طريقهم حتى اقتحم محمد الفاتح القسطنطينية في سنة ١٤٥٣ ، وتقدم خلفاؤه إلى أسوار فيينا . ووقفت أوروبا في وجه هؤلاء المسلمين الفاتحين مستأنية غائفة على مصير المسيحية ، اتجه الأتراك بغزواتهم وافتحهم إلى البلاد الإسلامية فتقدموا إلى الشام وإلى مصر ، وتم للسلطان سليم وضع يده على القاهرة في سنة ١٥١٧ . وبديهي — وللأتراك من الملكات الحرية مالم ودينهم الإسلام — أن يحملوا أهل بينظة على اعتناق هذا الدين ، وكان من أثر ذلك أن هاجر العلماء والكتّاب المسيحيون المقيمون في شبه جزيرة البلقان وفي اليونان إلى روما وإلى بلاد أوروبا المسيحية المجاورة للبلاد التي غزا الأتراك وقتحوا وعملوا على أن تملأ فيها كلفة الإسلام .

وقفت أوروبا مبهوتة إزاء هذا الفتح الجديد ، وجعلت تفكر في هذا الماضي الذي حاولت فيه عبثاً أن تسترد الأماكن المسيحية المقدسة من المسلمين ، وفي هذا الغزو الجديد الذي أعاد إلى الذاكرة غزو العرب لبلاد الأندلس : فليس طبعياً أن تتعرض أوروبا لكل هذا الغزو وكانت إلى الأمل القريب بآمن من غائلة الشرق وكانت خلال القرون المسيحية الأولى صاحبة مجد الحضارة في العالم كله . لقد مدت روما

في العصور التي سبقت المسيحية والتي تلتها امبراطوريتها المترامية
الاطراف إلى الجزء من أقطار العالم المعروف يومئذ ، كانت أعلام
قيصر تتخفق في مصر ، وكانت جنوده تخرق أوروبا إلى إنجلترا . فلما
دالت دولة روما قامت بيزنطة مقامها رافعة شأن المسيحية مقيمة
في مختلف الدول علم حضارتها الخفاق . وظلت أوروبا من بعد ذلك
تشن الغارات الصليبية على دول الإسلام غارة بعد غارة . فإذا أصابها
حتى أصبحت مهددة كل هذا التهديد بأن تذلل للمسلمين ، وبأن تذلل
للأتراك القادمين من ظلمات آسيا . ففكر أهل أوروبا يومئذ في ذلك
وأخذوا أنفسهم بالبحث عن أسبابه ووسائل التغلب على هذه
الأسباب . وكانت لهم في هجرة العلماء الذين أجلى الغزو التركي عن
بيزنطة إلى روما وإلى أوروبا الوسطى ما يكفل دقة هذا البحث ومه
يمهد في نفس الوقت إلى مقدمات البحث الأوروبي الذي تمخضت عنه
أوروبا بعد مائة سنة أو ما دونها من اقتحام الأتراك المسلمين حاصنة
المسيحية يومذاك .

وفي طبائع الناس أن يتساءلوا في مثل هذا الموقف عما إذا لم يكن
للدين الذي يدينون به تبعه عن المآل الذي هووا إليه . وكان مثل
هذا التساؤل محتوماً يومئذ أن كان تبادل الغزو قائماً بين المسيحية
والإسلام وإن كان للإسلام الفوز والغلب . وفي طبائع الناس إذا
ألقوا مثل هذا السؤال أن يلهمهم الحق بالإجابة عنه بالنفي .

إن الدين الذي كان يوماً سبب الرفعة والفوز والغلب لا يمكن أن

يكون هو بذاته سبب التدهور والانحلال والهرطقة . فان يكن على عقائد الناس في تضعيف عزائمهم وخور نفوسهم تبعة ، فلا بد قد اندس إلى هذه العقائد باسم الدين ما ليس من الدين ، وما أفسد العقائد وزعزع الإيمان الصحيح في النفوس . فهل حدث من ذلك شيء في المسيحية ؟ وإن يكن قد حدث فما عساه يكون ؟

طرح مفكرو أوروبا في القرن الخامس عشر على أنفسهم هذا السؤال ، وبحسبوا يلتمسون الجواب . وليس العثور على الجواب في مثل هذه الظروف ميسوراً . فرجال الدين الذين يوجه إليهم هذا الاتهام لا يذنون عندئذ فرصة إلا انتهزوها للقضاء على خصومهم . ورجال الدين من أهل الكنيسة المسيحية كان لهم من السلطان المطلق ما رأيت بحمل صورته في الفصل السابق ، ولم يقف سلطانهم عند وضع يدهم على إرادة الناس وعلى تفكيرهم . بل امتد إلى المغفرة للذنوب ومحو خطيئة المخطيء ، ولم يكن هذا الغفران حرصاً منهم على ألا يعود المخطيء إلى خطيئته . فقد كانت برارات الغفران تباع يومئذ وتفيد الكنيسة منها أموالاً طائلة . إذ أن فقد انقلب الدين وسيلة لاحتياال المال وأصبحت الكنيسة تقتضى المال بهذه الوسائل الخاطئة باسم الرب وباسم المسيح فزيد في سلطانها المادى ابتغاء الغلب في هذه الحياة الدنيا . تحدث العلماء في هذا وأنكروه فيما بينهم على الكنيسة من غير أن يجترؤ واحد منهم على التظاهر في وجهها مخافة أن تحطمه قوة سلطانها . كانت للكنيسة تصرفات غير قليلة تشبه بيع برارات الغفران ، وإن لم يكن منها ما تبدو مخالفته

للعقل بدئية. بداهة بيع هذه البراءات . وتزايد حديث العلماء فيما بينهم وألقوا على الكنيسة تبعات ما تنوء به أوروبا من تدهور ، حتى قبض الله رجلاً من رجال الدين يحمل كلمة العلماء هذه ويلقي بها في وجه زملائه ، ذلك مارتن لوثر . من يومئذ بدأت الثورة على الكنيسة وتعاليمها . ومن يومئذ بدأت الكنيسة تشعر بقوة هذه الضربة الموجهة إلى سلطانها المطلق شعوراً جعلها تحاول القضاء عليها في مهبها . وقد سلكت لذلك مختلف السبل حتى نزلت إلى ألوان من المهاترة ؛ منها أن اتهمت لوثر في نزاهته وألقت عليه أنه إنما قام في وجهها لأنه يريد أن يخرج كقسيس على تعاليم الدين التي تحظر الزواج على القسس وتسموهم عن حب المرأة وإلى تكريس كل حبه للسيد المسيح ، وأن الشيطان الذي زين له حب المرأة وأغراه بالزواج هو الذي دفعه ليرفع عقيرته في وجه براءات الغفران وهي وسائل طمأنينة وسعادة للمسيحيين جميعاً . ولكن صيحة لوثر لقيت في كثير من أنحاء البلاد المسيحية صدى قوياً ؛ لأنها كانت تعبر عما يحول بالنفوس وتسكاد تفيض به القلوب على الحواطر . بل على الألسن . صحيح أن الناس وقفوا باهتين إزاء هذه الجرأة التي لم تكن معروفة من قبل . لكن ذلك إنما كان بقية مما صور الوهم لنفوسهم من سلطان الكنيسة القاهر في الأرض وفي السماء . فإذا كان هذا السلطان لا ينال من لوثر بأكثر من توجيه تهم لا دليل عليها فقد آن للناس أن يفيقوا من غفلتهم ، وأن يطرحوا كابوس الوهم الذي أثقلهم ، وأن يزداد الصدى الذي تتجاوب به أنحاء المسيحية لصيحة لوثر سلطاناً وقوة . وكذلك أعلنت

الثورة على الكنيسة وأعلنت على الجود الذي قيدت الكنيسة به العقول والقلوب ، وكذلك امتدت هذه الثورة من براءات الغفران . إلى سائر مقررات الكنيسة مما لا يطمئن إليه العقل . وكذلك بدأت قيود العقل تحطم رويداً رويداً ، وبدأ «كالفن» في سويسرا و«جون نوكس» في إنجلترا يعلنون الثورة التي أعلن لوثر وينادون وإياه بأن الدين لا يمكن أن يناهض العقل . وأن ما خالف العقل ، من مقررات الكنيسة ، لا بد أن يكون خارجاً على الدين . وبذلك انتشرت ثورة الإصلاح الديني في نواحي أوروبا المختلفة انتشاراً اضطرت كنيسة روما إلى التفكير في موقفها وإلى إعادة النظر في كثير من مقرراتها .

لم تكن هذه الثورة من «لوثر» و«كالفن» و«نوكس» ثورة على الدين ، بل كانت كما رأيت ثورة من طائفة من رجال الدين على الكنيسة ومقرراتها . وبعبارة أدق كانت ثورة من الاجتهاد الديني على التقليد الجامد في الدين ، وكانت ثورة العقل المقيّد على قيوده . ولم يكن طبعياً أن تقوم يومئذ ثورة على الدين كالثورة التي قامت من بعد بزعامه «فولتير» وبزعامه أساطين العلم الواقعي من بعده . فيال يومئذ كان سلطان الدين يتناول كل شيء ، وكان العلم بعض ما يتناول . ذلك بأن الإنسان لم يكن قد فصل بين الدين والعلم على نحو ما فعلت أوروبا من بعد — حين أوقفت الإنسان من الوجود موقف الخارج عنه المشاهد إياه يلاحظه ويستنبط من ملاحظاته قوانينه . بل كان الإنسان سايزال يشعر بنفسه قسماً غير منفصل من الوجود متأثراً به أكثر من

تأثيره فيه ، فلم يكن له من أجل ذلك بدٌّ من أن يطمئن إلى موقفه منه بين
أزله وأبده . لذلك تجاوز العلم والدين في النفس الإنسانية ، ولذلك كان
بين العلم والدين من التعاون والتضامن ما رأى الإنسان ضرورته
لسعادته في هذه الحياة الدنيا وفيها بعدها . على أن علم الإنسان كان
يومئذ محدوداً ، وكانت معارفه قليلة لا تكفى لتسير له سبيل الحياة
ولتزيده عليها قوة ، فلم يكن بد إذن من طمأنينة الإنسانية إلى الإيمان
لتقوى به على الحياة وتمتدى به إلى الخير والنعمة فيها . ولذلك ظل
الأمر لرجال الدين بعد ثورة الإصلاح كما كان لهم قبلها ، وإن نشبت
بينهم أسباب من الخصومة بل العداوة مهدت للمفكرين من غير رجال
الدين أن يشقوا لأنفسهم طريقاً يصل بهم إلى صفوف الإنسانية
الأولى ، ويسمح لهم بمشاركة رجال الدين في توجيه الناس في الحياة ،
ويمكنهم بذلك من مشاركة رجال الدين في السيطرة على الناس ، وفي تولى
زمامهم ، وفي القيام منهم في مناصب الحكم .

لم يوفق بعض هؤلاء المفكرين إلى بلوغ المكانة التي قصدوا إليها ،
فقد نادى بعضهم بأمور تخالف مقررات الكنيسة من غير أن تكون
بدئية لدى العقل . فالأرض كروية أو مسطحة ، وهل هى تدور حول
الشمس أو أن الشمس هى التى تدور حولها . هذه وأمثالها من المعارف
التي أصبح الواقع منها فى حكم البديهيات أمام نظرنا كان ما قرره
العلماء منها مخالفاً لما قررت الكنيسة ، لذلك لقي هؤلاء العلماء —
كما لقي المتشككة — عنتاً من جانب الكنيسة لم يثر رجال الدين ، ولم

يثر الرأي العام في وجهه لأنه كان بمثابة الدفاع عن الحقائق المقررة . وللحقائق المقررة مكانتها من النفوس ؛ فهي تميل أبدأ إلى الاطمئنان إليها وتنتظر شرواً لمن يخالفها أو يحاول نقضها حتى تستقر مكانها حقيقة غيرها تطمئن الجماعة لها وتؤمن بها ، ولم يكن رجال الدين وحدهم هم الذين حاربوا هذه الحقائق الجديدة . بل ازوراً كذلك عن تأييدها جماعة المفكرين من غير رجال الدين ممن لم يعضوا أنفسهم بتمحيصها . هؤلاء المفكرون هم جماعة التجريديين — المتبائين يقيين — الذين جعلوا منطق العقل وحده وسيلة الوصول إلى ماسموه الحقيقة المطلقة . وهؤلاء كانوا يرون حقاً ما أقره العقل وإن أعوزه الدليل المحسوس ، وكانوا يرون ما نفاه العقل وإن أيدته الكنيسة مفتقرأ إلى الدليل كي يثبتته . وواسطة العقل في التدليل المنطق . لذلك كان المنطق أداتهم الأساسية لإقامة الدليل .

كان الكثيرون من هؤلاء المفكرين من غير رجال الدين مؤمنين إيماناً صادقاً . لذلك اعتمد رجال الدين عليهم وعلى أداتهم في البحث والتدليل أزماناً طويلة . وزاد الخلاف بين رجال الدين ومحلهم المختلفة في ظل هؤلاء المفكرين الذين كانوا يؤيد بعضهم ديناً بعينه ، ويؤيد البعض الإيمان بالله وبالروح وخلودها وبالبعث والحساب . وتطلعت الصفوة من أهل كل أمة إلى ناحية هؤلاء المفكرين والفلاسفة على أنهم الأمل المرجو للمستقبل بعد أن بدأ سلطان الكنيسة يذوى ويتراوى ، وبذلك نهضت الفلسفة التجريدية نهضة قوية أدت إلى تقدم التفكير

وإلى اقتحامه مختلف الميادين ، وإلى ملاحظة المفكرين الواقع المحسوس
وإلى استنباطهم الأدلة منه ، وإلى تمهيدهم بذلك للملم الواقعي الذي كان
موقوفاً إلى ذلك الحين على خدمة الدين والفلسفة .

كانت هذه النهضة في التفكير نتيجة محتومة للإصلاح الديني .
وكانت قائمة على أساس ما نقله العلماء الذين أجلى الأثر في عن يرفطة
من مطلق اليونان وفلسفتها وحكمتها . وقد أدت النهضة الفكرية إلى
إطلاق حرية العقل في ميادين أخرى مختلفة نشأت عنها نهضات تأثرت
هي الأخرى بالثقافة اليونانية ، أول هذه النهضة الأدبية . فقد قام
شكسبير وقام من بعده ملتن في إنكلترا ، كما قام راسين وكورني في فرنسا ،
يثيرون في شعر بالغ غاية القوة والجمال صوراً وعواطف دينية وإنسانية
كان التغني بها من قبل يعتبر هرطقة وتجديفاً . وإلى جانب النهضة
الأدبية قامت في الفن نهضة قوية بدأت في إيطاليا ثم امتدت منها إلى
بلاد أوروبا المختلفة . وكذلك حطمت أوروبا قيد الحرية الإنسانية التي
كبلتها به الكنيسة عصوراً طويلة باسم الدين ، ففتح باب الاجتهاد أمام
التفكير وأمام الفن والأدب ، وفتح باب الاجتهاد في الدين نفسه بعد
أن ظل مغلقاً أجيالاً وعشرات الأجيال .

بينما كانت أوروبا تهض هذه النهضة تاركاً حروبها الصليبية العقيمة جانباً ،
مستقلة بنفسها وبإصلاح طرائق تفكيرها ، وبإطلاق الحرية من قيودها ،
كانت صفائح الجود تزداد في الشرق كشافة وتحجراً . وبينما كان المفكرون
والعلماء ورجال الأدب ورجال الفن في الغرب تأخذ كل طائفة منهم
بيد صاحبها لتزيد في حريتها فتزيد بذلك في تناجها ، كان الفن والأدب

والعلم والتفكير يصفد في الشبك وفي الدول الإسلامية ليضع رجال الدين يدهم على كل شيء من ذلك ويزيدوا في القيود الجامدة التي لا يجوز تخطيطها أو التفكير على نحو غيرها . وأيد الخلفاء من بني عثمان في تركيا وفي سائر أنحاء الامبراطورية الإسلامية هذه القيود الجامدة ، وأسبغوا عليها باسم الخلافة طابعاً دينياً لا يجوز لإنسان أن يناقشه أو أن يضع جليله أو حقيره موضع البحث ، ولم يجد رجال الدين ولا وجد الخلفاء يومئذ عنتاً فيما صنعوا من ذلك . فنظام الحكم الإسلامي الذي انتقل من الشورى على ما وصفها أبو بكر إلى الأوتقراطية المطلقة ، ومن وكالة الخليفة عن المسلمين إلى استبداده بهم واعتباره نفسه وكيل الله عليهم وكلمة الله فيهم ، قد تدرج في ذلك من الخلافة إلى الملك العضود في عهد بني أمية إلى وكالة الخليفة عن الله وكالة وصفها المنصور العباسي بقوله : « أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوقيفه ، وتأييده ، وحارسه على ماله ، أعمل فيه بمشيئته وإرادته ، وأعطيهِ يأذنه ، جعلني الله عليه فقلاً ، إن شاء أن يفتحني فتحني لإعطائكم وقسم أرزاقكم ، وإن شاء أن يقفلني عليها أقفلني » . وقد نشأ عن هذا التدرج أن صارت الدولة الإسلامية محكومة منذ عهد العباسيين بنظام استبدادي طوع للفتح والغلب في أيام الخلفاء الراشدين كما حدث في عهد الرشيد والمأمون ، كما مهد للفتنة والاضطراب مما حدث أيام المستنصر وجماعة الذين خلفوه من انتهت بهم الدولة العباسية ومن مهدوا للجمود والتأخر . من ذلك الوقت أسبغت النظرية الاستبدادية على الملك والسلطان جلالاتاً بجلال الله ، وجملت للخليفة عرشاً كعرش

لله ، واستمدت له قداسة روحية من أمر الله . ولم يكن الملوك ولا كان الخلفاء هم الذين صوروا عرشهم واستمدوا من الله استبدادهم ، وإنما صور لهم هذا العرش واستمد لهم هذا الاستبداد جماعة الفقهاء والمتكلمين الذين اتسوا من وراء ذلك الإقتاء عطف صاحب السلطان واقتناص الجاه والمال مما يجود به على المنافقين من حوله ، وليظل هذا الاستبداد آمناً مطمئناً لم ير الفقهاء بداً من أن يمكنوا له في النفوس بأن يلبسوه لباس الدين . ولينفذوا في أمن الاستبداد وطناً نيته رأوا تقليل الإرادة الإنسانية وتكبييل العقل الإنساني والعاطفة الإنسانية . لذلك نشطوا يضعون القواعد ، وينظمون حياة الأفراد في كل كبيرة وصغيرة ، ويرتبون الجزاء على مخالفة هذا النظام ويسندون ما يقررون من ذلك كله إلى الدين ، ويجعلونه بعض ما أتى الرسول به الناس ، ويعض مانهاهم عنه ، ويشيرون إلى أن ما قرروا للسلطان من حق الجزاء في هذه الدنيا لا ينبغي ما يجزى به الإنسان في الآخرة ، ويصورون هذا الجزاء في الآخرة تصويراً فيه من الدقة المادية ما في تصويرهم للجزاء الذي يوقع في هذه الحياة . وهم فيما قاموا به من ذلك لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة من عمل الإنسان وسلوكه ، بل بما يحيش بخاطره ويحس به بينه وبين نفسه إلا نظموها . فكيف يأكل الإنسان ، وكيف يشرب ، وكيف يستحم ، وكيف يتعامل مع غيره ، وكيف يؤدي التحية وكيف ردّها وكيف يقوم وكيف ينام وكيف يعامل أهله في بيته . كل ذلك نظمهم أدق نظام ، ورتب على مخالفته الجزاء ، وأنت تستطيع أن تذكر أي شيء ما في الحياة وتجارها سواء بين الإنسان وبين نفسه ، أو بينه وبين أهله ،

أو بينه وبين المجموع ، أو بينه وبين السلطان ، أو بينه وبين الله ، تستطيع أن تذكر أى شيء من هذا لثراه قد فوَّش وبُحِث واستمُدت له القواعد والأحكام من القرآن ، فإن لم توجد في القرآن فن الحديث ، فإن لم توجد في الحديث فن السنة ، فإن لم توجد في السنة فن الإجماع ، فإن لم توجد في الإجماع فن القياس . واستمر النشاط في هذا السبيل عصوراً متوالية كان يقوم أثناءها الحين بعد الحين بمجتهد لا يعنى كثيراً بهوى صاحب السلطان فيقرر ما يراه حكم الدين الحق دون أن يخشى قيام الفقهاء الرسميين عليه ورميهم إياه بالمروق والزندقة والإلحاد . فلما بدأت عصور الاضطلال بالتحلل الدولة العباسية وكثرت الفرق خيف أن يقوم من بينها من يحاول هدم المذهب الرسمي من ناحية ، وخيف من ناحية أخرى أن يقوم داع يهز في النفوس الكرامة الإنسانية واحترام الذات وتحريم العبادة لغير الله ، فيدعو بذلك إلى الانتفاض على سلطان واه مزعزع ما أيسر ما تعبت به هزات النفوس . لذلك قام جماعة من أولئك الفقهاء الذين وصفنا فنادوا بأن الشعوذة فشت باسم الاجتهاد وأن أفكار الرافض والإلحاد تروج تحت ستاره وقرروا لذلك لإقفال باب الاجتهاد وضرورة فليد السلف والآخر بأحكامهم ، واعتبروا كل خارج على هذه الأحكام مارقاً كافراً جزاؤه جزاء من ارتد عن دينه ومثواه في رأيهم جهنم وبئس القرار . كانت النفوس في هذه البلاد الإسلامية قد انجذبت يومئذ فسكنت إلى هذا القرار ولم تنزع عليه . وظل الأمر كذلك حتى جاء الأتراك حكموا العالم الإسلامي واتخذوا من فقهاء المسلمين بطانة يؤيدون في

أعلال العقول وأصفاد القلوب . ولعل الإنصاف يقضى بالأنحط عليهم من تبعة ذلك كثيراً ، فهم لم يكونوا يعرفون روح الإسلام الصحيحة ، لأنهم لم يكونوا يعرفون لغته ، ولم يكونوا لذلك قادرين على إدراك أسرار . ولئن كان من بينهم علماء حاولوا معرفة أسرار الدين فأولئك قد عرفوها في كتب التدهور والجمود وكانوا بطبيعتهم الحربية وبطبيعة البيئة التي أنبتتهم والمعارف المبهمة التي سعوا بها لفهم الدين — ميالين لتصديق كل ما كان خارجاً على الطبيعة سامياً فوق العقول . إنما التبعة على فقهاء المسلمين الذين باعوا عليهم للأتراك ، والذين انحط إدراكهم حتى صاروا يرون في كل جديد إلحاداً ومروقاً . وصاروا يحرصون على الجمود أشد الحرص ويرون في القضاء على كل اجتهاد رحمة من الله بعباده ويصفنون الشعوب الإسلامية حتى يصبح التقليد التام الأعمى أساس حياتها في نظام حكمها وفي شريعتها وفي أخلاقها وفي آداب مجتمعتها ، وفي طرائق تفكيرها ، وفي معالجاتها العظم والحقير والجليل والتافه من كل شؤون الحياة .

مع هذا التدهور في العقيدة وفي التفكير ومع تصفيد الحرية بالأغلال الثقيل ، ومع خضوع العالم الإسلامي لنير الترك خضوعاً أعمى في العصور التي كانت أوروبا تتحرر خلالها من سلطان الكنيسة وتزعم فيها إلى تحكيم العقل وتقوم فيها نهضات زاهرة للأدب والفن والفلسفة وسائر صور التفكير والإحساس — مع هذا كله ظلت الدولة الإسلامية محتفظة بمركزها ، وظلت أوروبا في شغل بنفسها عن التفكير في غزو صليبي وفي غزو جديد أيا

كان نوعه . ويرجع ذلك إلى اعتبارات عدة ؛ فلكات الأتراك العسكرية ، ومجدهم الحربى كانت تبعث الرعب إلى النفوس وتصد عن التفكير فى غزو البلاد الإسلامية المستظلة كلها أو أكثرها يومئذ بالعلم التركى . فلم تنس أوروبا تقدم الجيوش التركية ظافرة إلى أسوار عاصمة النمسا وتهديدها قيينا وتهديدها أوروبا بأسرها . والدول لا تنظر بعضها إلى بعض ولا ترتب علاقات بينها على أساس تقدم العلم والحضارة . أو تأخرهما فيها ، وإنما ترتب هذه العلاقات على أساس القوة الحربية المادية . وإذا لم يكن فى ذلك شيء تفاخر به الإنسانية أو تعتبره سبباً لمجدها فإنه لسوء الحظ هو الذى كان واقعاً يومئذ وما يزال الواقع اليوم ، ثم إن أوروبا كانت فى شغل بنفسها وبالأضطرابات الدينية والسياسية الداخلية التى لم يكن منها مفر بسبب تطور العقلية الأوروبية هذا التطور السريع الذى وصفنا . وأيس من شأن الإنسان — حين شغله بنفسه وباضطراب أموره الخاصة — أن يفكر فى مهاجمة غيره وفى غزوه . وبخاصة إذا كان هذا الغير غنى " الأيد مرهوب الجانب . والدولة الإسلامية كانت محتفظة بمركز القيادة يومئذ فى العالم ، كما كان مركز التجارة والرخاء الاقتصادى بين المسلمين . يضاف إلى ذلك أن اكتشاف كولمبوس لأمريكا فتح أمام أوروبا ميادين للاستعمار خفت لآلها إسبانيا فوجعت نظر غيرها من الدول الأوروبية إلى ناحيتها . ولم يكن المهنود الحمر من سكان أمريكا ليخيفوا أوروبا ما تخيفهم الدول الإسلامية التى وقفت حائلاً بينهم وبين آسيا ، والتى أرتهم من الصلابة إبان الحروب الصليبية ومن البأس حين اقتحام الأتراك أوروبا ، مالم

يروا بعد شيئاً منه في أمريكا . فإذا كانت الدولة الإسلامية يدب إليها
ديب الفساد وتجري مسرعة في سبيل الانحلال فإن هالة ماضيها أقامت
حولها سياجاً من وهم صد أوروبا عن التفكير في مهاجمتها وغزوها .
وقد يكون هذا عجيباً . لكن الأجب منه أن الدولة الإسلامية بقيت
بمحل عن الثورة القوية القائمة في أوروبا تحطم القيود ونهي الحرية
الفكك من أسارها ، وكأنما بين الشرق والغرب أسوار من حديد تحجب
هذه الحركة عن أنظار الشرق لتدعه يغط عشرات السنين ومئاتها في
سباته وكأنه لا يصل إليه شيء من علم المجازر التي تحدث باسم الدين
وباسم الإصلاح في أوروبا ، أو كأنه في سعادته بجموده ينظر إلى هذه
الحركة على أنها طيش جنوني غير لائق بهذا الشرق العريق في مجده
العريق في حضارته ، أن يأبه لها أو أن يفكر فيها . وأدعى للعجب
أن تكون الغزوات الصليبية قد فتحت عيون أهل أوروبا المسيحية
على كثير مما في الشرق ، وقد دعت هؤلاء المسيحيين إلى التفكير فيه
فكان إلى جانب غزو الأتراك أوروبا وهجرة العلماء المسيحيين
من بزنطة إلى الدول التي تجاورها بعض ما أسرع بأوروبا إلى بعثها .
أما الشرق فظل في سكينته الجامدة ، بل ظل يزيد في هذه السكينة
جموداً . وأنت تستطيع أن ترى ذلك وأن تلححه بجسماً في كتب
المتأخرين من متكلمي الشرق وفقهائه عن سخرؤا ملكاتهم لخدمة
الحليفة العثماني حينما كانوا من نواحي الامبراطورية العثمانية . فقد
بلغ من جمود التفكير في تلك العصور أن حصر العقل في حدود أناية
ضيقة ترتب عليها إبراز الفكرة غير المحدودة بطبعها في صورة شيء

مادى محدود ككل محسوس مادى ، لاعلى أنها صورة ذهنية فى طبيعتها التمدد فى لانهايات المكان والزمان ، تمدداً هو وحده الكفيل لها أن تشرح كل آثارها . وأنت إن رجعت إلى كتب فقهاء تلك العصور رأيت هذه المادية الوثنية صريحة واضحة تمتد إلى كل ما يحتمل التحديد ولا يحتمل التصوير المادى ، بل تمتد إلى الروح وإلى خالق الكون — تعالى خالق الكون عما يصفون . فى هذه الكتب ترى وصفاً مادياً للعرش وتصويراً مادياً للملائكة الخافين من حوله ، وذكرأ مادياً للألفاظ التى تخرج من أفواههم فى التسليح بحمد الله وفى تقديسه . وهذا الوصف والتصوير المادى هما فى الإسلام الصحيح وثنية لا ريب وتحريف . وإذا تناولت المادية تصوير العرش والملائكة وتسليحهم فأجد بها أن تناول الرسل والأنبياء وصفاتهم وحياتهم . وقد فعلت ، فما تحدثت فيه ما إذا كان الرسل بعد موتهم عليهم السلام يحيون فى القبر حياة مادية يأكلون ويشربون ويتناسلون ، وتناولت المادية الشمس وما إذا كانت ساعة مغيبها تختبئ تحت عرش الله العظيم حتى يؤذن لها أن تشرق فى الصباح . وإنك لتقرأ فى سير الأنبياء التى كتبت فى تلك العصور ما ترى أثر المادية فيه واضحاً إلى حد لا تستطيع معه دون الابتسام ازدراء بهم وإشفافاً عليهم . ولست بحاجة إلى ضرب الأمثال فى هذا وفى مقدور من شاء أن يطلع على ما كتبت من السير فى تلك العصور ويلبس فيها من هذا السخف المادى ما تزهت عنه السير التى كتبت فى عصور أقرب إلى عصور أولئك النبيين ، وحين كانت تلك السير ما تزال فى صفاتها الأولى أو ما تزال قريبة كل القرب منه .

إذا انحدرت النفس الإنسانية إلى هذه الهاوية من التصور المادى ونظرت إلى العالم على أنه آله، لا على أنه فكرة ضاق نطاق التفكير أمامها وأبجنت أنبل عواطفها، وخذت صوت الضمير فيها، وتداعت المعاني الإنسانية السامية جميعاً أمامها وتحركت في أعماقها السلائق الحيوانية الصرفة ثم تحكمت فيها ووجهتها في كل مشاعرها وكل تصرفاتها . وذلك ما حدث أو ذلك ما كان أثراً محتملاً لها ، ظل علماء المسلمين يعلمون الناس قروناً طويلاً وجوب الإذعان إلى من تولى الأمر سواء أكانت ولايته الأمر شرعية أم معتصبة . ولقد دفعت السلائق الحيوانية إلى هذه النفوس الإنسانية التى فقدت كل معنى إنسانى أخط الأخلاق وأسفلها . دفعت إليها الكذب والنفاق والتحايل لانتقاء غضب كل ذى سلطان ، ولانتقاء غضب الحاكم ، ولانتقاء غضب الله ممثلة إياه جل شأنه وكأنه حاكم من الحكام أو رئيس من الرؤساء . وعاون العلماء والفقهاء على نمو هذه الأخلاق الوضيعة في النفوس بما جعلوا يصدرن من الحيل الشرعية التى يتحايل بها المسلم على أحكام القرآن وعلى أوامر الدين ثم يكون من جزاء الله بنجاة ، كما بما الله ليس بمطلع على الغيب وعلى ما تخفى الأنفس وعلى خاتمة الأعين . واقتنت طائفة من الفقهاء فى تصوير هذه الحيل ، ووصلت من طريق هذه الفتاوى التى تصدرها فى شأنها إلى ما تصبو إليه من رخاء مادى وإلى حظ عظيم من متاع هذه الحياة الدنيا متاع الغرور . وإذا ساغ للنفس أن تتخذ الحيلة وسيلة إلى الله وأن تتوجه إليه بالنفاق وبالكذب فما عسى يقف أمامها فى التوجه إلى الحاكم وإلى صاحب السلطان ، وما عسى يقف أمامها فى بلوغ غايتها

أياً كانت هذه الغايات ١١٩ وما دام صوت الضمير قد جمد فقد آن للردية أن تلبس ثوب الفضيلة ، آن لكل نقص وفساد أن يجد ما يبرره ، بل ما يصوره كالا وخيراً . ولا شئ أفقك بحياة الشعوب من أن تنقلب عندها المقاييس الصحيحة للحق والفضل . ولا شئ أدعى إلى انحلال الأمم وإلى أن تدول الدول من تحكم السلائق الحيوانية في الإنسان تحكما يهوى بملكاته العليا إلى الخضوض فيسلك من أجل ذلك طريق الضلال . وفيما كان هذا التدهور يستشري في شعوب الشرق الإسلامي كانت نهضة أوروبا العقلية والأدبية والفنية سائرة في طريقها لا تقف ولا تقي ولا تعرف هوادة أو تواكلا . وكان أعظم ماعنى به القائمون بهذه النهضة معرفة الطريقة الصحيحة في التفكير ؛ الطريقة التي تهدي إلى الحق وتصل بالإنسان إلى حسن إدراكه . وإذا كانت ثورة لوتر ومن سار في طريقه قد بدأت تحطم سلطان الكنيسة المطلق وتعترف للعقل بحقه في أن يفكر مستقلا ليصل إلى معرفة الله وما أمر به ونهى عنه ، ثم كانت نهضة الفلسفة التجريدية قد قامت في أثر ذلك تبغى لإثبات الحقائق المقررة طريق المنطق غير المقيد إلا بمحكم العقل ، فقد آن للتفكير الغربي أن يخطو خطوة جديدة إلى باحة العلم الواقعي . وقد مهد لهذه الخطوة ما قام بين الفلاسفة التجريديين من نزاع يشبه بعض الشيء ذلك النزاع انذى قام منذ قرن أو نحوه بين رجال الدين . نزاع اشترك فيه رجال الدين أنفسهم لأنهم رأوا في تقدم الفلاسفة إلى الصف الأول من صفوف الجماعة الأوروبية ما كاد يقضى على قوتهم ويدك سلطانهم وينزع منهم ما كان باقياً بين أيديهم من أئنة الحكم .

اختلف الفلاسفة أن كان من بينهم ملاحدة ينكرون الدين وينكرون
الوحي وينكر بعضهم وجود الله وحسابه، ولكنه يعمل ليحل الفلسفة
في النفوس محل الدين ويجعل لها سلطانه ؟ ولم يأبه رجال الدين بالملاحدة
من الفلاسفة لأنهم رأوهم أبعد من أن يصلوا إلى نفوس الشعوب
ليوجهوها وليأخذوا بزمامها ؛ فحاجة الشعوب إلى الإيمان حاجة طبيعية
ملحة لا غناء للشعوب عنها كي تعيش . وحاجة الشعوب إلى الإيمان
كحاجتها إلى الهواء وإلى الماء وإلى الغذاء . فإذا دعاها داع لتؤمن
بأنها في غير حاجة إلى الإيمان وأن الإيمان أكذوبة وضلال سخرت
منه ورأته بعيداً عن الحقيقة بعد الذي يزعم لها أنها في غير حاجة
إلى الهواء أو إلى الماء : فأما الفلاسفة المؤمنون الذين أرادوا أن يحلوا
الإيمان الفلسفي محل الإيمان الديني فأولئك كانوا في نظر رجال الدين
مصدر الخطر . لذلك وجه رجال الدين قوتهم لمناهضة أمثال ديكرت
وروسو وغيرهم من المؤمنين الذين يقيمون صروح الإيمان الفلسفي
على قواعد يسيغها العقل وتطمئن لها النفس وتستوى المجموع استهواء
يجمله يؤيد هؤلاء الفلاسفة على حساب رجال الدين . وأنت أقدر
على قياس مدى الخطر الذي خشيت الكنيسة المسيحية من هؤلاء
الفلاسفة إذا ذكرت أن روسو حاول أن يقيم ديناً جديداً يحل محل
الآديان المقررة . فإذا ناهضت الكنيسة هؤلاء الفلاسفة ، وإذا هي
استعدت عليهم سلطان الحاكم وغضب الجماعة ، وإذا هي حاربتهم بكل
وسائل الحرب ، فلها من العذر أنها إنما تريد الاحتفاظ بسلطانها ، بل
الاحتفاظ بحياتها .

واشتدت الحرب بين الفلسفة والكنيسة، وازدادت الممركة أواراً وشدة. وألنى الفلاسفة أنفسهم على اختلاف نحلهم ومذاهبهم موضع مهاجمة رجال الدين. فلم يروا بداً من أن تتضافر جهودهم أثناء المعركة، وأن تكون بينهم هدنة حتى إذا تم لهم الظفر بخصومهم عاد كل منهم إلى مناهضة وأى صاحبه. وفي سبيل النصر فضح الفلاسفة المؤمنون والفلاسفة الملحدون جميعاً غنازى الكشّيرين من رجال الدين، وأظهروا المجموع على شره هؤلاء وشهواتهم وحبهم المال، وتها لكهم على الملاذ، وحرمانهم المجموع من كثير من أسباب نعمته وسعادته ليتمتعوا هم بالنعمة والسعادة.

مهدت هذه المعركة إلى خطوة جديدة يخطوها التفكير الغربي إلى إباحة العلم الواقعي القائم على طريقة الملاحظة والمقارنة والاستنتاج لمعرفة سنن الكون الثابتة بالدليل المحسوس الممكن تحقيقه، والذي لا يقبل لذلك خلافاً أو جدلاً. وقد ظلت العلوم الوضعية قبل استقلالها في خدمة التجريد زمناً طويلاً، كما ظلت قبل ذلك زمناً طويلاً في خدمة اللاهوت. لكن الجدل العنيف بين الكنيسة والفلسفة جعل رجال العلوم الوضعية يأنفون أن يظلوا وأن تظل علومهم في خدمة الفلسفة أو في خدمة الكنيسة ورفعهم ليطبّقوا طريقتهم على جميع فروع المعارف التي لم تكن خاضعة من قبل لها، كالباحث النفسية والاجتماعية والاقتصادية والبحوث العقلية، وزاد ذلك في نشاط هؤلاء العلماء لأوجست كنت والامارك من قبله في فرنسا، ولهزبرت سبنسر ولدارون من قبله في إنكلترا، ولهمكل وهجل وغيرهم من العلماء

في ألمانيا أن يذبوا كل ما لا تثبته طريقتهم بما سبق إليه اللاهوت وسبق إليه التجريد ، وأن يعتبروا اللاهوت والتجريد حالتين من حالات العقل الإنساني مهدتين للحال العلمية التي اعتبرت في نظرهم الصورة النهائية لما يجب أن تكون عليه مباحث العقل .

وقد غلا أنصار المذهب الواقعي ، وللم الواقعي في تقدير ما يستطيع العلم غلواً دفع رينسان ودفع تين ، ودفع كثيرين غيرهما في مختلف بلاد أوروبا إلى الاعتقاد بأن العقل الإنساني سيصل من طريق هذا العلم إلى معرفة سنن الكون جميعاً ، وإلى الكشف عن أسرار الوجود كشفاً مادياً يلبسه العقل الإنساني ويقم الدليل عليه ويحل بذلك ما كان يظنه الإنسان طلاسماً لا سبيل إلى فله شيء من حقيقةها إلا بوحى الإلهام . وعلى أساس من هذا الاعتقاد قام الإيمان في أوروبا بأن الحضارة الإنسانية قد أطمأنت إلى الأساس الثابت الذي تقوم أبد الدهر عليه . أساس العلم الذي لا يعرف إلا ما أثبت العلم ، والذي يطرح كل ما لم يثبت العلم جانباً حتى يحى دور إنباته . وبهذه العقيدة نظر رجال العلم هؤلاء إلى الفلسفة التجريدية وعلى ثغرم ابتسامة إشفاق لهذه المجهودات الكثيرة التي أنفقت الإنسانية ظافة أنها تصل من طريقها إلى الحقيقة ، ثم إذا ما صنعت لا يريد على مضاربة نظرية تقيم فروضاً وتهدم فروضاً ولا تقرر حقاً ثابتاً ، ونظروا إلى الكلام ، وإلى الدين بأكثر من نظرة الإشفاق . نظروا إليه وإلى رجاله نظرة حقد وكراهية وإصرار على ألا يكون هؤلاء الرجال على الحياة

من بعد سلطان . وكذلك اتفقت كلمة العلماء مع كلمة رجال الفلاسفة في شأن الدين ورجاله .

إلى أى مدى حقق العلم الواقعى آمال السابقين من رجاله ؟ ليس هذا الفصل موضع القول فى هذا ، لكن هذا العلم الواقعى قد بعث فى حياة الاختراع الصناعى روحاً قوياً ناشطاً جعل الناس يرون من آثارها كل يوم جديداً ، ودفع بها لذلك إلى الصف الأول من صفوف الحياة الاقتصادية ، ونفخ بذلك فى حياة الاقتصاد السياسى روحاً جديداً هو الآخر ، وأنزله من المعارف الإنسانية فى منزلة العلوم الواقعية بما أدى إلى تصوير المذاهب الاقتصادية تصويراً جديداً غير الذى كان معروفاً إلى يومئذ . ومن ثم أقام چون ستوارت المذهب الفردى يعارض به المذهب الفريقراطى . ومن ثم نشطت المذاهب الاشتراكية حتى قام ماركس يضع مذهب الاشتراكية العلمية . ومن ثم لم تبق حضارة أوروبا حضارة العلم وحده ، بل صارت حضارة العلم والصناعة جميعاً ، وقد كان لهذا التحول فى توجيه الحضارة آثار كثيرة مختلفة ستعرض لبعضها فى غضون هذا الكتاب .

وكان لهذا التطور فى طرائق التفكير الإنسانى من الأثر فى الأدب والفن مثلاً كان له فى الصناعة . وقد أشرنا إلى أن نهضة الأدب والفن منذ بدأت ثورة الإصلاح الدينى ، ومنذ بدأ انتشار الثقافة اليونانية فى أوروبا فى القرن السادس عشر . ولم تكن هذه النهضة أقل من نهضة طرائق التفكير نشاطاً ، وهمارت النهضة

تؤثر واحدتهما في الأخرى وتقضيان في نفس المجموع الأوروبي على ما كان من حصر دائرة العلم والأدب والفن في حدود الكنيسة وما تشاء ، وتتناولان من شؤون الحياة كل ما يكشف العلم عنه وتسبقان العلم في أحيان كثيرة ، وتسبقانه أحياناً عشرات السنين بل مثاتها إلى تقرير حقائق تظل مقفلة إلى الدليل العلمي ، وتظل منظوراً إليها من ناحية العلماء بعين الريبة ، ثم يقوم الدليل العلمي عليها وتصبح من مقررات العلم بعد أن كانت من مقررات الفن والأدب وحدهما .

طبيعي أن تنفس هذه الثورات الدينية والأدبية والفنية والعلمية عن انقلاب جوهري في نظام الجماعة وفي طريقة حكمها ، وأن تنفس لذلك عن ثورة أشد من كل هاته الثورات عنفاً . تلك هي الثورة السياسية ؛ فالنظام السياسي في أمة ما هو التصوير العلمي لحياة الجماعة كيف تسير ، وإنما يصدر هذا التصوير عن طريقة تفكير الجماعة ويتغير كلما تغير ما بنفسها . وقد تغيرت نفس الجماعة على رجال الدين الذين استأثروا بالحكم أجيالاً لاعتراف الجماعة لهم أنهم يمثلون آمالها ومطامعها ، فخرج الحكم من يدهم وأوشك أن يخرج من يد الملوك الذين يؤيدهم رجال الدين ويؤمنونهم خلفاء الله على الأرض . وقد قامت الثورة الدموية في أواخر القرن الثامن عشر فانتهدت باعداد لويس السادس عشر ونشرت الفلسفة ثم نشر العلم الأفكار الديمقراطية التي تجعل لكل شعب أن يحكم نفسه بنفسه ، فأمن بها الناس وضموها

إلى العلم وإلى الصناعة على أنها أساس من أسس الحضارة التي أقاموا .
وإذا كانت الديمقراطية لا تتحقق إلا حيث تنحصر الوطن في حدود
معينة ، وحيث تقوم لذلك فكرة القومية أصيلة في النفوس للدفاع عن
عن هذا الوطن ، فقد وطدت أوروبا هذه الفكرة وجعلت القومية
أساساً رابعاً من أسس تلك الحضارة .

ليس يدخل في نطاق هذا البحث تفصيل هذه الأسس للحضارة
الأوروبية بأكثر مما سبق . ونحن إنما سقنا ما تقدم لأن أوروبا التي
عدلت عن غزواتها الصليبية منذ غزو الأتراك إليها ، والتي أقامت
داخل حدودها إبران تحريك الثورات التي أشرنا إليها أحشاءها قد
بدأت منذ القرن الثامن عشر تزحف على الشرق وتزعم أنها تريد
من هذا الزحف أن تقر الحضارة في ربوعه ، وأنها تريد تغرب ، هذا
الشرق - على حد تعبير الأستاذ چب في كتاب (وجهة الإسلام) - فإذا
فعلت لإقرا هذه الحضارة في الشرق ؟ وإلى أي مدى وصلت من
تغريبه ؟ وهل كان الشرق أول زحف الحضارة الأوروبية الجديدة
عليه مستعداً لحسن قبولها ، وماذا ثار في أحشاء الشرق من رد
القمع لإزاء هذه الحضارة ؟ أنراه أساغها وتمثلها ، أم فرضت عليه
فأذعن لها ؟ وهل وصل ما تمثله منها إلى أعماق تفكيره ؟ إحضار هذه
المباحث يحتاج تفصيلها إلى إفاضة طويلة لا منسج ها هنا لأنها تحتاج
إلى مجلدات عدة ، لكننا سنلجأ بها جميعاً إلماً لا بد منه لتصوير الشرق
الجديد وما نريده أن يكون .

(٣)

الحضارة الاستعمارية

ماذا فعلت أوروبا لتظل الشرق بلواء حضارتها ؟ . . . لقد رأينا هذه الحضارة تقوم على أسس من العلم والصناعة والديمقراطية والقومية . فأى هذه الأسس اتخذت منه علم حضارتها ؟ وهل سلكت إلى نشرها سبيل الحضارات التي سبقتها ؟ أم اختطت لنفسها طريقاً جديداً ؟ وإن يكن ذلك فألى أية غاية أدى الطريق الجديد بها ؟ !

جعلت الحضارات التي سبقت حضارة الغرب الأساس الفكري والنفسى لعلم حضارتها ، وتاريخ المسيحية شاهد بأنها — وقد نشأت في أحضان قوة روما المادية — إنما كان أساسها قوة روحية تحقر المادة وتستعين بأذى أصحابها وتعتبر الثروة أكفل الوسائل لتورط الروح في الخطيئة حتى ليسكون دخول الجمل في سم الخياط أيسر من دخول الغنى في ملكوت الله . جعلت المسيحية من الفكرة الروحية أساس قوتها وأقامت النظام الفكري والحياة النفسية على قواعد من هذا الأساس الروحي فبرزت الإنسان لذلك بقوة الكون المعنوية جميعاً يقف بها في وجه كل أرباب المادة والمؤمنين بسلطانها فيخضعهم لقوة روحه ويحملهم على اتباعه ويصل بهم إلى ما وصلت المسيحية من روما . وتاريخ الإسلام شاهد بأنه أنزل ليحطم في النفس الصور

(٤ - الشرق الجديد)

المادية بمثابة في هذه الأوثان التي كان العرب يؤمنون بها ، بمثابة كذلك في كل إيمان بغير الله وحده لاشريك له . وقد حطم الإسلام في انتشاره القوى السريع كل ما سوى هذا الإيمان من صور ، وأخضع كل ما في الحياة من مادة وقوة للإيمان بالله يسمو به الإنسان فوق ما في الحياة الدنيا جميعاً ليكون بعض قوى السكون الباقية بقاء الروح المتصلة بالعالم وبالوجود كله منذ أزل إلى أبد . وعلى الأساس الروحي أقرت المسيحية حضارة لم تدم في صفاتها طويلاً أن اختلطت بالوثنية الرومانية وبعقائد السواد المصري التي تدهور إليها التوحيد الفرعوني . لذلك تعرضت هذه الحضارة المسيحية للألوان من الإضطراب كانت مع عوامل أخرى مما أسرع بروما إلى الانهيار وما جعل النولة البيزنطية تقف في إبان قوتها من كل سلطان مادي موقف روع وفزع ، لاحتفظها الأسباب التي كانت تحفز روما إلى التوسع وإلى حمل علم الحضارة التي حملت روما إلى أنحاء العالم بكل عظمة ومجد . فلما جاء الإسلام وبدأ بتنظيم الحضارة الإسلامية حول فكرة التوحيد الروحية السامية أسرع إلى الانتشار وأسرع الحضارة الإسلامية إلى الإستقرار في الممالك المختلفة المترامية الأطراف بين المحيطين الأطلنطي والهادي ، وبكلمة أخرى في ممالك العالم المعروف في ذلك الحين . وقد وقعت المسيحية في وجه الإسلام بعد أن حصرها في أوربا عصوراً طويلة تريد أن تنفذ إلى قلب إفريقيا وآسيا ، وفي تلك العصور كانت فكرة الروحية في صفاتها أول الأمر ثم مشوشة مضطربة على نحو وصفنا في الفصلين السابقين ، هي الواء الذي تتقدم به صفوف

المسلمين وتتقدم به صفوف المسيحيين لغزو الإنسانية . ورغم ما انحدرت إليه هذه الفكرة في العصور المسيحية الوسطى ، وفيما سبق الغزو التركي وما لحقه في العالم الإسلامي فقد بقي اسم الرب عند المسيحيين ، واسم الله عند المسلمين ، هو الذي تهزله أوتار الأفتدة وتتوجه إليه القلوب في طلب النصر والظفر ، وبقي الإنجيل عند المسيحيين ، وكتاب الله عند المسلمين ، آية هذه الحضارة التي يريد هؤلاء وأولئك أن ينشروا لواءها ليظل العالم جميعاً .

لو أن الحضارة الغربية سلكت في محاولتها غزو العالم ماسلك الإسلام وما سلكت المسيحية من قبل لكان لواء العلم خفاق البنود في طليعة الغزاة الأوروبيين لأمريكا بعد اكتشافها ، وآسيا وإفريقيا عند اقتحامهما . ولعل ذلك قد دار بخاطر بعض الفاتحين الأوروبيين ، فقد رأينا نابليون إذ جاء إلى مصر في أواخر القرن الثامن عشر وقد استصحب معه بعثة علمية تدرس أحوال مصر ، وأنشأ بالقاهرة مجعاً علمياً فرنسياً . ولعله كان يريد أن يجعل هذا المعهد نواة لمعهد على مصري إذا استقر الأمر لفرنسا على ضفاف النيل . وهذه المحاولة من نابليون لنشر أفكار الثورة الفرنسية في مصر تجعلنا نعرف لهذه الثورة الفرنسية بما دار بخلد أبطالها من تبشير بمبادئ الحرية والإخاء والمساواة في أنحاء العالم التي غزت . لكن هذه المحاولة لم تدم طويلاً ولم تتعد أوروبا إلى غير مصر في خلال الفترة القصيرة التي أقام الفرنسيون بها ، فأما ما قبل الثورة الفرنسية وما بعدها إلى وقتنا الحاضر فلم

تتم الحضارة الأوربية لغزو العالم باسم العلم ولا باسم التفكير الحر ، وإنما قامت وتقوم لغزوه باسم الصناعة الأوربية وإقامتها على بلاد العالم جميعاً . وهذا الأساس المادى البحث هو الذى جعل أوربا تسمى حضارتها الحضارة الإقتصادية ، وما جعل المبادئ الاشتراكية من فردية واشتراكية وشيوعية هى الأساس الذى يقوم عليه كل نضال فى أوربا سواء فى شؤونها الفكرية أو السياسية ، والحافز الذى وجه الحضارة الغربية فى غزوها الشرق غزواً يجعل الحضارة الغربية مرادفة للاستعمار فى ربوعه .

والحق أن العلم والحرية العلمية لم يرتفع عليهما قط فى طلائع غزو الغرب سائر ربوع العالم . وتدع الغزوات الأولى التى قام بها الإسبان فى أمريكا ، وتدع الهجرة الإنكليزية للولايات المتحدة . فقد كان عنصر الإستعمار المادى هو الحافز لإسبانيا كما كان الفرار من وجه العسف الدينى هو الحافز للإنكليز الذين ذهبوا إلى العالم الجديد . صحيح أن هؤلاء وأولئك لم تحركهم بعد استقرارهم بأمريكا أية عاطفة إنسانية لإزاء أهلها حر المنود ، على العكس من ذلك قد جعلوا استئصال هؤلاء السكان الأصليين مرمى سياستهم وأساس حضارتهم . وكل الأعداء التى تصاغ لتبرير خطة الاستئصال أقصر من أن تسوغ هذا العمل المسمى البحث . لكن أوربا كانت ذلك الحين فى درجة متأخرة من الحضارة هى وجدما التى تهض عذراً لها عن تلك الوحشية . ولستنا بمعرضة للتحدث عن أحوال الغرب التى سبقت حضارتهم

الحديثة . فلتنخط إذن هذه الفترة إلى حين بدأت أوروبا تفاخر العالم بحزبتها وبعلمها، وحين بدأت تغزو الشرق بعد أن وقفت منه عسوراً وقروراً طويلة موقف الخائف الوجمل .

حاولت أوروبا أن تصل إلى آسيا فوجدت في وجهها السد الإسلامى المنيع الممتد من مراكش إلى القسطنطينية حول شواطئ البحر الأبيض المتوسط الجنوبية جميعاً . ولم يدر بخاطرها أن تقتحم هذا السور وهى تذكر منعمته وتخشى أن تعرض للخسائر الفادحة من الأموال والرجال إذا هى أقدمت على اقتحامه . ومالم يكن الخافو الإنسان على مغامرة إيمان ثابت يستهين بالحياة فى سبيله ما استهان المسيحيون الأولون والمسلمون الأولون . فإن الغم المادى ، وإن عظم ، أهون من أن يدفع بصاحبه إلى المخاطرات الجسيمة . وبالرغم مما استطاعت البرتغال أن تحطم الأسطول المصرى فى القرن الخامس عشر فإن اقتحام السور الإسلامى ظل خطراً تضطرب له أعصاب أوروبا . لذلك كان اكتشاف فاسكو دى جاما طريق رأس الرجاء الصالح للوصول إلى آسيا بالدوران حول إفريقيا كلها هو الذى بعث الرجاء إلى نفس أوروبا الظامئة لاستعمار الشرق . مع ذلك بقى هذا الظمأ مكبوحاً فيما خلا محاولات هولندا والبرتغال فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر حتى طوعت له مغامرات الأفراد ؛ فقد ذهب جماعة الإنكليز الذين كونوا شركة الهند الشرقية فى مدراس ، كما ذهب جماعة من الفرنسيين كذلك إلى الهند حيث أقاموا فى بوندتشرى . ولم يكن

غرض هؤلاء ولا أولئك علياً ، ولا كانت له صلة بالحرية ولا بالديمقراطية ، إنما كان غرضاً تجارياً مادياً بحتاً . وعلى أساس هذا الغرض توسعت الشركة الإنكليزية توسعاً أتاح للحكومة الإنكليزية موازرتها ، ثم كان مقدمة تغلب إنكلترا على النفوذ الفرنسي في الهند وتوغل إنكلترا بعد ذلك في هذه البلاد التي أقعدها الجود الديني والجود الاجتماعي عن الحركة ، وقعد بها عن أن تدفع عن نفسها عدوان المعتدين . على الرغم من ذلك بقيت إنكلترا مترددة عشرات السنين دون اقتحام الممالك الهندية الخاضعة للنفوذ الإسلامي . لأن اسم الإسلام كان إلى يومئذ ما يزال مهيب الجانب محترماً مخوفاً .

هذا الأساس التجاري الذي أخذ بالتدريج صبغة الإستعمار هو الذي طبع غزو الحضارة الغربية الشرق وما يزال يطبعه . وكانت الوسائل التي سلكت أوروبا في هذا الغزو أقل ماتكون نفقات في الأموال وفي مهج الرجال . فهي قد آثرت بادية الرأي أن تترك العالم الإسلامي لاتعرض له . ولم يكن ذلك حرصاً منها على صداقة هذا العالم . فأوروبا لم تقم وزناً لاعتبار الصداقة يوماً من الأيام . إنما كان ذلك لأنها آثرت أن لاتعرض لاندحار قد يفسد عليها خططها الإستعمارية . وكان ذلك لأن مبدأ القومية — الذي قام أساساً من أسس الحضارة تدعيماً للفكرة الديمقراطية — قد جعل دول أوروبا ينظر بعضها إلى بعض نظر تنافس وخصومة في الاستعمار ، لا نظر تعاون وتضامن في إذاعة العلم وبث حضارة تؤمن دول

أوروبا بأنها تكفل سعادة العالم وخيره . وفكرة القومية هذه هي التي أملت على أوروبا سياستها الداخلية وسياستها الخارجية كما أملت عليها سياستها الاستعمارية . ولذلك كانت كل واحدة من الدول الأوروبية تعمل تحت تأثير الفكرة القومية دائبة تريد إضعاف الدول الأوربية الأخرى . وكانت كل واحدة منها تخاف أن يتبعها غيرها إلى فتح في الشرق الجديد . لذلك هبت جميعاً تنسابق لكسب صداقة تركيا دولة الخلافة الإسلامية بدعوى ضمان سلامة الأراضي العثمانية . وفيما كان هذا الاتجاه يميل على دول أوروبا الغربية سياستها جميعاً . إذا بطرس الأكبر في روسيا يحاول أن يسلك سياسة جديدة . وإذا به يحاول غزو تركيا والاستيلاء على البسفور والدردنيل ليطل الدب الأبيض برأسه على البحر الأبيض المتوسط . هنالك ازدادت دول أوروبا الغربية حرصاً على سلامة الأراضي العثمانية . واطمأنت تركيا إلى هذا التنافس بين الدول وجعلت خطتها أن تزيد في أسبابه معتقدة أنه كاف وحده ليكفل لها إلى الأبد البقاء . وأكدت هذه العقيدة في نفوس سلاطين تركيا أن وقفت أوروبا في وجه جهود بطرس الأول وكاترين الثانية ، وإن أبقت لبنى عثمان إمبراطوريتهم . واقتدى نسي خليفة المسلمين أن كل سلامة مستمدة من نزاع الغير غير مستمدة على قوة الدولة الذاتية ، سلامة معرضة في كل فرصة للخطر ، جذيرة بأن تعرض الدولة التي تعتمد عليها إلى الإضمحلال وإلى الفناء .

لم تكن الدول في تنافسها لضمان سلامة الأراضي العثمانية ، بريئة

من الغرض . وإذا كانت كل منها تعلم أن أية فكرة ترمى إلى غزو تركيا تقابل من جانب الدول الأوروبية الأخرى بالتضامن مع تركيا في صدورها ، فقد وجهت هذه الدول مطالعتها إلى ناحية أخرى ، ناحية التوسع في الامتيازات الأجنبية ، وجعلت كل واحدة منها تقتضى ثمناً لهذا التضامن توسعاً في هذه الامتيازات يسمح لها بغزو سلبى لا اعتراض من جانب الدول الأخرى عليه بأكثر من مطالبتها تركيا بمثله . واغتبط الخلفاء العثمانيون لقصر نظرم بهذا الثمن الذى حسبوه طفيفاً ، لذلك انقلبت الامتيازات الأجنبية التى كانت من قبل ضماناً من الحكومة التركية لحرية الأجانب ولعدم إعتائهم حقوق سيادة لهؤلاء الأجانب وللدول التى تزح هؤلاء الأجانب إلى تركيا منها . كانت غاية ما يطمع الأجنبي من حماية الامتيازات قبل هذا التوسع فيه أن لا تفرض عليه ضرائب غير ما يفرض على العثمانيين ، وأن لا تقتضى هذه الضرائب بوسائل العنف والعسف . فأزال هذا التوسع حق الدولة العثمانية في فرض الضرائب على الأجانب إلا أن ترضى دولهم . كانت التجارة والربح منها كل ما يطمع الأجنبي الوافد إلى البلاد العثمانية فيه . فأصبحت مزاوله المهن الحرة ، ثم أصبح انتشار المدارس بعض ما لهؤلاء الأجانب ولدولهم من حقوق وسيادة متحد السيادة العثمانية . كان الخليفة الإسلامى حامى الملة والدين في بلاده ، أصبح التبشير المسيحى بعض الحقوق التى تكفلها الامتيازات الأجنبية حدود بلاد الدولة . ويقع هذا ويقع أضعافه برضا الخليفة التركى

وهو به مغتبط لأنه الثمن الذي بحسبه متواضعاً لكشفالة الدول الأوربية
سلامة أراضيهِ العثمانية . وما تناله الدول الأوربية من حقوق في تركيا
برضا الخليفة العثماني يمتد باسم الإسلام الذي يقوم الخليفة على حمايته
إلى بلاد العالم الإسلامي كله حقاً ، ما لم يكن منها تابعاً لتركيا ، ومع
فداحة هذا التغفل في شؤون الدول الإسلامية ، وهذا الاقتطاع من
سيادتها فداحة سنعود إلى بيان بعض آثارها من بعد ، فقد أذعنّت هذه
الدول والحكومات الإسلامية للأمر الواقع ولم تقم الشعوب
الإسلامية من جانبها بشئ من رد الفعل ضده . بل ظل هذا التداخل
باسم الامتيازات يستشري وتستفحل آثاره والدول والشعوب
الإسلامية والشعوب الشرقية عنه لا هية بل به راضية ، غافلة عن
النتيجة المحتومة التي لا بد أن تترتب عليه .

لماذا هذا الإذعان وهذا الاستخذاء ؟

لأن نظام الحكم ، ولأن الحياة الاجتماعية في هذه الشعوب
الإسلامية والشعوب الشرقية كانت قد وصلت من الجمود إلى ما سبق
لنا وصفه ، ولأن هذه الشعوب رأت في الحياة الجديدة الوافدة عليها
من أوروبا صوراً تحطم من قيود الجمود وترد إلى الإنسان خطأ من
الحرية يجعل للحياة قيمة لم تكن لها . ومهما تكن الحرية التي جاء
بها الأوربيون إلى الشرق متجهة إلى نواحي الحياة المادية أكثر
من اتجاهها إلى نواحيها الفكرية والمعنوية فإن كل قدر يحطم من
الجمود يبعث إلى النفس رجاء في نعيم الحياة لم تكن تقطع من

فيه . فإذا أتاح الاعتداء على سيادة الدولة أن يرى أبنائها أفكاراً جديدة يستريح إليها العقل ، وإذا أتاح هذا الاعتداء أن يعبر الإنسان عن فكره بحرية لم يكن يعرفها ، وإذا أتاح للإنسان أن يعيش حياة مادية أكثر رخاء ، وإذا بعث الأمل في تحطيم قيود الجود قيداً بعد قيد — إذا أتاح الاعتداء على سيادة الدولة هذا كله للأفراد نسي الأفراد الدولة وسيادتها ، وبخاصة إذا كان نظام هذه الدولة أو قراطياً بشع الاستبداد كما كان الشأن في تركيا ، وبخاصة إذا كان صاحب هذه السيادة راضياً عن تقييدها ثمناً لما يناله من ضمانات الأمبراطورية وسلامة أراضيها ، وكيف ترى تدافع الشعوب عن سيادة الدولة إذا كانت هذه السيادة ستاراً للعسف والظلم والقضاء على صور الحرية جميعاً ، وإذا كانت قيود هذه السيادة تفتح فرجة من أمل في تحطيم قيود الحرية . إن الشعوب يومئذ لتفكر في سعادتها وفي رخائها وفي طمأنينتها قبل التفكير في سيادة الدولة . فإذا بلغت من ذلك مقاماً ترضاه توجهت بهمتها إلى نظام الدولة وإلى حقوقها . فإذا أصبحت الدولة بمثلة الشعب كما يجب أن تكون اتجهت جهود الشعب لاستكمال سيادة الدولة وحريتها وتضافرت لإقامة استقلالها ونجدها .

و ثم اعتبار آخر هو أن على الشعوب إذعانها واستخضاعها . ذلك لأنان الحكومات واستخذاؤها . فهؤلاء الأجانب الذين وفدوا على مختلف البلاد الشرقية وأقاموا فيها ألواناً من حياة أوروبا قد رأوا من حكومات هذه الدول ترحيباً بهم وإقبالاً عليهم وحماية لهم يتمتع

أهل البلاد بعضها ولا يحدونها ، يجب إذن أن يكون هؤلاء الأجانب في نظر تلك الحكومات الشرقية جديرين بهذا التقدير والاعتبار ويجب أن يكونوا أرقى في مراتب الحياة لينالوا كل هذا الاعتبار . لذلك لم تنظر لهم تلك الشعوب على أنهم إخوان في الإنسانية هجروا بلاداً ضاقت بهم فلم يجدوا في المقام بها خيراً وهم لذلك جديرون بشيء من الإشفاق ، مطالبون بأن يقدموا هذا الإشفاق حق قدره . بل فظرت إليهم على أنهم أبناء أمم أسى نفوساً وأرقى عقولاً وأقدر على حكم الحياة وأجدر بأن يكونوا مثلاً يحتذى لينال عتديه شيئاً مما ينالون من كرامة وحق وسلطان على الحياة . وقد حصل الذين احتذوا مثال هؤلاء الأجانب من حكوماتهم الشرقية على شيء من ذلك . كله مما لم يكونوا يحصلون عليه من قبل ، وما لا يحصل عليه من لم يتخذوا الأجنبي قدوتهم ولم يخرجوا بذلك على قدیم جمودهم . وشجع هذا السبق في ميادين الحياة على اتساع نطاق الاحتذاء وعلى محاكاة الطائفة الحاكمة من أهل البلاد لهذه الحياة التي وردت مع الجاليات الأجنبية . ولم يكن ذلك عجباً وقد جعلت الحكومات نفسها تستورد من صور هذه الحياة ما تراه حقاً بأن ينيلها عطف هذه الدول التي أطلقت على نفسها اسم « العالم المتقدم » . استوردت الحكومات أسماء النظم الأوربية وصورها الظاهرة مكتفية بذلك عن حقائقها وقيمها الذاتية . أقامت هيئات إلى جانب الحكم المطلق أطلقت عليها اسم الشورى . أو النيابة عن الأمة لتضاهي البرلمانات ومجالس النواب . أنشأت

مدارس وألبست أبناءها الزي الأوربي وأدخلت فيها تعليم بعض اللغات الأجنبية لتضاهى المدارس الأوربية . أقامت للعدل نظماً صورها الظاهرة كالنظم الموجودة في أوروبا . وكان ذلك كله اعترافاً منها بأن الحياة الأوربية هي الكفيل بالرقى في سلم التقدم وأن النهج على منوالها هو الذى يسمو بالإنسان إلى مقام الحضارة . ولكى يكون لهذه المظاهر جميعاً من حسن السمعة ما يورث عظيم شبيهاً بأمثالها في أوروبا استعارت حكومات الشرق رجالاً من الغرب لإقناع تصوير هذه المظاهر . فلا غرو إذا نزع أبناء الشعوب الشرقية إلى محاكاة الوافدين عليهم من أبناء الغرب في مظاهر حياتهم ، وإذا اعتبرت هذه الشعوب في ذلك ما يقربها من حضارة الغرب وما يكاد يدفع حضارة الغرب بحياتها .

ولعل مصر كانت أكثر دول الشرق سبقاً في هذا الميدان ؛ فصر بطبيعة مركزها الجغرافى في عقدة الإتصال بين الشرق والغرب ، ومصر كانت أياًالة « ولاية » عثمانية كغيرها من سائر أجزاء الامبراطورية العثمانية ، لكنها كانت على خلاف غيرها دائمة التمرد والثورة على سلطان الدولة . وقد ظهر ذلك من قبل الحملة الفرنسية على مصر في أواخر القرن الثامن عشر حين أعلن إبراهيم بك الكبير استقلالها ، كما ظهر بعد الحملة الفرنسية حين عينت تركيا محمد على باشا والياً على مصر فاستفاد من تمردها ومن ثورتها على الدولة ومن قوتها الذاتية قوة قام بها في وجه تركيا ، واندفع بها إلى غزوها جاعلاً الآستانة

هدفه ، قاصداً وضع يده على مقر الخلافة ليقم بها خليفة للمسلمين ، أوليرد الخلافة إلى القاهرة ويقوم هو خليفة فيها مكان الخليفة الذي انتزعه الأتراك منها . ولشد ما عطف أوربا على هذا العصيان الذي قام به والى مصر في وجه متبوعه خليفة المسلمين وما شجعت . ومع أنها وقفت دون محمد على وبلوغه غايته فإنها قد أبدت من الحرص على تأييده بمنح مصر استقلالها الذاتي تحت إمرته وإمرة أسرته من بعده ويجعل فلسطين وسوريا تحت حكمه ما جعله يقدر هذا العطف ويفتح للأجانب في مصر باباً كان من قبل موصداً . ولم يكتف محمد على بفتح هذا الباب ثمناً لعطف فرنسا ثملة أوروبا يومئذ عليه ، بل أقبل هو على الأجانب واتخذ له منهم مستشارين وأنصاراً وجعل منهم قواداً لجيشه ، ومهد بذلك لتغزو الحياة الأوربية مصر غزواً سريعاً . وقد ظهرت نتائج هذا الغزو بعد زمن قصير حين عقد دلسبس مع سعيد باشا اتفاقية قناة السويس ، وحين نادى اسماعيل باشا بأن مصر لم تعد من أفريقيا بل أصبحت قسماً من أوروبا . وحين توالى الحوادث بعد ذلك سراعاً لتمهد الطريق لإنكسار كي تضع يدها على مصر .

كان من أثر هذا التطور في حياة دول الشرق وشعوبه وتوجهها نحو الحياة الأوربية تنسج على مثالها أن بدأت البعثات التعليمية الأوربية تغد إلى الشرق وتستقر به وكانت هذه البعثات التعليمية بدء الغزو الصحيح وكان ذلك تقدير أوروبا لها . فإدام الشرقيون يقبلون على الحياة الغربية فليسى الغرب لهم أسباب محاكاةها وليجعل

التعليم وسيلته إلى ذلك ، لكن أمر هذه البعثات يستلقت النظر ،
 فقد رأينا أوروبا تتدرج منذ البعث في القرن الخامس عشر إلى حرية
 الفكر وإلى تحطيم القيود التي غالت بها الكنيسة هذه الحرية ، وإلى إقامة
 نظم تعليمية مستقلة عن الكنيسة وعن رجال الدين . مع ذلك كانت
 هذه البعثات التي جاءت إلى الشرق بعثات دينية كلها . ولقد يخال
 الإنسان بادئ الرأي أن هؤلاء الذين وفدوا إلى الشرق من رجال
 الدين المسيحي على مختلف مذاهبهم ونحلهم إنما وفدوا إليه لتضييق
 حكوماتهم نطاق التعليم الديني في بلادهم واعتبارها لياهم أدوات
 جمود وتأخر . لكن هذه البعثات الدينية لقيت منذ اللحظة الأولى
 حماية من لدن حكوماتها المختلفة لم يلقها غيرها من الأجانِب الذين
 جاءوا إلى الشرق . وكان المتبادر إلى الظن أن لا تعطف حكومات
 أوروبا كل هذا العطف على جماعة تعتبرهم سيئاً من أسباب تأخر
 أوطانهم مادامت تريد أن ترفع في وروح العالم كله لواء حضارتها
 الجديدة . لكن الأمر كان لا يزال على النقيض من هذا المتبادر إلى الظن .
 ومنتجع تقارير ممثلي الدول الأوروبية في الشرق منذ النصف الثاني
 من القرن الثامن عشر إلى وقتنا الحاضر يعجب لما يرى فيها من شدة
 الحرص على حماية هذه البعثات حماية لا يتردد الإنسان معها في اعتبار
 البعثات التعليمية الدينية غزوة منظمة وجهتها أوروبا إلى الشرق
 لغايات سياسية .

كيف كانت هذه البعثات غزواً سياسياً منظماً وجهته أوروبا

للشرق ؟ رأيت أن تركيا ، كدولة الخلافة الإسلامية الحائلة بامتدادها حول البحر الأبيض المتوسط دون غزو أوروبا لأفريقيا وآسيا ، كانت موضع نظر خاص من جانب دول أوروبا فتنافسها بحكم القومية جعلها تتسابق إلى أن تكفل سلامة الأراضي العثمانية وحرصها على اختراق هذا النطاق وعلى وضع يدها عليه جعلها تعمل لتشجيع العوامل التي تضعف هذه الدولة العثمانية ؛ فهي قد صدت روسيا بعد أن تراجعت تركيا أمامها ، وهي قد أعادت محمد علي إلى مصر بعد أن كان على مقربة من القسطنطينية ، وهي قد شجعت اليونان وشجعت الدول البلقانية على الانتفاض على تركيا . لكن تركيا إذا تركت وشأنها بعد هذه الضربات التي أصابتها والتي صدتها أوروبا عنها ضماناً لسلامتها فقد تستفيد من هذا الدرس القاسي وقد تراجع النظر في أمرها . فلتختر أوروبا الجهات التي يكثُر فيها المسيحيون من بلاد آل عثمان وتوجه إليها غزوتها التعليمية بقوة أكبر مما وجهت لسائر بلاد الدولة ، واختارت أوروبا لبنان لهذا الغرض وبعثت إليه البعثات وأنشأت فيه المدارس منذ سنة ١٧٥٠ . وكان أهل لبنان إلى يومئذ لا يعملون الخلاف في الدين سبباً لاختلاف سياسي ، لكن هذه البعثات الدينية الأوربية عملت بتأييد دول الغرب المختلفة لتعليم المسيحيين من أهل لبنان وإقناعهم بأن ما ينزل بهم من ظلم ليس مرجعه إلى نظام الحكم في الأمبراطورية العثمانية كلها . ولكن مرجعه إلى أنهم مسيحيون ، وأن الدولة العثمانية هي دولة الخلافة الإسلامية ؟

وبهذه التعاليم تهيأت نفوس أهل لبنان للإلتقاض على الحكومة المركزية .
قد يكون رجال هذه البعثات غلصين لرأيهم فيما علوا أهل
لبنان ، ولكنهم كانوا أدوات السياسة الغربية ، سياسة الإستعمار
المادى الذى لا يعنى بالعقيدة ولا بالدين إلا بمقدار ما يصل به إلى
أغراضه . وقد انتقض لبنان بالفعل فى سنة ١٨٦٠ وتدخلت
الدول الأوروبية لتأييد انتقاضه وكفلت له الحكم الذاتى الذى كفلت
لمحمد على فى مصر قبل عشرين سنة من ذلك التاريخ ، وبذلك أقامت
من لبنان الجبل الحصين تنوءاً فى جنب السور الإسلامى ، كما أقامت
من مصر قبل ذلك تنوءاً آخر أشد من لبنان خطراً بسبب هذا
الموقع الجغرافى الممتاز الذى يجعل مصر موضع الصلة بين البحرين
الأبيض والأحمر موضع الصلة لذلك بين قارات العالم الخمس جميعاً .

كان من نتيجة هذا الغزو التعليمى وما أذاع فى الشرق من أدب
جديد وتفكير جديد أن زاد أهل الشرق شعوراً بما جنى الجلود عليهم
وإقبالاً على هذه الحضارة المتقدمة . ولكن كيف يكون هذا الإقبال ؟
أليكون بنزع القديم كله وارتداء ثوب الحضارة الجديدة ؟ لقد نوعت
بعض الأمم فيها بعد الحرب الكبرى الأخيرة هذا المنزع ، كما فعلت
تركيا وكما حاولت أفغانستان أن تفعل . . لكن هذا المنزع لم يكن
ميسوراً قبل الحرب حينما كانت شعوب الشرق ما تزال تحسب نفسها
قديرة على استعادة مجد كان لها . لذلك بدأ أهل الشرق يفكرون فى
أسباب تغلب الحضارة الجديدة عليهم ، وفى وسائل الوقوف على

أقدامهم إزاءها . وتفكير الضعيف في سبب ضعفه تفكير مطمئن بطبعه للاعتراف بما هو متورط فيه من الخطأ وما هو شر من الخطأ ، لذلك كان الأخذ بوسائل العمل المجابهة الحضارة الغازية أسرع من التفكير في التغلب على أسباب الضعف . وكان هذا العمل لمجابهة الحضارة الغازية سطحياً ، هو الذى يتبادل إلى ذهن الإنسان العادى في أى ظرف من الظروف . فهذا العمل إنما هو محاكاة الغرب صاحب هذه الحضارة . ومحاكاة الغرب تكون باستعارة مظاهر حضارته ، وتكون بإرسال جماعة من أبناء الشرق للوقوف على أسرار هذه الحضارة .

وقد كان هذا تفكير مصر منذ عهد محمد على ، وكان تفكيرها بعد ذلك . وهو قد كان كذلك تفكير بلاد غير مصر في الشرق . لكن النشاط في هذه الناحية بدأ نشاطاً حكومياً ، ثم فتر زمنياً إلى أن أتاحت ظروف خاصة للأفراد التفكير فيه .

أدهشت الحضارة الغربية أعضاء هذه البعثات فكل مظاهرها جديدة أمامهم ، المظاهر المعنوية في ذلك كالمظاهر المادية سواء . وهذه وتلك كلها قوية ناشطة ، آخذ بعضها برقاب بعد ، مستندة كلها إلى هذه الحرية التي كسبت أوروبا في مختلف الميادين بعض نضال القرون . فالعلم والذن والأدب والفلسفة وسائر مظاهر التفكير جديدة كلها ، بالقياس إلى ما خلفوا وراهم في بلادهم . والصناعة والتجارة ومعدات النقل وأسباب الملاحة ضخمة هائلة لا يرى في الشرق منها إلا ما كان

وارداً من الغرب . وهذه الحرية التي يستند ذلك كله إليها ، تتم في الشرق بمناقضاتها لقواعد الخلق وللمقتضيات الفضيلة . وليس يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن رجال الدين في الغرب يحدثون هؤلاء الذين أوفدهم الشرق حديثاً غير الذي يحدثهم رجال دينهم ؛ يحدثونهم حديثاً أساسه التمثل واحترام الحرية ، ويحدثونهم عن الخلق وعن الفضيلة وعن المحبة الإنسانية حديثاً قلباً تخالطه الخرافة . فمن حق هؤلاء الشرقيين أن يندعشوا ، ومن حقهم أن يشعروا بسبق الغرب إليهم ، وبأن حضارة الغرب إنما هي الحضارة الواجب أن تنتقل إلى الشرق إذا أريد بالشرق أن يخرج من هموده وأن يفيق من سباته . فما هي الوسيلة ، بل ما هي الوسائل لنقل هذه الحضارة ؟

يستغرق التفكير في هذه الوسائل السنين الطوال . لكن هذه النتيجة التي وصل إليها من تنقفوا بثقافة الغرب من أبناء الشرق ، جعلت نظرهم إلى بلادهم نظرة إشفاق لا تخلو من ازدراء ما فيها من العناصر الحيوية التي كان يجب أن تدفع بها إلى الأمام فإذا هي تردها القهري خطوات فسيحة . ومن شأن هذه النظرة أن تضعف في النفوس القوة المعنوية أضعاف ماضعضعت البعثات الدينية الأجنبية من هذه القوة . ثم زاد في ضعفها عامل آخر جدير بالاعتبار هو الآخر ، وهو من نوع هذين العاملين من حيث إنه عامل تعليمي مرجعه إلى تدريس تاريخ الشرق لأهل الشرق .

فقد جعل أهل الغرب همهم أن يصور تاريخ الشرق تصويراً

يجعل الناشئين من أهله يعتبرون بلادهم بطبيعة تاريخها غير أهل لما بلغت أوروبا، فواجب عليها أن تدعن لقيام أوروبا بتعليمها وإعدادها للحرية وللحكم. فصر مثلاً لم تحكم نفسها — في رأى الأوربيين الإستعماريين — منذ انتهى عهد الفراعنة. بل خضعت لحكم اليونان والرومان والعرب والترك عصوراً وقرونًا. وشعب هذه وراثته في الحكم لا يمكن أن يعرف الحرية، أو يعرف كيف يتولى بنفسه الحكم. ومع فساد هذه النظرية من الجهة العلمية الزهية، فقد ظلت تروج وتروج، ويخضع عليها الأدب والفن من مختلف الصور ما نزل بها إلى نفوس الشعب فأضعفها وتركيا — مع الاعتراف لها بتفوق ملكاتها الحرية — هي الرجل المشرف على الموت الذى ليس من موته بد. وبلاد العرب المندججة في الأمبراطورية العثمانية قد خضعت لتير العرب منذ الفتح الإسلامى، ثم عصف بها الحكم التركى ففضى في نفوس أهلها على كل ملكات الحرية والحكم.

أما الجزائر وأما تونس فقد وقعت في حكم فرنسا. وقعت الأولى في أوائل القرن التاسع عشر، بينما ظلت الثانية حتى حول بسمر ك أنظار فرنسا إليها بعد حرب السبعين ليشغلها بها عن هزيمتها في تلك الحرب من ناحية، وليشغلها عن مجهوده الجبار في إقامة الوحدة الجرمانية من الناحية الأخرى، وما نقتت أوروبا من سموم الانحلال في مصر وفي الشرق الأدنى نفتته فرنسا في الجزائر وفي تونس. وإذا فليؤمن الشرق كله بأنه في حاجة إلى حضارة الغرب إذا أراد أن

يحيا وأن يعرف الحرية طعماً ، وليؤمن تبعاً لذلك بأنه في حاجة إلى دول الغرب لمعاونته على الحياة وعلى الحرية .

وتقدم الغرب لمعاونة الشرق ، ولكن أية معاونة ؟ معاونة من يريد أن يستغل استغلالاً اقتصادياً فاحشاً تحت ظاهر من نشر لواء حضارته . حضارة العلم قد عنيت في الشرق بتضييق نطاق العلم غاية التضييق . حكمت البعثات التبشيرية في البلاد التي ظلت مستقلة على بث ذلك التاريخ المشوه للشرق في نفوس أبنائه ، وعلى إشراب تلاميذها العقيدة بأن الشرق بحكم دينه الغالب ، وبحكم تاريخه ، لا سبيل إلى تقدمه ما لم ينزع عنه ثوب هذا الدين ، وما لم يفصل بينه وبين ماضيه سياج متين . فأما في البلاد التي امتد نفوذ الغرب فيها ، فقد حصر التعليم في أضيق دائرة ممكنة ، وجعل أداة لتخريج موظفين يدينون بالطاعة والإذعان للغرب صاحب السبق والتقدم أو صاحب النفوذ السياسي في البلاد . وقد أشار لورد كرومر في تقاريره عن التعليم بمصر إلى ذلك غير مرة بمبارات صريحة . بل أضاف إلى ذلك أن لغة أهل الشرق (العربية) غير قادرة على أن تحمل رسالة العلم ، فلا بد لمن يريد أن يدرك هذه الرسالة من أن يصل إليها من طريق لغة أوربية . وهذه كلها لا ريب عقبات ، عمل الغرب لوضعها في طريق الشرق حتى لا تسرع إليه رسالة العلم الصحيح تدفعه إلى حمى الحرية والحق ، وتجعله يقف مع الغرب جنباً لجنب ، بدل أن يذعن له ويطأ على رأسه أمامه .

وفيما كانت هذه العوامل كلها تضعضع من إيمان الشرق بنفسه ، كانت صناعة الغرب تغزو الشرق غزواً ذريعاً ، وكانت سياسة الغرب تقيم في وجه الشرق كل عقبة إذا أراد أن ينافس بصناعته صناعة الغرب . وكان الاستثمار الاقتصادي يتخذ من علم الغرب . ومن أدبه ومن فلسفته وسيلة لإضاعة ماعند الشرق من ثروة . بنفسه ، ولإفناعه بأنه أصبح إلى أجيال عالة على الغرب لاسيما له إلى الاستغناء عنه . وقد بلغ الغرب من ذلك أن أصبحت بلاد الشرق قاصرة على إنتاج الخامات التي تحتاج إليها الصناعة ، قاصرة عن أن تنتج في ميادين العلم والآداب والفن شيئاً يذكر ، وأن أصبح كل مافي الشرق من مظاهر الحضارة مستعاراً من الغرب ، حتى لو أنك نزعنا مافي الشرق من علمه وأدبه وفنه وصناعته وتجارته إذن لرأيت الشرق أجرد عارياً إلا من خصب أراضيه ومن أذرع الفلاحين والعمال فيه .

هل أسلم الشرق نفسه لهذا الفناء في الغرب ؟ أم أنه حاول أن يقاوم ؟ وبأى مقدار ؟

تقف في هذا الفصل عند الغزو الأوروبي للشرق إلى ما قبل الحرب الكبرى التي شبت نارها في الثاني من أغسطس سنة ١٩١٤ . إلى ذلك الحين كان غزو الغرب لبلاد الشرق معتمداً على ما قدمنا بصفة عامة ، معتمداً إلى جانب ما قدمنا على القوة المادية والهيبة العسكرية في البلاد التي غزا الغرب . وقد كانت تتنازع الشرق إزاء ذلك كله نوازع مختلفة الموجات . كان الشرق كله تفيض نفسه أسى وحسرة على ما أصابه . لكن رد الفعل

فيه كان يختلف باختلاف الطوائف والهيئات . فمن هذه من رأى كل مقاومة غير مجدية ، ومن آمن أكثر من ذلك بتعاليم الغرب بأن الشرق لم يبق أهلاً للحكم . وأنه لو ترك وشأنه لمزق أهله بعضهم بعضاً كل مزق ، ولفشت فيه آثار الاستبداد جميعاً من ظلم وقسوة وانتقام ورشوة وفساد خلق . وأن ليس له لذلك إلا أن يذعن للغرب وأن يسلم له قياده حتى يعطيه الغرب حكم نفسه ، أو حتى تتم المعجزة فيبعث الله من يقيم الشرق من الوحدة التي تردى فيها . وآخرون كانت ثور نفوسهم لما يسلب الغرب الشرق حريته فينادون بحرية الشعوب اعتماداً على حقها في الحرية واعتماداً على مبادئ الحق التي قررت الثورة الفرنسية . وهؤلاء كانوا يتخذون من ضرب مصالح الأمم الغربية بعضها ببعض وسيلة للغاية التي يصبون إليها من تحرير أوطانهم محتذين في ذلك حذو الدولة العثمانية في اعتمادها على تنافس الدول الأجنبية لضمان سلامتها ، كما كانوا يعتمدون على استفزاز حساسة الشعوب المظلومة ليشعروا المستعمرين بأن مصالحهم معرضة للخطر إذا هم ظلوا في سلبهم لحرية الأمم التي يظلمون . وآخرون غير هؤلاء وأولئك كانوا يعتقدون أن الإدمان والتسليم أمر يتنافى وطبائع الأمم . وأن الاعتماد على تضارب مصالح الدول الغربية اعتماد غير مشر . لأن هذه الأمم تتعاقد على حساب الأمم المظلومة ، فتنازعها لن يكون من أثره إلا ازدياد هذه الأمم المظلومة عدداً . وأن استفزاز الشعور وحده غير كاف لطرد المستعمر من بلاد يجد فيها

مغنماً مادياً ، أو يجد فيها نقطة ارتكاز لسياسته الاستعمارية أو العسكرية . فإذا أريد أن تقاوم أمم الشرق استثمار الغرب فلا مفر من تقوية الروح المعنوية في أمم الشرق تقوية أساسية ثابتة تجعل أصحاب هذا الروح يأبون الضيم ويفضلون عليه الاستشهاد ، وأن تقوية الروح المعنوية على هذه الصورة لا يكون إلا إذا شعرت هذه الأمم بأن لديها من مقومات الحياة مائتة أمم الغرب من علم وفن وأدب وصناعة ، وأن الاعتماد على الحكومات في هذا ضرب من السخف لأن الحكومات إما استبدادية كما كانت في تركيا وفي فارس وفي الأفغان فهي تخاف العلم والفن والآداب والصناعة كما يخافها المستعمر سواء وإما خاضعة لحكم المستعمر فلا رجاء في مقاومتها سياسته ، وفي إقامتها العلم والفن والآداب والصناعة مما يدرك أركان هذه السياسة . فلا بد من أن تقوم حركة أهلية منظمة تعمل لتقوى الروح المعنوى وإن احتاجت في ذلك إلى ما تحتاج إليه من جهود شاقة وعمل متصل على السنين .

كانت هذه النزعات الثلاث قائمة بنفوس البلاد الشرقية إلى ما قبل الحرب . ومع أنها على ما ترى نزعات لا يمكن أن تعترض بعضها بعضاً ، بل يمكن على العكس أن تتجاوز وتعمل متضامنة — والنزعتان الأخيرتان منها بنوع خاص — فإن السياسة الغربية الواسعة الحيلة قد تمسكت من أن تضربها بعضها ببعض ، وأن تقيم أصحابها وجههم في وجه بعض ، وأن تجعلهم يترامون بينهم شغواء أقلها المروق من الوطنية

أو الخرق فيها . وقد تعجب إذ ترى أن ما حسبه تركيا ضماناً لسلامتها حين ضربت الدول بعضها ببعض قد أدى إلى استفحال شأن الامتيازات الأجنبية فيها وفي البلاد الشرقية كافة — قد انقلبت نتيجة حين ضربت سياسة الاستثمار طوائف الأمم المغلوبة بعضها ببعض فزادتها بذلك ضعفاً، ولكن لا عجب، فالبلدتان المتشابهتان يختلف ثمرهما إذا زرعت إحداهما في أرض قوية والأخرى في أرض سبخة . وفرق بين سياسة تقوم على الضعف وتستمد وجودها من تنازع الدول على السلطان الذى يقوم بها وعلى بلاده ، وبين سياسة تعاضدها القوة المادية والهيبة العسكرية وتستند إلى ما كسبت أوروبا خلال القرون التي عقيت عصر البحث من علم وفن وسياسة .

هذه الصورة التي رسمنا من صلات الغرب والشرق في عصر الاستعمار — أى منذ منتصف القرن الثامن عشر إلى حين نشوب الحرب الكبرى — تدلنا على أن أوروبا قد غزت الشرق غزو استعمار ، لا غزو حضارة . قد غزته غزواً مادياً لم تقصد منه إلى أن تظله بلواء حضارتها العلية . بل غزواً اقتصادياً كان كل غرضها منه استغلاله استغلالاً اقتصادياً . قد يقال إن الغزو كان يرمى في كل العصور إلى الغلب السياسى وإلى الاستغلال الاقتصادى . وهذا صحيح في مجموعه ، وهو صحيح في الغزو الإسلامى صحته في الغزو المسيحى . لكن الغزو الإسلامى والغزو المسيحى كانا إلى جانب الغلب السياسى والاستغلال الاقتصادى يقيناً حيث أقاما روحاً معنوياً ونظاماً روحياً لم يقصد

به يوماً إلى إضعاف ثقة الأمة ، التي نزل هذا الغزو فيها ، بنفسها ، ولا هو
عند إلى تشويه تاريخها وحبس العلم عن أهلها وعدم السماح لهم إلا بالنزر
منه . ويشهد التاريخ أن الحضارة الإسلامية أظلت بلوائها كل بقاع
الأرض التي انتشر الإسلام فيها . وكذلك الشأن مع الحضارة
المسيحية ، لكننا لا نحسب أهل الغرب أنفسهم يرون شرفاً للحضارة
الغرب أن يقولوا إنها أظلت البلاد التي حكم الغرب بلوائها . فإنما
نشر الغرب حيث ذهب حضارة استعمارية قامت على إضعاف الروح
المعنوى في الشعوب التي نزلت بها ، وعلى قتل معنى الاعتقاد على النفس
في تلك الشعوب ، كما نشرت بينها روحاً مادية ؛ قتالا للإيمان بكل
المعاني السامية أو المثل العليا موطداً للاستعمار وآثاره . وهذا الروح
المادى هو ما يعمل المستعمرون لنشره أنى ذهبوا ؛ لأنهم يرونه الصلة
الوحيدة التي تربط الحاكم بالمحكوم في كل أمة ليس بين الحاكم
والمحكوم فيها صلات لفة أو جنس أو دين . أفنصحت هذه السياسة
في ربط الغرب بالشرق حين أعانت الحرب الكبرى ؟ وهل نجحت
من بعد ذلك في توطيد السلام في ربوع العالم ؟ . فلنتظر قليلا
ثم نرى .

الفصل الثاني

الشرق في طور بعث^(٥)

- ١ -

أثر الحركات الفكرية في بناء الوطن

ما هو المقصود بالحركات الفكرية . لعل لا أكون مخطئاً حين أجيب عن هذا السؤال بأن الحركات الفكرية إنما هي يقظة الأمم من ركود تألفه وتستقيم إليه ، فتؤدي استنابتها لهذا الركود إلى انتشار العادات الضارة ، والعقائد السقيمة ، والمفاسد التي تصبح في حكم العادات والعقائد ، والتي تضر بالمجموع القوي ضرراً يثمر به بادئ الرأي بعض الأفراد فيذهبون إليه ، ثم ينتشر الشعور به في طوائف الأمة المختلفة . فإذا علت الصيحة بمقاومة هذا الفساد أي الشعب هذه الصيحة ، فكانت اليقظة ، وكانت الحركة الفكرية أو التحريرية للقضاء على العادات الضارة والعقائد السقيمة والمفاسد الناشئة عنها . وعند ذلك تتحرك نفسية الشعب إلى أمل أسمي ومثل أعلى يراد تحقيقهما للخير العام .

والركود الذي يصيب الشعوب قتلشاً عنه هذه المفاسد مثله في الجماعة الانسانية كمثل ركود الماء وما ينشأ عنه من طحالب يعلو سطحه ؛ ومن

(٥) محاضرة أقيمت بدار الكتب الوطنية في حلب سنة ١٩٥٣ .

جرائم تنمو في هذا الطحلب فتفسد الماء نفسه فيصبح آسناً . ويقلّظ الشعب لمحاربة الأسن الذي يريم عليه ، ومقاومة ما ينشأ عنه من فساد ، لأنما مثلها كمثل الماء الجارى يندفع قويا إلى مواضع الركود فإذا الطحلب يتمزق وينزاح أمام هذا الماء المتدفق فيلقى به إلى الشطآن حيث تلقاه الشمس وتنتقيه وتطهره من جرائمه . كذلك تفعل يقظة الشعوب ، تمزق ما كُشف من حجب العادات الضارة والعقائد السقيمة وتقضى على جرائم الفساد التي عشت فيها ، ثم إذا الكيان القومى يقاوم ما اندس إليه من ضعف ، وإذا بناء الأمة الذى كاد يهدم ويتداعى يعود متينا قويا ، وإذا هذه الأمة تستظل بلواء من حرية الفكر يحدد فيها العوائق المنحلة والنفوس الضعيفة ، ثم إذا بها تندفع متحدة الكلمة متوثبة العزم لتنهض بالعبء الإنسانى الذى يقتضيها التقدم فى طريق الكمال .

والبقطة القوية مصدرها العقل والعاطفة ؛ إذ يغالبان السليقة الحيوانية ، ويتغلبان عليها ويسموان بها إلى ما يرضى الشعور البشرى بالكرامة الإنسانية . والعقل والعاطفة هما اللذان يوجهان السليقة الحيوانية فى الإنسان إلى الخير أو إلى الشر فيسموان بها إلى مصاف الأبرار والعلماء والقديسين ، أو يتحدران بها إلى مصاف الأشرار والجهال والفاسدين .

ومن هنا كان اختلاف هذه السليقة فى الإنسان عنها فى سائر الحيوان . سليقة الحيوان تهديه طريقة فى الحياة على نحو ما اعتدى آباؤه وأجداده وسائر أسلافه منذ كان نوعه . فالأسد اليوم يعيش كما عاش الأسد من مائة ومن ألف ومن عشرة آلاف سنة مضت .

وشأن الثور كشأن الأسد سواء ، وكذلك سائر الحيوان . أما الإنسان فتأثر سليلته بهدى عقله وعاطفته وحبه ، لأنه يستطيع بهداها أن يعرف لنفسه ألواناً من المتاع في الحياة لا يبلغها عن طريق السليقة وحدها .

صحيح أن سليقة الحيوان وسليقة الإنسان يهدفان كلاهما إلى المحافظة على الحياة وإلى تخليد النوع . والمحافظة على الحياة تقتضى كلها الطعام والشراب والأوى . وتخليد النوع إنما يكون بالتناسل . ولكن الحيوان لا ينفى من طعامه وشرابه ومأواه وتناسله بمتاع خاص بلذ حسه ، أو يرضى عاطفته ، أو يرضى عنه عقله . وإنما تدفعه الطبيعة إلى أن ينال من ذلك ما يسرته له في حدود الأغراض التي تملها سليلته : المحافظة على الحياة وتخليد النوع . أما الإنسان فلا يكتفى بما تيسره الطبيعة ، بل يحرص على تحويره وتنظيمه على صورة تنيله من المتاع بالحياة ما يجعله أشد حرصاً على المحافظة عليها ، ومن تخليد النوع من يخلع عليه ألواناً من الحس والعاطفة ليس للحيوان منها إلا القدر القليل . ثم يبدع عقله وحسه وتبدع عاطفته ألواناً من العلوم والفنون والآداب تزيد هذا المتاع أضعافاً مضاعفة ومن هنا كان تطور الإنسان على حقب التاريخ في ألوان حياته الفردية والاجتماعية ، وكان تطور صلات الناس بعضهم ببعض في الأسرة والقبيلة والمدينة والامة ، وفيما بين الأمم بعضها وبعض . ومن هنا كذلك طور العلم أسباب الحياة من شطف العيش الذي كان يحياه الناس منذ ألوف السنين ، والذي لا يزال مألوفاً عند بعض

الجماعات الإنسانية المختلفة ، إلى ما وصلنا إليه اليوم من آيات العلم والفن وسائر ما هنالك من نتاج العقول ووحى الخيال في مختلف الميادين .
 جاء هذا التطور الذي نقل الجماعة الإنسانية من حال الهمجية إلى أسمى ما بلغت من مراتب الحضارة نتيجة اليقظة العقل والعاطفة يقظة تسكرت عشرات المرات في مختلف أرجاء الأرض ، وتبعتها في كل مرة تلك الحركات الفكرية فكان لها ما كان من أثر في بناء الأمم . وقد اختلفت صور هذه اليقظة باختلاف الأزمنة والأماكن التي تقع فيها ، فكانت تارة يقظة روحية ، وتارة أخرى يقظة فنية ، وتارة ثالثة يقظة علمية ، وتارة رابعة يقظة صناعية ، وهلم جرا ، وفي أعقاب كل واحدة من هذه اليقظات كانت الحركات الفكرية تتفاعل فتخرج الأمة من سباتها ومن ركودها إلى نشاط معمّر يظل زمناً حتى تبدو اليقظة في ركن آخر من أركان العالم ، فإذا تلك اليقظة الأولى تتطوى على نفسها ، وإذا هي تنقلب شيئاً فشيئاً ركوداً يملوه حجاب يكشف بتوالي الزمن ، وتعيش فيه بجرائم العقائد السقيمة والآراء الضارة وما ينشأ عنهما من فساد وانحلال يطول زمنهما أو يقصر ، حتى تمزق حجابهما يقظة جديدة ونهضة فكرية جديدة .
 وتاريخ الإنسانية سلسلة متصلة من تلك اليقظات ومن أدوار الركود تبدو هنا وهناك في مختلف أرجاء العالم . وحسبي أن أعيد إلى الذاكرة بعض هذه اليقظات لنرى أن مصدرها جميعاً كان حركة فكرية . ولتقدر ما كان لها من أثر في بناء الأمة التي ظهرت فيها . ثم امتدادها من بعد ليعم أثرها العلم كله .

وأول مثل أضربه اليقظات الروحية . فهذه الأديان التي نشأت في منطقتنا ، منطقة الشرق الأدنى ، قد كانت كل واحدة منها ، في أول أمرها ، حركة فكرية نادى بها رجل فبتك بها حجاب ذلك الركود الذي خيم على الأمة التي نشأ فيها . كان موسى بن عمران في مصر ، وكان فرعون مصر يقول لأهلها : أنا ربكم الأعلى ، وكان أهل مصر يخلعون على فرعون كل مظاهر الألوهية وصفاتها ، لجاء موسى بأمر ربه وألقى في الناس أن فرعون ليس إلا رجلاً كالرجال ، وأن الله جل شأنه برآه كما برأ غيره من الناس ، وأن فرعون معرض للخطأ ، كما أن غيره من الناس معرض للخطأ ، وأن الكمال لله وحده ، والمصمة له وحده ، ويجب أن تكون العبادة له وحده .

هذه فكرة تحريرية ألقى بها موسى فأثار فرعون ثم كان لها من بعد أثرها ، لافى حياة مصر وحدها ، بل في حياة العالم كله .

وجاء عيسى وبطش الرومان مسلط على الرقاب ، فألقى في الناس آية العفو والمغفرة والتسامح والسلام ، فكان ما ألقاه فكرة جديدة قاومها الطغاة وقاوموا رسولها ، كشأنهم في مقاومة كل فكرة تحريرية . ولكن هذه المقاومة لم تمنع ضياء الفكرة من أن يشع في الآفاق إشعاع نود الشمس فيها ، ولم يمنع الفكرة ذاتها من أن تنتشر وأن تحتل ملك روما نفسها لتقضى على الطغيان فيها . وانتشرت المسيحية في روما وفي مصر وبلاد الشرق ، ثم عم نورها آفاقاً لا تزال تسبح بحمد المسيح وتقديس له . وكان للفكرة التي ألقاها المسيح أثرها في بناء الأمم التي دانت لتعاليمه ، ولا يزال لها من هذا الأثر في بناء أكثر

الأمم رقيقاً وحضارة في عهدنا الحديث ما تعرفون .

وجاء النبي العربي برسالة الإسلام إلى شبه الجزيرة يوم خيم عليها ركود كانت عبادة الأصنام مظهره . جاء يدعو إلى التوحيد ، وإلى الأخوة الإنسانية ، وإلى أسنى الفضائل النفسانية ، فلم تمض على دعوته غير عشرات قلائل من السنين ثم إذا الإمبراطورية الإسلامية تمتد شرقاً من الهند والصين إلى المحيط الأطلنطي ، وإذا هذه الأفكار التحريرية تنهض بأمم أفسدها الركود فبعثتها لتقيم في العلم حضارة ، وتبني في العالم شعوباً وأمم لا تزال حتى اليوم تؤمن برسالة النبي العربي ، ولا تزال ترجو أن تبعث في العالم روحاً جديداً من الإخاء والتسامح ومن المحبة والسلام والخلق الكريم تنقذه من فساد حل به وهو يرزح اليوم تحت كلكله .

هذه الحركات الفكرية التي أدت إلى تلك اليقظات الروحية ، والتي كان لها أكبر الأثر في بناء الأمم التي اعتنقت هذه الرسالات ، أصابها الهرم والركود في بعض الأحيان ، ثم دبت إليها اليقظة في أحيان أخرى فعادت قوية تسمو بالحياة الإنسانية إلى ألوان من الجاه تضفي على الحياة قيمة لم تكن لها من قبل .

وحسبي أن أذكر مثلاً لهذا الركود واليقظات التي هتكت حجابها حركة البعث في أوروبا . كان قد دب إلى المسيحية في العصور الوسطى من أثر الركود ما شجع رجال الدين على بيع براءات الغفران وما يشبه بيع براءات الغفران من أمور رآها بعض زملائهم مخالفة صارخة لتعاليم السيد المسيح . عند ذلك ناروا بهم فكانت الحركة

الفكرية التي قام بها لوثر وكالفن والتي أقرت البروتستانتية في العالم . وقد كان لهذه الحركة الفكرية من الآثار في بناء الأمم الأوروبية ماسجله التاريخ وما لا يزال يسجله إلى وقتنا الحاضر . فلم يقف أثر هذه الحركة عند الأمم التي اعتنقت المذهب الجديد ، بل قضت على كثير مما كان رجال ثورة الإصلاح الديني يشكون منه ، وكانت براءات الغفران مقدمة ما قضت عليه .

ثم كان لهذه الحركة الفكرية أثر أبعد ؛ ذلك أنها نهبت الأذهان إلى أن للعقل الإنساني حقوقاً لا يمكن أن تهضم ، وأن العقل الإنساني يستطيع أن يفتح للإنسان من أبواب الطمأنينة والسعادة الشيء الكثير .

وفي ذلك الحين كانت جيوش الأتراك تتقدم حتى قنحت القسطنطينية وقضت على برنطية وعلى الإمبراطورية الرومانية الشرقية القضاء الأخير ، ورفعت لواء الإسلام على البلاد التي قنحتها . هنالك اضطر عدد من العلماء ، الذين لم يرضوا أن يسيروا في ركاب الغزاة ، للهجرة إلى إيطاليا وإلى غيرها من بلاد أوروبا ، فكانت هجرتهم طليعة البعث العلى الذي شهدته أوروبا منذ القرن السابع عشر ، والذي أقام الحضارة الغربية الحاضرة ، وهو لا يزال باق الأثر إلى اليوم .

هل لي قبل أن أتحدث عن اليقظة العلمية ، وعن الحركات الفكرية التي وجهته وعن أثرها في النواحي الاقتصادية والاجتماعية ، وما كان لذلك من أثر في سياسة العالم كله ، وفي قيام أمم وتدهور أمم أخرى ،

أن أشير إلى ما بين اليقظة الروحية والحركة الفكرية التي توجهها وبين غيرها من اليقظات من اختلاف أساسي . . فاليقظة الروحية بطبيعتها تدعو الناس إلى العودة إلى السكال الروحي ، إذ يكونون قد انحدروا إلى مراحل دون مستواه . فهي ليست يقظة دافعة إلى تبديل يراد به التقدم إلى الأمام ، بقدر ما هي حركة مقاومة للتحلل النفساني ، ودعوة للعود بالروح إلى صماء جوهرها ، صفاء مصدره لإيمانها الصحيح بالله . والإيمان بالله هو الإيمان بالسكال الروحي ، فالله كمال في كل صفاته جل شأنه . وإذا كان الله قد خلق الإنسيان على صورته ، فواجب أن يلتبس الإنسان في حياته كل الصفات التي تقر به من الله جهد طاقته .

وليس عجبا أن يكون ذلك شأن اليقظات الروحية ، فهذه اليقظات تتصل بجوهر النفس . وهذا الجوهر لا يتغير بالزمان ، بل هو باق بقاء الزمان . فليهد العلم الإنسان إلى ما شاء الله أن يهتدى إليه فإن يغير ذلك من جوهر نفسه ، ولن يغير عما يدعو إليه هذا الجوهر من معاني المحبة والإخاء والسمو الروحي شيئا . لقد استطاع علم النفس أن يكشف عن كثير من العوامل التي توجهنا في سلوكنا ، ولكنه لم يستطع أن يغير المثل العليا لقواعد هذا السلوك ، فلم يجعل الكذب أو الخداع سبيلنا إلى الحق ، ولم يجعل الكراهية والبغضاء سبيلنا إلى السعادة ، بل بقيت القيم الأخلاقية ، التي عرف الناس فضلها من ألوف السنين لم تتغير ، ولا إلحائها تتغير وإن انقضت على يومنا بعد اليوم ألوف السنين وعشرات ألوفها .

فأما ما سوى اليقظات الروحية والحركات الفكرية التي توجهها ،
فليس يدعو إلى مثل هذا العود لما محته أحلك أطوار التاريخ ، بل هو
يدعو إلى أطوار جديدة في مظاهر الحياة الإنسانية تزيد الناس رخاء
أو تزيدهم بالحياة متاعاً . لما قامت الحركات التحريرية في أوروبا في
القرن الثامن عشر نتيجة لجهود العلماء الذين دفعهم الغزو التركي من
اليونان إلى إيطاليا وإلى غيرها من بلاد أوروبا ، فتقررت حقوق
الإنسان ، وفي مقدمتها الحرية الفردية ، تطورت النظريات الاقتصادية
متأثرة بهذه اليقظة السياسية ، متأثرة كذلك بالنشاط الاقتصادي
الذي دفعت إليه هذه اليقظة . فبعد أن كانت الحياة الاقتصادية قائمة على
أساس من الرق ومن تملك صاحب الأرض لمن عليها من الناس ، ألغى
الرق وارتفعت الصيحة داعية إلى الفردية الاقتصادية . هذه العوامل
السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتتابعة أدت بآدم سميث ، ثم بيجون
ستيوارت مل إلى تقرير المبدأ الفردي المطلق ، وإلى القول بأن أول
واجب على الدولة ، بل واجبها الوحيد ، أن تحمي الحرية الفردية في
الميدان الاقتصادي ، وأن تترك الناس يعملون أحراراً متنافسين ،
يثرى منهم إلى غير حد من شاء ، ويموت جوعاً من لم يتمكنه مواهبه
من الصمود في ميدان المنافسة . وكانت الحجة الأساسية التي أقاموا
عليها نظريتهم أن الطبيعة تعمل لبقاء الأصلح ؛ وأن قياس الصلاحية
هو المقدرة على المنافسة في الحياة . فإذا عجز إنسان أو عجزت طائفة
من الناس عن أن تقف من المنافسة موقف الظافر فعليها أن تدعن
للمهزومة ، وأن تسكتن بالفتات الذي يلقي إليها من جانب الظافرين .

وإذا بلغ من ضعفها أن لانستطيع البقاء ، فذلك الدليل على عدم صلاحيتها له ، ومن الطبيعي إذن أن تندثر وأن تقف .

ظلت هذه النظرية الفردية قائمة متحركة طيلة القرن التاسع عشر . وعلى الرغم من قيام دعامة الاشتراكية لم يستطع هؤلاء الدعاة أن يثبتوا أقدام دعوتهم ، وظلت الفردية الاقتصادية منتصرة في حي النظام السياسي الذي يحى الحرية الفردية ولا يعبا بما سواها . فلما آذن القرن التاسع عشر أن يولى بدأ التفكير الاشتراكي تقوى قوائمه ، وبدأت صيحات الدعاة تدوى فى آذان الشعوب ، وبدأت الطبقات العاملة تشعر بأن لها حقوقا ، وبأنها تستطيع من طريق التكتل أن تبلغ هذه الحقوق ، وبدأ المفكرون الاشتراكيون ينعون على النظام الفردى أنه فى إيمانه بالفرد ينسى الجماعة وينسى الشعب والأمة ، وينادون بأن العدالة الاجتماعية تقتضى توزيع الثمرات التى تهبها الطبيعة للناس جزاء كدهم وعملهم توزيعاً أدنى إلى العدل . وتأثرت الحياة فى بلاد أوروبا المختلفة بهذه الحركة الفكرية . فقامت فى ألمانيا الاشتراكية الديمقراطية وقامت فى فرنسا ألوان مختلفة من الاشتراكية ، وبدأ حزب العمال يقوم فى إنجلترا . وانتشرت تعاليم تولستوى الاشتراكية فى روسيا .

ولست أشك فى أن هذه الحركة الفكرية كانت ذات أثر حاسم فى قيام الحرب العالمية الأولى . فقد شعر غليوم الثانى عامل ألمانيا فى

مستهل هذا القرن العشرين أن الشعب الألماني في حاجة إلى التوسع لتتال الطبقات العاملة فيه من ثمرات كدها ما يرفع مستوى العيش بالنسبة لها ، فإذا لم تجد الوسيلة لذلك عنف النضال بينها وبين أرباب رأس المال فهدد ذلك كيان الدولة بالاضطراب والثورة . أما إذا هي وجدت الوسيلة لذلك ولو خارج الحدود الألمانية فقد وجدت الطمأنينة السبيل إلى البلاد . ولما كانت فرنسا وإنجلترا متحكمتين يومئذ في المستعمرات الإفريقية والآسيوية ، ولم يكن يسيراً أن تنزل أيهما عن شيء منها ، فقد أدت هذه الحالة إلى إعلان الحرب العالمية الأولى وإلى اكتواء العالم بنارها .

كانت روسيا في ذلك الحين تضطرب بالحركة الفكرية التي دعا إليها تولستوى ، وكانت القيصرية الروسية تجمع هذه الحركة بكل ما أوتيت من قوة ، وتنفى القائلين بها في سيبيريا ، أو تضطرم إلى الفرار خارج حدودها . وكان لينين وطائفة معه من مفكرى الروس من هؤلاء الذين نفروا أنفسهم . فلما اندحرت الجيوش الروسية أمام ألمانيا سنة ١٩١٧ ، واضطرت القيصرية الروسية أن تعقد صلح برست ليتوفسك ، شعر لينين وزملاؤه بأن الفرصة سانحة لإقامة النظام الشيوعى على النحو الذى صورده كلل ماركس ، فعادوا إلى روسيا وأشعلوا الثورة فيها وانتصروا وأقاموا النظام السوفيتى الذى تطور شيئاً فشيئاً إلى وضعه الحاضر .

ولم تكن روسيا وحدها هي التي تأثرت بهذه الحركات الفكرية

نتيجة للحرب العالمية الأولى ، بل تأثرت فرنسا وتأثرت إيطاليا وتأثرت إنجلترا ، مع أنها جميعاً خرجت ظافرة من تلك الحرب . وحسبي أن أذكر حزب العمال الذي لم يكن يمثل في البرلمان البريطاني إلى أن بدأت تلك الحرب غير أفراد لا يبلغون عدد أصابع اليدين ، ثم قوى حتى أصبح يهدد حزب المحافظين ، وحتى طغى على حزب الأحرار البريطاني طغياناً ساربه إلى مصيره الحاضر .

وكان طبيعياً أن ترتب هذه النتائج على الحرب العالمية الأولى . فقد شمعت الجماهير الفقيرة التي اشتركت في الحرب في تلك البلاد كلها أنها تحمل من عبء النفاق عن الوطن ما يزيد على ما تحمله طائفة أرباب المال أضعافاً مضاعفة ، فن الطبيعي أن تطمع في حظ من العدل أو فرما كان لها حين كان العالم يرقع في بحبوحه السلام ، وحين كان منطق النظرية الفردية معتمداً على ما يسميه قانون الطبيعة القاسي للأجور ، متناسياً أن هؤلاء الذين يتناولون تلك الأجور من القوة المادية ما يعيش أبناء الوطن جميعاً من كدم ، وما يجعلهم إذا امتنعوا عن العمل يشلون الحركة الاقتصادية ويعرضون النظام القومي كله لنتائج خطيرة .

أما وقد ذكرت ما كان للحركات الفسكزية في الميدان الروحي ، وفي الميدان الاقتصادي ، من أثر في الحياة العامة ، فيجب أن لانسى ما كان لهذه الحركات من أثر في الميدان الاجتماعي . لقد أشرت إلى إلغاء الرق بعد أن ظل نظاماً قائماً في العالم ألوف السنين ، وإلى أن إلغاء هذا

الرق إنما جاء أثراً للحركة الفكرية التي أدت إلى تقرير حقوق الإنسان ، وفي مقدمتها أن الناس يولدون أحراراً ، ويجب أن يظلوا حياتهم أحراراً . لكن الفردية الاقتصادية التي حصرت عمل الحكومات في حدود المحافظة على الأمن ليستمتع كل فرد بحريته مادام لا يعتدى على الحرية المادية لغيره أدت إلى بقاء الطبقات السكادحة ، وهي السواد الأعظم ، في غياهبات الجهل المطبق . فلما بدأت الدعوة للعدالة الاجتماعية ، وبدأت الحركة الفكرية تطالب بأن يتسلح الأفراد جميعاً بالحياة بأسباب المعرفة التي تمكنهم من أن يشقوا طريقهم في الحياة الكريمة ، اعترفت الأمم المتقدمة بحق الأفراد جميعاً في أن ينالوا حظاً من التعليم يؤهلهم لإدراك ما في الحياة من معاني الحق والخير والجمال ، بذلك نهضت الشعوب التي تقرر فيها هذا الحق وقتئذ نهضة قوية ، وبدأ تضامنها يقوى وبدأت تؤدي للحياة الإنسانية في أمم الأرض المختلفة خدمات جليلة .

وكان من أثر هذه الحركة الفكرية في الميدان الاجتماعي أن تطور موقف المرأة من الحياة القومية أضعاف ما تطور موقف الرجل منها . لقد كانت المرأة معتبرة في العصور الوسطى وعاءاً للتناسل ومتاعاً للرجل وعادماً لذيقه . فلما تقرررت الحرية الفردية كان نصيب الرجال منها أوفر أضعافاً من نصيب النساء ، لأن الرجال هم الذين قاموا بالثورة على الماضي . لكن تقدم الزمن أتاح للمرأة أن تكسب حقوقاً انتهت إلى اعتراف ميثاق الأمم المتحدة بالمساواة بين الرجال والنساء في الحقوق كلها . وإذا كان هذا الاعتراف لم يطبق إلى اليوم في بلاد كثيرة فإن

مجرد الاقرار به يعتبر خطوة فسيحة نحو تحقيقه . ربما لا ينتهى ذلك إلى أن تقوم المرأة بالاعمال التى يقوم بها الرجل ، كما أنه محال على الرجل أن يقوم بكثير من الاعمال التى أتاحها الطبيعة للمرأة أن تقوم بها . لكن الذى لا مرية فيه أن هذا الاعتراف فتح أمام المرأة ميادين جديدة فى الحياة . والمرأة وحدها هى القادرة على تكيف الصورة التى تشغل بها هذه الميادين .

وكلنا يعلم أن كل واحدة من هذه الحركات الفكرية وما إليها من مثلها فى ميادين العلم والفن وغيرها لم تكن تنتج آثارها فى يسر على أثر قيامها ، بل كانت تلاقى من المقاومة ما يرددها على أكتافها فى كثير من الأحيان لتتضرر من بعد فتقوم بهجوم جديد تنال فيه حظا كبيرا أو حضا ضئيلا من النجاح . وكذلك أشرت إلى مقاومة القيصرية الروسية للأفكار التحريرية حتى كانت هزيمة روسيا فى الحرب العالمية الاولى وانتقال روسيا السريع من الحكم المطلق إلى الحكم البلشفيكي ثم إلى الحكم البلشفي . وهذا طبعى . وإذا كان انتقال الفرد من الطفولة إلى الصبا إلى المراهقة إلى الشباب يقتضى عشرين سنة أو نحوها فليس كثيرا أن يحتاج انتقال الأمة من طور إلى طور إلى أضعاف هذا الزمن ، إلا أن تكون الأمة من الحيوية بحيث تستطيع أن تسرع الخطى وأن تبلغ فى أعوام ما لا يبلغه غيرها فى عشرات الأعوام .

وأتم تعلمون كما أعلم أن هذه الحركات الفكرية تتفاعل ويتأثر

بعضها ببعض ويحدث تفاعلها في العالم كله أثرًا يختلف قوة وضعفا باختلاف قيمتها ومصدرها . لما أدى التفكير العلمي إلى ازدهار الصناعة في الدول الأوروبية فزادت منتجاتها على الحاجات المحلية ، ففكر سياسة هذه الدول في الوسيلة لتصريف هذه المنتجات وإيجاد أسواق لها . وأدى بهم هذا التفكير إلى التماس الأسواق في الأمم المتخلفة منهم في ميدان الصناعة ، ثم أدى ذلك إلى استثمار هذه الدول . ألم تكن شركة الهند الشرقية شركة بريطانية غايتها تصريف المنتجات الصناعية البريطانية في الهند ، ثم أصبحت هذه الشركة حكومة داخل الحكومة أو الحكومات الهندية ، ثم أصبح الجيش الانجليزي يؤازرها ، ثم انتهت مؤازرته إلى استثمار إنجلترا للهند ، ثم كان ذلك مقدمة السياسة الاستعمارية الأوروبية للأمم الآسيوية والأفريقية . وكذلك تمخضت الحركة الفكرية في الميدان العلمي عن حركة صناعية انقلبت إلى حركة استعمارية خضع العالم لسلطانها طوال القرنين الماضيين .

ورب ضارة نافعة كما يقولون ، فقد تمخضت الحركة الاستعمارية عن الحريين العالميتين الأخيرتين اللتين أنزلتا بالعالم من الكوارث مالم يشهد له العالم مثيلا من قبل ، ثم تمخضت هاتان الحربان عن يقظة الشعوب المستعمرة يقظة أدت بالكثير منها إلى إلقاء نير الاستعمار ، وإلى النهوض تريد الحياة الحرة الكريمة ، وتريد مشاركة أمم الأرض جميعا في النهوض بالإنسانية كلها لتسرع الخطى في طريق التقدم نحو الكمال .

لعل ثم من يسأل : ما بالى لم أشر من الحركات الفكرية التي قامت في هذا الشرق إلا إلى الحركات الروحية التي حدثت في عهد الأنبياء عليهم السلام ، ثم التمس الأمثال للحركات الفكرية في القرون الأخيرة لما حدث في أوروبا . ولا أحسب جوابي على هذا السؤال خافيا . فقد خيم الركود وما يجره الركود في أذياله من الجهل والضعف والفساد على هذا الشرق في القرون الأخيرة ، منذ حكم السلاطين العثمانيون حكم استبداد وطغيان . فلم تؤثر فيها حركة فكرية قوية الاثر تستطيع أن تهتك حجاب هذا الركود وتطرد أمام تيارها الجارف وما تخلف عنه من جراثيم التقاليد الضارة والآراء السقيمة والفساد المذل . ولست أرى إذ أستعيد أمام ذاكرتي ما حدث في منطقتنا هذه من الحركات الفكرية إلا ما قام به السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده في الميدان الديني ، وما قام به قاسم أمين في الميدان الاجتماعي . أما ما سوى ذلك مما حدث فلا يعدو أن يكون حركات مستعارة من الغرب لقيت من المقاومة ما حطمها ، لأن سياسة الاستعمار الغربي كانت حريصة على أن تتحطم . ولولا هذا الحرص لكان لهذه الحركات من الاثر ما يفيد في بناء أمم الشرق أجل فائدة .

أتريدون دليلا على هذا الحرص ؟ إليكم مثلين حدثا في مصر ولعل لها في غير مصر نظائر : قامت في مصر في أوائل هذا القرن العشرين حركة ترمي إلى إنشاء جامعة عليية تنقل إلى مصر ثمرات العلم من مختلف بلاد العالم ، وتمهد السبيل لحركة فكرية في الميدان العلوي .

تقيد مصر وتفيد أمم الشرق العربي كله . ولم يتجه الدعاة إلى هذه الفكرة للحكومة لأنهم كانوا على يقين من أن الحكومة لن تستجيب لهم ، بل لجأوا إلى السراة وكبار الأغنياء يطلبون اليهم التبرع لهذا المشروع الجليل . وكان لورد كرومر معتمد إنجلترا في مصر وصاحب الكلمة النافذة فيها يومئذ ، وكان يرى أن التعليم العالي في هذه البلاد لا يجوز أن يزيد على تزويد الشبان بالعلوم الكافية ليكونوا أدوات طيعة في يد الحكومة إذا هم تولوا وظائفها . لهذا أوحى إلى رجال الحكومة جميعا فطالبوا الأعيان بإنشاء دكتاتيب ، لتعليم القراءة والكتابة وبالتبرع لها حتى يصرفهم عن التبرع لمشروع الجامعة . وكان لهذا العمل أثره . صحيح أن الجامعة قامت رغم ذلك . لكن مواردها المحدودة حالت دون اتوسع فيها بالقدر الذي كان يقصد الدعاة اليها أن يبلغوه ، وكذلك بقيت الفكرة تتعثر حتى استقلت مصر . ثم ضمت الحكومة كلية الآداب الألهية التي أنشئت نواة للجامعة الألهية وأقامت سائر كليات الجامعة .

أما المثل الثاني فتفكير بعض المصريين في أوائل هذا القرن كذلك في إقامة صناعة النسيج في مصر ، هذه الصناعة المازدهرة اليوم ، والتي تكفي مصر حاجاتها الشعبية وتصدر منها إل الخارج ما فاض عن هذه الحاجات . أتعرفون ما قوبل به ذلك التفكير الأول من لدن لورد كرومر . قيل يومئذ إن صناعة النسيج لا تصلح في مصر لأن جو مصر لا يساعد على قيام هذه الصناعة . فلما أراد بعضهم أن يحازف

مع ذلك قيل إن هذه الصناعة إذا قامت وجب أن تدفع مقابل الرسوم الجمركية رسوم إنتاج حتى لا تنافس غيرها . هذا بدلا من مد يد المعونة لصناعة يراد أن تنشأ على نحو ما يحدث في بلاد العالم كلها . كانت سياسة الاستعمار الغربي لإذن حريصة على تحطيم ما تنشأ من أثر الحركات الفكرية ، لو كانت هذه الحركات مستمدة من الدول المستعمرة نفسها . وقد أدى هذا التفكير الاستعماري إلى تقييده الطبيعية المحتومة . زاد المראה بين الأمم الحاكمة والأمم المحكومة على النحو الذي زاد به المראה بين الأرقاء والسادة في العصور الوسطى ، ودفع إلى نفوس الأمم المحكومة بأن لها من الحق في الحياة وفي الحرية ما للأمم الحاكمة . ولذلك قامت كلها في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، تناضل في سبيل حريتها واستقلالها . وهذا النضال هو الذي أدى بالسياسة البريطانية من ذلك الحين لتقدر المصير ولتعترف لطائفة من الأمم التي كانت تستعمرها بحقها في الحياة الحرة ، وأن تكون في نفس الوقت جزءاً من الكونولك البريطاني . لكن هذا التفكير اقتصر يومئذ على بريطانيا ، واقتصر في بريطانيا على الشعوب القادرة على أن تأخذ حقها بيدها ، سواء من طريق القوة والاقدار ، أو من طريق المقاومة السلبية والعصيان المدني . فأما الأمم التي استطاعت بريطانيا أن تنهض فيها النزعة الاستقلالية فقد استبقتها في مركز المستعمرات ، وتركها لذلك تقاوم بكل وسائلها مذلة الخضوع لحكم الغير على أنه رق للأمم أشد إهانة من رق الأفراد .

ليس من حق ، وقد سردت من الحركات الفكرية ما اتصل بالشئون الروحية ، وبالشئون العلمية ، وبالشئون الاقتصادية ، وببعض الشئون السياسية ، أن أغفل من هذه الحركات ما كان عظيم الأثر في تهذيب النفس الإنسانية . أقصد الحركات الفلسفية ، والحركات الأدبية ، والحركات الفنية . فاقام من حركات فكرية في هذه الميادين قد صقل الحياة الإنسانية وجعلها أعذب مذاقاً ، وجعل متاعنا بها أبهى وأرقى ، وإن عنفت في كثير من الأحيان رفته ، وإن بلغ رقيه في بعض الأحيان حداً أذهل عقولا لا تستطيع متابعة هذا الرقي والسمو إلى عليا درجاته .

والواقع أن متاعنا الحق بالحياة أكثر اتصالاً بهذه الألوان من الحركات الفكرية منه بسائرها ، وإن كنا في حاجة إلى المتاع بنتائج الحركات الفكرية في الشئون التي سبق لي ذكرها لنستطيع تذوق هذه الألوان الدقيقة الرقيقة السامية من التفكير الفلسفي والأدبي والفني .

وإنى لأحاول أن أتصور ما تكونه الحياة لولا الفلاسفة والشعراء والكتاب وأرباب الفنون الجميلة من موسيقيين ومصورين ومن إليهم ، فأشعر أنا لولاهم لكنا أقرب إلى حال الحمجمة الأولى وإن بلغنا من السمو الروحي ومن الحرية السياسية ومن الرخاء الاقتصادي أعظم مبلغ . قصوروا معي حال البلاد العربية في نهضة الروحية القوية التي أعقبت رسالة النبي العربي عليه السلام ، لولم يكن فيها هؤلاء الشعراء والأدباء الذين أشاعوا في جوها من رقيق العواطف وجميل الصور والمعاني

مالا نزال تتغنى به إلى اليوم . ولقد سئل أحد مفكرى الانجليز يوما : من أعظم ما تعز به انجلترا؟ فكان جوابه : شيكسبير والامبراطورية . وهل بقى من أثر الامبراطورية الرومانية شئ؟ أجل خلودا على الدهر من آيات مارك أوريل ولوحات رفاتيل ومكلينج ، ومن موسيقى فردى وأضرابه ، وهل تعز البلاد الجرمانية بشئ ما تعز بأسماء بهوفن وموزار وفاجر بمن لا نزال الحانهم الموسيقية الشجية تشنف آذان العالم ، ومن أدب جيتى وفلسفة نيتشه بمن لا نزال كتبهم تهز العقول والعواطف . أفأستطيع وهذه هى الحال أن أغفل فى حديثى إليكم هذه الحركات الفكرية الإنسانية البالغة غاية السمو .

إننى من أشد الناس إيمانا بأن حضارة الأمم لا تقاس بقوتها الحربية ولا بتقدمها الصناعى بمقدار ما تقاس برقيها فى العلوم والآداب والفنون ، وبأن القوة الحربية والتقدم المادى إنما يستمدان من سليقتنا الحيوانية فى المحافظة على الحياة ، بينما بصر الرقى فى العلوم والآداب والفنون حيويقتنا الإنسانية التى لا شريك فيها للإنسان من سائر الحيوان . فهذه العلوم والآداب والفنون تخاطب العقل والماعطفة والشعور وتدفعها إلى السمو فى مدارج البشرية العليا حيث يتجلى النور الإلهى فى بهائه وسنائه وضاء لآلاء إيقربنا من مراتب الكمال ويرينا نور الحق فى جلال روعته التى تأخذ بالقلوب والأبصار .

والأمم التى ازدهرت فيها العلوم والآداب والفنون هى التى

استطاعت أن تضع في بناء الإنسانية كلها ، لافى بنائها هي وحدها ،
لبناات متينة قام البناء الإنسانى فيها فى حقب التاريخ كلها على
أساس متين .

ولانه لمن حسن الطالع ، أن تكون الحركات الفكرية فى ميادين
العلوم والآداب والفنون قد بلغت فى عصرنا الحاضر إلى حيث قربت
بين الأمم ووصلت بينها بأوثق الوشائج . لما حضرت إلى مدينتكم
الشهباء من إحدى وعشرين سنة حضرت إليها من لبنان ، ومع ذلك
تقتضانى الحضور ساعات طوالا اضطررت معها إلى المبيت فى أثناء
الطريق بطرابلس وباللاذقية . واليوم أحضر اليكم من مصر فى ثلاث
ساعات بالطائرة . ولولا إصرار صديق سامى الكيالى لحاطبكم عن
طريق الإذاعة وأنا مقيم بمصر ، ولا ستمتعم إلى كما تستمعون اليوم ،
وكما استمع أهلى وأصدقائى إلى إذاعة لى من الهند حيث كنت فى يناير
الماضى . وأنتم تسمعون حين مقامكم بمنازلكم إذاعات أوروبا وأمريكا
تقفون منها على أنبائها وعلى علومها وآدابها وفنونها . وأحسبنا عما
غريب سنشهد عن طريق التلفزيون أولئك الذين يحدثوننا أو يشنفون
بأغانيهم أو بموسيقاهم آذاننا وإن بعدوا عنا مئات الأميال بل
ألفها . ومن يدرى ، فلعل العلم يزيد العالم قربا بعضه من بعض
فلا يكتفى بالإناء المسافات التى تفصل بين الأمكنة ، بل يتغلب كذلك
على الزمان فيجعلنا قادرين على أن نعيش مع أجدادنا ومع حفدتنا .
ربو منذ تتحقق وحدة الوجود تحققا ماديا ، ولا تكون فكرة
عقلية وكفى .

لا أراى بحاجة إلى أن أتص عليكم ما كان لهذه الحركات الفكرية من أثر فى بناء الأمم التى قامت فيها بعد الذى قدمته فى أول هذا الحديث . ولا يخفى على أحد ما كان للحركات الفكرية السياسية من أثر فى فرنسا حين قامت الثورة الفرنسية الكبرى ، وفى روسيا حين زالت القيصرية لتحل محلها البلشفية ، وفى إنجلترا حين قامت ثورتها الكبرى فى القرن السابع عشر فأكرمت ملوكها على الاعتراف بحقوق الشعب ، وفى أمريكا حين قام واشنطن على رأس المحاربين فى سبيل الاستقلال ، وفى الهند حين تولى غاندى وأعوانه قيادة حركة العصيان المدنى وعدم التعاون فى غير عنف ، وفى غير هذه من الأمم الغربية والشرقية التى ناضلت فى سبيل الحرية الفردية أو الحرية القومية . كما لا يخفى على أحد ما كان للحركات الفكرية الاقتصادية والصناعية من أثر رخاء الأمم وفى توزيع الثروات توزيعاً يتفق مع موجب العدالة الاجتماعية . ونحن نعرف كيف ارتقت الحركات الفكرية فى ميادين العلم والأدب والفنون بالشعوب التى ازدهرت فيها ، فضلاً عن ذلك فإن الحركات الفكرية يأخذ بعضها برقاب بعض ، فإذا قامت حركة روحية أو حركة عليية عاصرتها وسابرتها حركة سياسية وحركة اقتصادية وحركة عليية أو أدبية أو فنية . ذلك بأن هذه الحركات الفكرية تهز الأمم فتوقظها من سباتها ، فإذا استيقظت فشطت كل عناصرها واندفعت تستبق تريد كل واحدة منها أن تبلغ الكمال .

ومهما وقف العوائق فى سبيل هذه الحركات المتدافعة فإنها تنتهى

بالتغلب على كل عائق ، شأنها شأن الماء إن حبسته تجمع حتى يحطم
السد الذي يحول دون اندفاعه ، أو يطفو فوق هذا السد ثم يتخطاه
غير عابئ به .

كثيراً ما قامت هذه الحركات الفكرية حين كانت القيود مفروضة
على المفكرين في التعبير عن أفكارهم . ففيما قبل الثورة الفرنسية
بقليل كان بعض المفكرين والكتاب في فرنسا لا يستطيعون أن
ينشروا كتبهم في البلاد الفرنسية ، فكانوا يضطرون للذهاب إلى
هولاندا لطبعها هناك . وفيما قبل ذلك لقي المفكرون والعلماء الذين
قالوا بكروية الأرض ألواناً من الإرهاق قل أن يحتملها غيرهم .

وسجلات التاريخ حافلة بالأدلة على أن الحركات الفكرية إلا يمكن
حبسها ، فإن هي حبست زمناً فلتخرج بعده من محبسها أعظم أيداً
وأقوى سلطاناً ، وليكون لها من الأثر المحسن في حياة الأمة وفي
بنائها ما يسلك الذين حبسوها من قبل في سلك الطغاة والأئمة الذين
يذكروهم التاريخ بأسوأ ما يذكر به إنسان .

لهذا اقتنعت الأمم المتحضرة كلها بأن الحرية الفكرية وحرية التعبير
هي أقدس ما يجب الدفاع عنه . ولعل قوة الحركات الفكرية على تحطيم
كل عائق يقف في سبيلها لم تكن الدافع الوحيد لهذا الاقتناع الذي
بلغ حد الإيمان . بل لعل ما كان لهذه الحركة من أثر في رقي الإنسانية
إلى مدارج قد كان أبلغ حجة في هذا الاقتناع وهذا الإيمان . فقد
تبينت هذه الأمم أن تاريخ التقدم الإنساني هو تاريخ هذه الحركات

الفكرية ، وأن حرية التفكير والتعبير هما اللذان كفلا لهذه الحركات أن تزدهر وتقوى ، وكفلا لذلك عزة الأمم وسعادتها ، فأيقنت بأن كل قيد من تشريع أو من بطش أو إرهاب يقف في سبيل هذه الحرية يضر بالامة أخش الضرر ، ولذلك جعلت لها من القدسية في دساتيرها وقوانينها ما يرد عنها كل غائلة ؛ ويدفع عنها كل عادية ، لتتوثق من الثمرات ما يدفع الإنسانية كلها نحو السكال ، وهو غايتنا جميعاً ، وغاية كل من يدرك المعنى الصحيح لكلمة الإنسانية .

لقد طوفت بكم في آفاق شتى من تاريخ الحركات الفكرية في العالم ، ولم أقف مع ذلك إلا اماما عند كل واحدة منها . فاعذروني إن كنت قد أطلت عليكم أو أملتكم . وغاية ما أرجو ، أن يكون لنا ، نحن أبناء هذا الشرق ، عظة وعبرة من هذا التاريخ . فمستقبل الإنسانية كلها ، لا مستقبلنا وحدنا ، يتطلع اليوم إلينا يريد أن يعرف أين اتجاهنا . ومن لم يعرف الماضي ايعتبر به لم يعرف كيف يصور طريقه للمستقبل . وحاشا أن يكون ذلك شأننا .

وإذا رجعت إلى نهضة الشرق من بضع عشرات من السنين ، وجدت مؤلفات ، ووجدت نزعة إلى حرية الفكر ، لكنك لا تجد لها صريحة صراحة النهضة الحاضرة ، ولن تجد لها صادرة عن مثل الإيمان العميق التي ترتكز النهضة الحاضرة عليها . وهذه ظاهرة لها معناها ولها أثرها . فمعناها أنه إذا كان للقديم مكانته واحترامه ، فإنه قد فسد فسادا أصبح لا يمكن معه البناء فوقه ، بل لا بد من بناء جديد .

ولإمكان هذا البناء الجديد يجب ألا يكون القديم غلا في أعناق العقول
وحجر عثرة في سبيل التفكير . وإذن فقد ملت مصر ومل الشرق
الإقامة في الأطلال الخربة المختلفة عن الماضي ، وانطلقا يبحثان جميعا
عن حضارة المستقبل . وقد سئمت مصر وسئم الشرق حكم الجامدين
من عباد هذه الأطلال الذين ينعبون من خلالها ، كما تنعب حشرات
الأشجار التي تنمو في المقابر . وقد اعتزمت مصر واعتزم الشرق إقامة
حضارة جديدة تكون بعثا لهما بعد هذه الرقعة الطويلة التي رقداهما
منذ القرن الخامس عشر .

هذه الدلالة الواضحة لتلك المظاهر التي أشرنا إليها موجودة في
غير الكتب وفي غير المجلات والصحف ، هي موجودة في هذه النهضة
العظيمة التي نهضتها مصر ونهضها الشرق في مختلف الميادين .

وهذا البعث الذي تدل عليه هذه الدلائل لا يقف عند طائفة
المستشرقين من أهل الشرق ، بل هو قد عم الطوائف جميعا . وبحسبك
أن تنظر إلى عباد الماضي أنفسهم لترى ذلك واضحا في تصرفاتهم .
فهم لا يسلكون أبناهم سيلهم ، بل يعدلون بهم إلى السبيل الذي
تسير فيه النهضة الحاضرة ويوجهونهم نحو هذه الوجهة التي يزعم
بعضهم أنه يحاربها . ولو أنه كان مؤمنا حقا بما يقول ، ولم يكن
دفاعه مجرد تمويه يستر به عجزه وضعفه لرى أولاده تربيتهم
وسلكهم في سبيله . أما أن يوجههم في السبيل الأخرى ، وهو يعلم
تمام العلم أنهم سينتهون إلى محاربة مذهبه ، وإلى تقويض الأطلال

التي ينبع هو من خلاها ، ثم يزعم بعد ذلك أن هذه الأطلال هي السياج الحامي للجماعة ، فذلك هو الرياء مع النفس ومع الناس رياء لا يتفق لرجل تعمر قلبه ذرة من الإيمان برأيه .

ومهما يقل هؤلاء إنهم إنما يفعلون ما يفعلون من ذلك اندفاعاً مع التيار ، أو اكفالة خير أسباب العيش لأبنائهم ، فإن قلوبهم مردود عليهم . بل فيه ما يدل على أنهم أصبحوا زوائد متخلفة لاجابة بالناس إليها . ذلك أن التيار إذا جرف ، وكنت أنت مؤمناً حقاً بعن عقيدة وإيمان بأنه تيار ضار ، فأول واجب عليك أن تقاومه بكل ما لديك من وسائل ، وأن لا تقدم له من الأسباب ما يزيد قوة واندفاعاً . خير أسباب العيش ليس وحده سبباً كافياً ليجازف الرجل بأبنائه وبالأعزة عليه في سبيل يعتقد أنه أذى وشر . فليس بمعقول مطلقاً أنك إذا رأيت السرقة أو النصب أو غيرهما من الوسائل الدون رائجة في بلد ، وتكسب المتسم بها من أسباب العيش مالا يكسب غيره ، زججت بأبنائك ومن تعمل في غمار هذه الطوائف لتكفل لهم خير أسباب العيش . . فالحقيقة إذن أن هؤلاء سكان الأطلال الخربة ضعف لإيمانهم وتحطمت عقائدهم بأن ما ينصحن الناس به هو الخير ، وهم لذلك لا يبتغونه لأبنائهم . ولو أنهم قد بقي لهم من مرونة الذهن ما يمكنهم من تغيير عقليتهم وتحويل أذهانهم لما ترددوا لحظة ، ولا تقلبوا إلى هذا الجانب الذي يعمل الكل فيه لتوطيد أسباب بعث الحضارة في الشرق وتدعيمها .

ثم إن هذا البحث قد تناول طوائف الأمة غير المستنيرة بمقدار

ما تناول طوائف الأمة المستنيرة إن لم يكن بمقدار أعظم وأقوى .
وهؤلاء الذين هم أشد الطبقات فقراً يقتنعون من أسباب قوتهم
للاندماج في هذه النهضة بأنفسهم إذ استطاعوا ، وبأبنائهم إن لم تمكنهم
مشاغل العيش والحياة . فلم تفتح مدرسة ليلية في قرية من القرى
حتى اكتظت بالفلاحين المقبلين على التعليم فيها . وقد ضاقت مدارس
الأولاد والبنات بمن فيها في المدائن والقرى . وضائق الحكومة
والهيئات لإنشاء موائل لئلا أقصر من إقبال الناس على هذه الموائل
بكثير . وهذا الإقبال هو في الواقع إقبال على الحضارة الجديدة التي
يعمل العاملون لبثها في الشرق بكل ما أوتوا من قوة .

وهذا السعي الخيث في سبيل حرية الفكر يكفل لهذا البعث
أن يؤتي خير الثمرات وينتج أصلح النتائج ؛ ذلك بأن كل حضارة
يرجى تجديدها لا يمكن أن تتجدد بمجرد النقل عن حضارة أخرى ،
كما أنها لا يستطاع بعثها بالوقوف عند الأساليب القديمة التي بليت
وأصبحت لا تتحمل مطالب الجماعة الجديدة . وقد كان الناس إلى زمن
يتحدثون في سبيل تحضير الشرق وبعثه عن الأخذ من الحضارة
الغربية بما يصلح للشرق وترك ما لا يصلح له . وما يصلح وما لا يصلح
تعبير مرن مطاط يمكن لكل فرد أن يختلف مع الفرد الآخر فيه .
وما دامت الجماعة ضعيفة فهي تضطرب كل يوم إلى ناحية ما يقول به
فرد من الأفراد . ولذلك نسي الناس هذه الفكرة القديمة واتجهوا
إلى ناحية أخرى تظاهر جلياً في مناحي بحث الباحثين وتفكير
المفكرين . هذه الفكرة الجديدة هي أن كل حضارة لا تتفق وطبائع

العمران في الناحية التي تقوم فيها الحضارة مقضى عليها بالفشل
لأحالة . وأنت إذا استطعت أن تقر في إنجلترا مثلاً صورة من صور
الحضارة أخاذة بالنظر واللب فقد يستحيل عليك أن تقر هذه
الصورة في مصر أو في الشام أو العراق ، لأن طبائع العمران في هذه
النواحي تختلف اختلافاً جوهرياً عنها في إنجلترا . وإذن يجب أن
تتفق الحضارة المراد بها مع هذه الطبائع التي شكلت حضارات هذه
الممالك والأمم في الماضي . وإذن فكل حضارة يراد توطيدها يجب أن
تتصل بالماضي اتصالاً وثيقاً ، ويجب أن يكون ما يظم إليها من جديد
قابلاً لأن يظهر فيها ولأن يثمر .

ووسيلة معرفة هذه الطبائع تحرير الأفكار سلفاً قبل البحث
والنظر فيما أمامها . فهذه الطبائع ليست غريبة عنا ، بل هي طبائعا ، وهي
التي شكلت صباها ، وهي التي يحمي وراءها سكان أطلال الماضي . فإذا
نحن نظرنا إليها نظرة مؤمن بها لم نستطع أن نجردها عما أحاط بها من
أساطيرها ووثنياتها . فأما إن حررنا أفكارنا بحيث صارت صالحة
لبحثها والتنقيب فيها ومعرفة مبلغها عند صفائها من الشوائب من
التأثير في الجماعات التي تخضع لها ، كان لنا بعد ذلك أن نتقن عنها الأساطير
والوثنيات التي علق بها . وأن نقيم على أساسها صافية صريحة صرح
الحضارة الجديدة التي نرجو بعثها ، وهذه الطبائع تصبح هي المنبع
للغضب الخصب الذي تنبعث منه الحضارة .

والجهاد في سبيل تحرير الفكر جهاد مضن في كل العصور التي

تسبق التحرير بالفعل، أليس هو إزالة هذه الأستار الكشيفة المبهودة،
أستار الجهل أو الضعف والرياء . أليس هو حرب الجامدين في
أرذاقهم وأقواتهم حربا يستमितون أثمانها في سبيل الدفاع عن أنفسهم.
إن ما أورده صاحبنا ككتابي حرية الفكر والجمعيات السرية من توار يخ
الثورات والمجازر والمحاكات والتعذيب، وما صوراء من ألوف مانت
ضحايا التعصب الأعشى، ومن رجال ذوى أفكار سامية سيقوا إلى
المذاب وإلى الموت بما تشيب من هوله الرؤوس، لكنه مع ذلك الدية
المحتومة للجهاد في سبيل تحرير الفكر . ولقد يكون من حسن حظ
الشرق اليوم أن سادت فيه الأفكار الحرة في العصور الأخيرة رويدا
رويدا، وأن أصبح النضال في سبيل هذه الحرية كما كان في العصور القديمة.
وإن كان مع ذلك نضالا قاسيا بما جبر من حرب على الرزق والحرية .
لكن هذا الجهاد قد أثمر إلى اليوم ثمرات توشك أن تجعلنا نفتقد أن
أنصار الحرية أصبحوا على أبواب الفوز إن لم يكن الفوز قد تم لهم
بالفعل . كما أن النهضة التي وصفنا والتي عمت كل طوائف أمم الشرق
وسرت عداوها إلى أشد الناس جهودا كقيلة بأن تقضى على كل محاولة
لمحاربة حرية الفكر .

الحرب وحركة التجديد في الشرق

عجيب ما أحدثت الحرب من انقلاب ! فبينما نرى الذين أثاروها من أهل أوروبا قد اكتسبوا بنارها وأحرقهم لظاها ، فأفسد عليهم ما كانوا يتمتعون به في جنة الحياة ، واضطروهم اليوم إلى جهاد أي جهاد لاستعادة هذا النعيم المذهب ، نرى الذين كان يرتجيمهم أهل أوروبا مغنا للحرب من أمم الشرق قد نشطوا من خول وتحركوا من جهود ، وتطلعوا من مرافد كان يحسبها غيرهم مدافن الشرق الأبدية ، ينهضون إلى بعث يضارع بعث أوروبا على أثر العصور الوسطى ، ويضارع بعث هذه الأمم الشرقية نفسها إثر قيام الإسلام . فكأنما كانت الحرب محاريت ومناجل دفعتها يد المقادير في الغرب والشرق ، فكان أمامها في الغرب حداق وأعنان وجنات ذات عيون لم تلبث أمام هذه المناجل والمحاريت أن تجث من الأرض وأن تقع على الجانبين ، فذبل منها ما ذبل وتداعى ما تداعى وبقي البعض وله بالأرض اتصال هو الذي يسمح بالرجاء اليوم في استعادة النعيم المذهب ، وكان أمامها في الشرق أرض جامدة تلبت فوقها حشائش وأعشاب جافة لم تلبث أمام مناجل القدر ومحاريت أن تطايرت ، وأن شقت الأرض ، وأن فجرت فيها العيون فإذا قوة الإنبات والإثمار تنشط من جديد ، وإذا الجذور القديمة التي ضعفت عن أن تجدد لها

مخرجاً خلال جمود الأرض قد وجدت سبيلها إلى النور والهواء والحياة ، وإذا بذور وفروع جديدة من دوحات الغرب التي حطمت تطامم هذه البذور والفروع القديمة لتعود أنضرم ما كانت ، ولتبثع الشرق إلى حياة المجد والمظنة كرة أخرى .

قلبت مناجل الحرب ومحاربه الطبقة الجامدة من أرض الشرق ، هذه الطبقة التي تكونت خلال عصور وعصور بفعل الظلم والإرهاق والاستبداد خبست عن أهل الشرق نور الحياة وقبرتهم مقيدون في أصناد من الأوهام والأباطيل ، لا تنفذ إليهم من شمس الحياة الإنسانية حرارة تصهر الطبقة الجلينة فتذيقها قنطلق الأسرى من إسامهم . وخلال هذه العصور والأجيال المتعاقبة ألف الشرقيون أغلاهم وما هم فيه من ظلمات حتى حسبوه الحياة والنعيم . ولم لا ؟ أليس كل شعاع يبرق خلال الظلة الداجنة تعشى له الأبصار وتفزع منه ولا تألفه إلا إذا ثبت واطمأن قاطمات له ولم يكن يحرق حجب طبقات الظلم والاستبداد الكثيفة إلا بروق خاطفه تجيء في فترات متباعدة فلا يكون من أثرها على المصفدين في الأغلال إلا أن تهر من غير أن تضيء . لذلك اطمأن الشرق إلى حجبه فركدت عواطف أهله رجحت قرائعهم واضطرب حسهم ، بل فقد ما فيهم من الفرائز الحيوانية الأولى . فلما آن للحرب أن ترفع عنهم الطبقة المتحجرة من غير أن أطلقهم من أغلاهم . ثم لما ألفت حيوتهم النور ونفوسهم الحياة هاجوا واضطربوا وثاروا ومايزالون إلى اليوم في ثورتهم وعياهم .

وهذا أول البحث ومقدمة النور والحياة في الشرق . وهذا بدء
عود الشرق إلى مجده وعظمته . ولما كان الطغاة والمستبدون إنما أذلوا
الشرق وسدلوا عليه حجاباً من الظلمة تحجب إلى الطبقة القاسية التي
أشرنا إليها بموازرة طوائف أنصار الجور في التفكير والحس
والعاطفة ، لذلك رأيت الثورة التي بدأت سياسية بحجة على أثر الحرب
— لأنها كانت متأثرة بمطامع الذين أعلنوا الحرب وبما أعلنوا من مبادئ
سياسية — رأيتها بعد أن ألفت أهل الشرق النور الذي تكشف عنه
حجب الماضي ، تناولت هذا الجور في التفكير وفي الحس وفي
العاطفة ، وجعلت من أنصاره خصماً يجب القضاء عليه ، أو إخضاعه . كما
يجب القضاء على المتحكمين السياسيين وإحلال مبدأ التضامن في العلاقات
الدولية مكان مبدأ الاستعمار والعسف . وليست الجهود التي توجه
لمحاربة الجور دون الجهود التي توجه لمحاربة الاستعمار والاستبداد ؛
ذلك بأن الجور هو الذي مكن في الماضي للمستبدين والمستعمرين ، وهو
الذي يعد اليوم في أمل من لا يزال له منهم أمل أن يحكم أمم الشرق
بالسيف والنار أو بالخدعة والتفريعة . فإذا قضى على الجامدين ، أو إذا
هم ذلوا وخضعوا ، رأى المتعسفون في الحكم أن لم يبق لهم إلى العنف
والعسف سبيل ؛ لأن الحرية الغالية تطفئ على كل عنف وعسف ،
يجلوا عن أماكنهم جلاءً أخيراً ونزلوا عن عتيق مبادئهم ليعتبقوا
مبدأ التعاون والتضامن في سبيل الحرية والحق .

فما نراه اليوم من نضال بين القديم والحديث في اللغة والآداب ،
وما نراه من دعوة إلى التجديد في العلم والفكر ، وما نلسه من اندفاع

إلى الحرية في الحبس والعاطفة وفي الرأي وإبدائه ، وما نشهده من محاولات جريئة للقضاء على كل آثار الجلود الماضي في الصلات الاجتماعية كحجاب المرأة وكنظام الطوائف بين الرجال ، وهذه النزعة الطموح إلى ناحية الفن الجميل في مختلف صورده — هذه المظاهر التي نراها للشرق في طور بعثه ليست إلا آثار الثورة على جمود الماضي العتيق وعلى عسف الحاضر وما يؤيد هذا العسف من استبداد واستعمار .

وهذه النهضة وهذه الثورة لاشك بالغة غايتها ، محققة للشرق بعثاً مجيداً . ذلك بأن النفوس الشرقية التي كانت حبيسة في ظلم الجلود وغيابات الظلم ، والتي ضعفت لذلك فيها أسباب العزيمة والنشاط ، قد شعرت بهذه الأسباب تعاودها مع النور الجديد كما رأت إبان الحرب وعلى أثرها أن هؤلاء الغربيين التي كانت تنظر لهم فيما مضى كأنهم آلهة الفكر والنظر والإبداع والاختراع لم يكونوا آلهة إلا لأنهم كانوا أحراراً ، وأن الشرق لم يعيدهم إلا لأن الجلود أقعده حريته . أما وقد تحطمت قيود الجلود فقد آن لأصفاد الاستعباد والاستعمار أن تتحطم هي الأخرى ، وأن للشرقيين أن يكونوا آلهة كالغربيين أو أن يكون الغربيون أناساً كالشرقيين سواء بسواء ، والشرق يخطو إلى هذه الغاية بخطى الجبارة ، لأنه وقد رأى ميادين العمل انفسحت أمامه ، ورأى عقله وذكائه تحرراً ، لم يبق ما يعوقه عن العمل بكل ما أوتي في العقل والعاطفة والحسن وفي البدن أيضاً من قوة ونشاط . ومن عمل يستحق أجر عمله وحصل عليه وإن يسلبه منه سالب مادام

يعتزم الاحتفاظ به مستعداً لدفع من يريد العدوان عليه بكل ما أوتي من قوة بدنية وعقلية .

وهذه المرتبة السامية التي يخطو الشرق نحوها ولا تخامره ريبة في قرب دركها هي التي تحفز من ألفت عليهم المقادير بعبء هذا البعث وتجعلهم يرون في كل تضحية يتقدمون بها كسباً جديداً دونه كل كسب . أرايت إلى هذا الذي يجاهد في سبيل حرية الفكر كيف يجاربه الجامدون وكيف يعملون بكل ما أوتوا من قوة ليحرموه من رزق الحياة ، بل من الحياة نفسها ؟ أرايت إليه يستهين بما يستطيع خصومه أن يبلغوه منه ولا يتردد لحظة في مساجلتهم الحرب واثماً من أنه سينتهى إلى الظفر وسيلقي بهم تحت أقدامه أذلة صاغرين ؟ ثم أرايت إلى هذا الشخص الذي لا يحفل بحكم الجمهور ولا بزيارته بفن من الفنون فيزدري الجمهور ليعلى مكانة هذا الفن ويواصل السنين تباعاً يمانى من ألم الحرمان المادى ما كان في غنى عنه لو أنه جارى الجمهور وخضع لأهواء الجامدين ؟ وهل رأيت لأبطال النهضة النسوية يريدون أن يحرروا نصف الإنسانية تحريراً عملياً من إسار الذل ويعيشوا إلى العالم من نشاط العواطف الحية السامية ما يضاعف العالم نشاطاً وسمو عاطفة ، غير آبهين لما يقوله الجامدون عنهم ، ولما يجاهدون في سبيل حرمانهم وما يصلون إليه أحياناً من نصر مؤقت في هذا الحرمان المادى ؟ أرايت إلى الذين يصحون في سبيل النهضة بالشرق إلى المراتب الإنسانية السامية إنهم ليجدون في تضحياتهم لذة معنوية دونها كل لذائذ الحياة الجامدة . وما المال ، وما الألقاب وما المناصب إلى جانب رضا النفس .

وطمأنينتها إلى أداء واجبها السامى للإنسانية . إن قلب الإنسان
لأكثر أعضائه بضعاً وأدقها حساً وأكثرها تعرضاً لسكل ما يصيب
سائر الجسم من آلام ، وهو مع ذلك أشرف الأعضاء وأسناها لأنه
هو الذى ينظم فيها الحياة ويجعلها — ما دام هو سليماً — تتذوقها على
خير ما تمكنها قواها الباقية .

والغبطة النفسية التى تنسى صاحبها آلام البدن وحرمانه ، واللذة
المعنوية التى تذيب العذاب المادى فلا يشعر به صاحبه ، هذان هما دعامة
الإيمان الذى يحرك الأجيال ويدك الأطوار ، وهذان هما اللذان كانا
في تاريخ الأمم المحرك والدافع إلى المجد والحضارة . استطاع أصحابهما
في كل عصر نجموا فيه أن يتشكّلوا أهم الفارقة في عبادة المادة الجامدة
عن إدراكها ، الحق والجمال والحرية . وهما اليوم متوافران في الشرق
بما لم يتوافرا فيه منذ قرون . وهما يسيران جماهير مسحورة بأصحابهما ،
وإن وجدت فيهم أكثر الاحيان خوارج على ما قدسته القرون ، ثواراً
على ما شادت به يد الظلم والاستعباد من هياكل الوهم ومعايد الأباطيل .

نعم إن جماهير الشرق لتسير اليوم مسحورة وراء دعاة الحق والجمال
والحرية وإن أشعرتها غرائزها المكسوبة أنهم ثوار وخوارج لأن
روح الثورة والخروج قد انسكبت في قرارة روح هذه الجماهير نفسها ،
فهي قد رأت بعينها ، بعد ما أزاحت الحرب طبقات الجلود المتحجرة ،
أملا في حياة جديدة . ولكن : ما هي هذه الحياة الجديدة ؟ وكيف
يتحقق هذا الأمل ؟ إن أصحاب الرأي أيام الجلود لن يكونوا دعاة

الحياة الجديدة ولا يحقق الأمل الإنسانى الأسمى . هذا أمر تشعر به الجماهير شعوراً صادقاً . وهى لذلك قد تخلت عن هؤلاء الجامدين . وإن كانت ما تزال آخذة بعمالهم لأنها لما تجد فى الجديد ما يحل محلها وينظم شئون العيش والحياة تنظيمًا يكفل الطمأنينة الواعدة المستريحة . لكن الجديد يجب أن يقيم قواعد مكان ما انهار وتداعى . فلننظر نحن الجماهير بعطف يشوبه الحذر إلى كل الدعاة للتجديد ، فنأفلح منهم تبعناه إلى مكانة الحكم وقبائنا من جديده ما تسيغه عواطفنا وما يتفق وتراث أسلافنا الأجداد .

نفوس طامحة إلى الحرية تستعذب فى سبيل الحق والجمال كل تضحية وتندفع مؤمنة بما ألقى عليها مفادير هذا العصر الحاضر من رسالة . وجماهير شعرت بما خلف الماضى وقد أصبح خرائب تلجأ إليها قهراً وكرها ، لأنها لما تطلعت إلى بناء جديد أقيم . وبيئة مؤانية لهذه النهضة مؤيدة هذا البعث أنشأتها الحرب وقدسها الدعوة إلى تحطيم الاستعمار والظلم . هذه هى أدوات الشرق فى طور بعثه . وهى أدوات كافية كل الكفاية ليتم هذا البعث ولتقوم على أثره حضارة قوية تزحج الاستبداد والاستعمار جميعاً عن كواهل أمم الشرق . وما دامت هذه الأدوات تعمل ، ووفقة فستصل من البعث إلى غايته .

وأكبر يقيننا أنها تعمل وستعمل موفقة . فهذه هى الجهود الجسام تبذل لكشف كل ناحية من النواحي الإنسانية وتخليصها من رق جمود الماضى وبعثها حية تبتغى ما استطاع من السكال . وهذه الدعوة إلى

التجديد وإلى الحرية في كل شيء ، وهذا القبول الحسن من جانب الجماهير لتلك الدعوة ، ليس إلا مقدمة لهذا الكشف في النواحي التي ما تزال بحاجة إلى الجهاد . انظر إلى جانب الفن الجميل ! لم يكن يعرف أهل الشرق من أمره شيئاً حتى أيام الحرب ، ولم يكونوا يحلبون بفض جميل شرقى أو منسوب إلى أمة من أمم الشرق ، وكان المتقدمون إلى ناحية الحضارة منهم يقفون عند الإعجاب بما تنتج حضارة الغرب من آثار الفن نظرة ازدراء وتحقير ويعتبرونه عملاً تافهاً إن لم يكن عملاً محرماً . أما اليوم فالجمهور يتطلع بعين المطف الكبير إلى ما يبذل من الجهود لإحياء الفن الشرقى والتقدم به لمجاراة حضارة العصر الحاضر . فالشعر والنحت والتصوير والنقش وما إلى هذه الفنون مما كان بعضه باقياً عندما رسم العرب له من خطى ، والبعض الآخر موسوماً بميسم الإثم ، أصبح الشكل ينظر اليوم إليها يريد بحثاً في صورة شرقية جديدة تتفق والبعث النفسى العام الذى تهتز به أرجاء الشرق جميعاً . والفن الجميل ثمرة الحضارة ، بل هو رحيق هذه الثرة ، فالتطلع إليه ورجاء النجاح فيه والبلوغ به إلى مرتبة الكمال ، فطلع إلى هذا الرحيق إن لم نبلفه اليوم فأبناؤنا أو أحفادنا بالقوة لا ريب كما أثر البعث الحاضر .

ثم انظر إلى جانب التفكير . لم يقف أمره عند الدعوة إلى حرية الفكر والرأى وإبدائهما ووسائل هذا الإبداء . بل لقد كادت هذه المسألة تصبح اليوم بديهية على قصر العهد بالدعوة لها دعوة جديدة . بل تعدى التفكير ما ألف الناس خلال العصور الطويلة الماضية إلى ما يزعمه البعض تجديفاً وإلحاداً ، وأصبح البعث الحر عن الحقيقة لذاتها أمراً مسلماً

به من ناحية ، وأمرأ واقماً بالفعل من الناحية الأخرى . فكثيرون يبحثون في الأدب وتاريخه ، وفي الدين وعلاقته بالعلم ، وفي العلوم المختلفة ، على طرائق البحث الحديثة التي تبدأ بالمشك وتختار من مذاهب البحث العلمية ماشاءات . ولئن كانت ثمرات هذه البحوث ما تزال قليلة وما تزال لجة فإن السنوات القليلة التي مرت منذ البحث ، والجهود التي أنفقت في سبيل هذا البحث بالذات لم تكن لتتسع أكثر من هذا . ثم إن سمو الثقافة الحاضرة وإنشاء التعليم العالي وإقامة منشآته على أسس مبنية كل ذلك بشير بإقتاج خصب في المستقبل القريب يتناول كل ألوان البحث الفكري ويتناول العلوم والفنون جميعاً .

وانظر كذلك إلى مقياس الحياة عند الناس اليوم وما كان قبل الحرب . لقد زادت حاجات العيش عندهم زيادة محسوسة ، ودخل بين هذه الحاجات كثير مما كان يحسب من قبل كالا ، وهو بعض الغذاء الأول للنفس الإنسانية . فهم اليوم أكثر ميلاً للقراءة وللإتصال بالحياة العالمية أضعاف ما كانوا من قبل . وليس أدل على ذلك من سعة انتشار الصحف من ناحية وكثرة عددها وتنوع موضوعاتها من الناحية الأخرى ، وسموها في كل شؤونها على ما كانت مثيلاتها قبل الحرب سموها كبيراً . وهم اليوم أشد حرصاً على الاستفادة من كل المكتشفات والمخترعات الإنسانية وأعظم إقبالاً مما كانوا في أي وقت سالف على المتاع بنعيم العيش متاعاً إنسانياً كاملاً . اذهب إلى دور المسارح وإلى دور السينما وإلى معازف الموسيقى وإلى كل ما يتصل بمعاني الحس والعاطفة نجدتها تضاعف عددها

وتضاعف الإقبال عليها ، ثم هي إلى جانب ذلك تسير في سبيل السمو والإتقان عما كانت عليه مثيلاتها قبل الحرب وعما كانت هي عليه أول خلق منشأتها الأولى أثناء الحرب . ثم هم اليوم في عيشهم المادى في منازلهم وخارج منازلهم أرقى مما كانوا بكثير . ولو أنك قارنت مدائن القاهرة ودمشق وبغداد وغيرها من كبريات عواصم الشرق بما كانت عليه هذه المدائن نفسها قبل الحرب لبهرك الفرق والحسبت بين عمارة هذه المدائن اليوم وعمارتها من عشرين سنة ماضية عمل أجيال وقرون متعاقبة . وليست المدائن وحدها هي مظهر هذا التطور السريع في دور البحث الذى يجتازه الشرق بل إن البلاد الصغيرة والقرى قد تأثرت به كما تأثرت الأمصار والعواصم أو أكثر مما تأثرت الأمصار والعواصم ، والناس في الشرق كله قد أنقوا الزهد القديم في الحضارة الإنسانية ، وألقوا ديشاً جديداً لا سبيل إلى بقائه من غير جهاد مستمر هو الجهاد في سبيل الحضارة ، وهو بعض أدوات البحث الذى نتحدث عنه الآن .

ولو أنك نظرت إلى أى جانب آخر من جوانب حياة الشرق لرأيت فيه مثلاً رأيت في جوانب الفن والتفكير والعلم وتصور الحياة من نهضة وجهاد للبلوغ بالنهضة غاية السكال، ولرأيت أن هذه النهضة الإجتماعية والفكرية والخلقية تتضافر أطارافها المؤازرة النهضة السياسية تضافراً يضىء سبيل الحرية أمام الشرق كله ويجعل محالاً في سنين معدودة أن يخضع هذا الشرق لحكم متحكم أو لاستعمار

مستعمر ، وأنه إن ارتضى في علاقاته الدولية قاعدة أو صلة فإنما تكون صلة التعاون بينه وبين الغرب للبلوغ بالإنسانية كلها إلى مرتبة السكال .

قد يرى بعضهم ، فيالفتا النظر إليه من جوانب النهضة ، قصوراً واضطراباً فأين علنا ما يزال من علم الغرب ؟ وأين تفكيرنا من تفكيره ؟ وأين فننا من فنه ؟ ونهضتنا الاجتماعية من نظامه الصيق المؤسس على أثبت القواعد ؟ بل ما قيمة هذه الجهود في تلك الجوانب وماعساها تستطيع في نهضة بلاد انقضت عليها عصور وهي سجيئة تحت ظلمات تلك الطبقات المتحجرة من عسف واستبداد وجهل وجود ؟ ! وقد يكون للتأظر السطحي أن يتأثر بهذا الاعتراض حتى ليحسبه بجديراً بالاعتبار . لكنه لايزيد على أنه اعتراض سطحي فهذه النهضة التي نبعث الشرق اليوم إلى الحياة ليست بذت اليوم . بل إن لها المقدمات ترجع إلى أكثر من مائة سنة مضت ، وللجاهدين اليوم طلائع تقدمونا وقضوا في ميدان الجهاد أبطالا عظاماً ، وإن كان التاريخ لم يذكرهم فذلك لأن التاريخ لما يكتب بالعناية التي يجب أن يكتب بها . ثم إن الجهود ما تزال قاصرة حقاً ، وما يزال الاضطراب بادياً في نواحي نهضة الشرق . لكن هذا الاضطراب نفسه أمارة أخرى من أعلام البعث وحجة من حججه . ألسنت إذا أردت تشييد قصر منيف بدأت بإزالة ما يعترض أساساته من أسباب الضعف حتى لايتطرق إليه في مستقبل الزمن وهن ،

ثم قمت بعد ذلك بإحضار كل مواد البناء وتحضيرها . فإذا ظهرت على السطح أوليات بناء القصر حسبها الناظر إليها خليطاً مضطرباً من الحجر والطين والجير ، ثم رأى حولها وخلالها ما هو أشد منها اضطراباً . لكنه لا يلبث كلما ارتفع البناء أن يرى النظام يحل محل الفوضى ، والعواضد تربط بين أجزاء البناء ، حتى إذا بالقصر المنيف تأخذ العين روعته واللب بهاقه وجلاله . فهذه الجهود التي يحسبها السطحيون قاصرة ، وهذه الاضطرابات التي يتوهمونها الفوضى ، إنما تلك احتقار أسباب الضعف والوهن من أسس نهضة الشرق وأدوات عمادتها . وهذه النهضة ليست بكبير حاجة إلى زمن طويل ليقف منها الناظر السطحي ، وغير الناظر السطحي موقف المعجب المقدس .

وإن عواضد هذه النهضة وروابطها لتظهر أمام الرائي رويداً رويداً . فالجهود العقلية — علمية وفكرية وأدبية — كانت مبعثرة في الماضي لا تربط بينها رابطة ، وكانت ضعيفة لا تقوى على خلق هذه الرابطة . ثم ما هي ذى اليوم قد ربطت بينا الجامعات منتشرة على بلاد الشرق العربي المختلفة بما قررت من اتصال فيما بينها وبين غيرها من معاهد العلم المختلفة فيه . وهذه روابط فكرية ومعنوية تتقدم كل بعث إلى ذرى الحضارة كلما آن لبعث أن يؤتى ثمراته . ثم إن الروابط المادية نفسها تزداد كل يوم وتزيد أهم هذا الشرق اقتراباً بعضها من بعض . ألاست تتجول اليوم خلال الشرق كله في أيام قفصل من القاهرة إلى

القدس و عمان و دمشق و بغداد ثم إلى جزيرة العرب لتعود منها إلى القاهرة أو إلى أية نقطة أردت . وهذا التجوال كان يقتضيك في الماضي شهوراً طويلاً و نصيباً لا قبل للأكثرين بها .

وكلما قويت الروابط المعنوية و المادية ، وكلما تكثرت ثمرة الجهود و الصادقة التي تبذل اليوم ، ارتفع أمام النظر هذا البناء العظيم و بدت على جوانبه تماثيل العلم و الفن و الفكر و كل أسباب الحضارة الشرقية رافعة الرأس يمسك كل منها بيد صاحبه علامة التضامن و التآزر لبناء هذا الشرق قوياً مجيداً .

و لقد اجتاحت بلاد الشرق في السنوات الأخيرة حركة تجديد واسعة النطاق حقاً ، و هي متهمة بالتطرف إلى حدود الثورة أحياناً . وإذا كانت مصر لم تلجأ إلى طريق الثورة الذي لجأت إليه تركيا و الأفغان و فارس لأسباب سياسية و غير سياسية مختلفة فإن ذلك لم يمنعها — رغم سبقها هذه الدول الشرقية في الماضي إلى ناحية المدينة الغربية — من أن توسع خطاها في حركة التجديد ، و من أن تحت السير في سبيله . و البلاد السورية و العراق تحاولان ما تحاول مصر و ما تحاول البلاد الشرقية الأخرى . بل إن حركة التجديد لم تفت الحجاز و بلاد شبه جزيرة العرب برغم عدم ملائمة أحوالها الاقتصادية و ظروفها الاجتماعية له . كلامه أحوال البلاد الشرقية الأخرى و ظروفها .

و ما نحسبنا نغلو في قليل و لا كثير إذا اعتبرنا حركة التجديد التي نتناول أهم الشرق جميعاً دليلاً على عمق إحساسها بأن النظام القديم ،

بل المدنية القديمة ، التي كانت آخذة بهما لم يعودا صالحين للجهاد والتعاون مع أمم الأرض الأخرى . وليس في هذا انتقاص للنظام القديم لذاته أو للمدنية القديمة لذاتها ، ولكن معناه أن هذا النظام وتلك المدنية قد قاما بما أريد لهما أن يقوموا به في العصر الذي كانا فيه ملاك قوة الأمم وتقدمها . ثم كانت التطورات الأخيرة في مدنية أوروبا ، فتغلبت بمشآتها الحديثة على ما كان في النظام القديم من قوة بحيث أصبح عاجزاً عن مجاهدة هذه المدنية الحديثة ومنافستها . ولقد كان ذلك أبداً شأن النظم والمدنيات في العصور المختلفة . يخلف واحد منها واحداً ويتغلب عليه فيرج به في أعماق التاريخ . وليس في هذا قضا . أخير على النظام المغلوب . فكثيراً ما حدث أن بعثت تطورات وعوامل جديدة هذا النظام إلى الحياة من جديد في صورة تلائم تفكير الناس واتجاههم في الحياة . ولكن فيه انتصاراً لنظام جديد عليه لا يرى الناس بداً من الأخذ به حتى يصلوا من الحياة إلى خير ما تستطيع الحياة أن تدم به من نعمة إبان العهد الذي يعيشون فيه .

ولقد يكون من موجبات الأسف عند البعض أن يكون النظام الجديد الذي تسعى أمم الشرق إليه مشرباً بالروح المادى الذي بعثه العلم في أوروبا في القرون الأخيرة . وقد يكون من حق هؤلاء أن يزدادوا أسفاً لأن الشرق كان في الماضى مبعث التهضات الروحية التي جددت قوى الأمم فجعلت من مهابط الوحى على الأنبياء - في مصر وفلسطين وبلاد العرب مصدر قوة كفلت لهذه الأمم سعادتها قروناً طويلة . ولكن هذه الأمم الشرقية شعرت بأن شعلة هذه

القوة الروحية خبت في الأزمان الأخيرة مما مكن للأمم الغرب من التغلب عليها والاستئثار بالامر فيها وإكراه أهلها على ألوان من العبودية لا ترضاها أمة تحترم نفسها وتقدر كرامتها . ولم تجد هذه الأمم في الرجال الذين تتمثل هذه القوة الروحية فيهم شيئاً من ضياء هذه القوة ونورها . بل كثيراً ما كان هؤلاء الحفظة للقوة الروحية أعواناً للغالبين في بلادهم . فلما كانت الحرب ورأى الناس في بلاد الشرق جميعاً مظاهرها المادية أفنهم ذلك بأن هذه المدنية المادية ونظامها غالبان لا محالة . لذلك ما لبثوا أن رأوا في طائفة ممن ولوا أمرهم أنصاراً لهذه المدنية حتى بايعوهم ولم يقيموا الاعتراض معترض عليهم وزناً . ولعلك إن بحثت عن السبب في ضعف هؤلاء الحفظة للقوة الروحية في العصور الأخيرة في الشرق وفي القرون التي سبقتها في أوروبا نفسها ، وجدتته في الأثرة الطائفية التي بعثتهم ليجمدوا على التعاليم القديمة ولا يعترفوا بما استحدث العقل الإنساني في مختلف ميادين الحياة من قوى . والأثرة الطائفية كالأثرة الفردية كانت دائماً سبب ضعف وانحلال ما اعترت بنفسها وناوأت القوى المحيطة بها وانكشبت دون الاندماج في هذه القوى لفائدة الجماعة ولفائدة الإنسانية . وكما أن رئيس الأسرة أو الطائفة يزداد قوة كلما شعر أهل الطائفة أو الأسرة أنه لهم أكثر مما هو لنفسه ، على حين هو يضعف إذا هم رأوا فيه توفراً على ذاته وانكماشاً عنهم ، كذلك تضعف الطوائف التي يجالها الناس ويقدمونها إذا هم شعروا بها بتباعد عنهم ولا تريد لهم خيراً ولا إصلاحاً . ومن الثابت في التاريخ أن حفظ القوة

الروحية من رجال الدين في أوروبا وفي الشرق وصلوا في عصور مختلفة إلى ظروف من الأثرة جعلت الناس ينظرون إليهم نظرة خوف وقلق . وفي هذه الظروف التي تغلبت الأثرة فيها على هؤلاء أبدى المشتغلون بالعلم من التضحية ما لفت نحوهم الأنظار وجعلهم يعتبرون رجال التضحية لخير الإنسانية ولفائدتها . كذلك كان الشأن في أوروبا منذ القرن الخامس عشر ، ولعل هذا هو الشأن الآن في كثير من الأمم الشرقية .

وأنت إذا نظرت مثلاً إلى أمة كتركيا كان سلطانها يمتد حتى أيام الحرب العالمية الأولى إلى بلاد الإمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف وبحث في نفسية أهلها عما يعتقدونه السبب لتدهورها ، أفئتهم يؤمنون بأن السبب يرجع إلى أثرة طائفة الذين كانوا يسكنون بالنفوة الروحية في الماضي والذين كانوا مع ذلك مثال الأناية والأثرة فيها ، وسواء أكان هذا الاعتبار صحيحاً أم غير صحيح فإنه حل من النفس التركية محل الإيمان ، وهو الذي جعل الناس يقبلون على حركة التجديد والإصلاح التي قام بها الغازي مصطفى كمال أفواجاً أفواجاً لأنهم رأوا هذه الحركة تقصد إلى رفيمهم وسعادتهم جميعاً كأمة ولم يروا فيها شيئاً من الأثرة التي تميز بها ذلك العصر الماضي .

ومثل الاعتقاد الذي رأيناه في تركيا نرى اعتقاداً شبيهاً به في غيرها من الأمم الشرقية . ولهذا الاعتقاد نرى الناس يترددون قبل أن يحكموا حكماً قاسياً حتى على ما يعتقدونه متطرفاً غاية التطرف . من حركات التجديد التي تقوم تلك البلاد بها ولا يابون أن يضعوها

موضع بحث ولا مناقشة . وما دامت النظم الاجتماعية توضع موضع البحث من غير تعصب لأى منها فتلك بداية حركة التجديد فى كل عصر وفى كل أمة .

فضلا عما لحركة التجديد من الدلالة على عمق إحساس الأمم الشرقية بأن النظام القديم ، بل المدنية القديمة لم يعودا صالحين للجهاد والتعاون مع أمم الأرض الأخرى ، فإن لها دلالة غير هذه ليست درهما قوة . حركة التجديد دليل أيضاً على عمق إحساس الأمم الشرقية بضرورة إلقاء النير الأجنبي عنها . وإن كلفها ذلك ما كلفها ، وبضرورة التعاون مع الأمم الأخرى تعاون أخوة ومحبة ، لا تعاون سيادة وعبودية . ألسنت ترى الناس جميعاً يقولون : إنا يجب أن نتسلح بأسلحة أوروبا إذا أردنا أن نتجح فى وجه أوروبا . ولقد كانوا يقولون هذا القول فى الماضى ثم لا يكادون يشفعونه بعمل . ذلك بأنهم لم يكونوا يؤمنون إيماناً صحيحاً ، وكانوا ما يزالون يتوهمون فى النظام القديم وسيلة للتخلل من الرق ، أو أنهم كانوا مطمئنين إلى هذا الرق . أما اليوم فهم يقولون ويعملون ويجاهدون بكل مالههم للتسلح فعلاً بالأسلحة الأوروبية المعنوية والمادية . ولقد أدركت أوروبا مدى ما يمكن أن يترتب على هذا الإيمان الجديد لدى الأمم الشرقية ، ففسكرت فى ضرورة الارتباط بينها وبين أمم الشرق بروابط المودة والتحالف والتعاون ، وإن كانت ما تزال إلى اليوم مترددة فى المدى الذى تذهب إليه من هذا التحالف والتعاون الودى . وكانت

ما تزال تماطل قبل وضع القواعد الأخيرة لهذا التحالف لأنها تريد أن تعرف غاية ما يدفع الإيمان الجديد الأمم الشرقية إليه من اعتزامها الميث حرية رافضة أى نير يفرض عليها .

وأحسب أن ثمة اعتباراً آخر هو الذى يدعو إلى تردد الأمم الغربية : فالأمم القائمة بحركة التجديد على صورة جديدة لا هودة ولا موارد فيها هى الأمم التى كانت قبل الحرب مستقلة استقلالاً صحيحاً والتي ما تزال مستقلة استقلالاً صحيحاً كذلك . فتركيا وفارس وبلاد الأفغان لم تخضع فى يوم من الأيام خضوع غيرها للنير الأجنبي . وإذا هى كانت فى بعض الظروف قد خضعت لتسكون منطقة نفوذ لبعض الممالك الأوربية فإن خضوعها هذا لم يدم أمداً طويلاً ، ولم يكن عن رضا وطواعية . وهذه الأفغان — على أنها بلاد صغيرة — لم ترض بحكم انكسار إياها ولم تترك فرصة من الفرص التى انتهزتها حتى وصلت للاعتراف لها بالاستقلال التام لا تعليق فى أية ناحية من نواحيه بحال ، وتركيا إذا كانت قد فقدت مستعمراتها ، التى كانت تجعل منها إمبراطورية كبيرة ، فإنها لم تكن يوماً من الأيام خاضعة لنير أجنبي خضوعاً بالمعنى الذى تفهمه الأمم الأوربية . وفارس التى كانت يوماً من الأيام مقسمة إلى مناطق نفوذ بين الدولتين الانكليزية والروسية لم تدم على ذلك إلا ريثما وجدت السبيل للثورة عليه . وهذه البلاد التى كانت فى هذه المراتب السياسية فى الماضى هى القائمة اليوم بالتجديد على وجه قوى واضح . أما سائر البلاد الشرقية فكانت خاضعة من قبل

لنير أجنبي هو نير تركيا ، أو لنفوذ أجنبي هو نفوذ انكلترا أو فرنسا أو غيرهما . وحركة التجديد في هذه البلاد ليست بمثل القوة الحادثة بها في تركيا وفارس والافغان . أفليس من حق أوروبا — وهذه هي الحال — أن تتمهل وأن تطاول وتماطل قبل أن تمد لهذه البلاد — التي كانت محكومة إلى قرون ماضية ، والتي وقعت بعد الحرب في قبضتها — يد مودة وصداقة وآعاون خالص .

ولأوروبا أن تفكر على هذا النحو ؛ فالعلاقات الدولية لا تقوم بين الأمم على قواعد من مبادئ الحق والعدل والحرية على نحو ما اعتدنا أن نسمع لإبان الحرب وبعدها . وإنما تقوم هذه العلاقات على أساس ما في كل أمة من الأمم من قوة الحياة . فإذا صح يوماً من الأيام لدى أوروبا أن حركة التجديد القائمة في الشرق حركة متمكنة من النفوس بالغة منها مبلغ الإيمان ، واصله يوماً من الأيام لتقف هذه الدول في وجه أوروبا موقف الند للند بطريقة عملية ، ولتسكف أوروبا مشقات للتغلب عليها ، لم يبق بد من أن يقوم التعاون الصحيح بين الشرق والغرب ، ومن أن تقر أوروبا الدول المغلوبة اليوم بمثل ما أقرت به من قبل لتركيا وفارس والافغان ، ومن أن تربط وإياها بعلاقات المودة الخالصة .

ونحن من جانبنا نقر بأن أوروبا واصله آخر الأمر لهذا الاقتناع بضرورة العدول عن سياسة التعاون . فإنما يحول بين الدول الواقعة اليوم تحت السلطان الأوربي وبين القيام بحركة التجديد على النحو

الذى تقوم به تركيا وفارس والافغان وجود هذه الدول الأوربية نفسها وإلزامها البلاد الواقعة تحت سلطانها أن تسير في خطاها إلى التقدم ، مع شيء كثير من الحذر حتى لا تتخذ أوروبا من اندفاعها وسيلة لمناواتها والعمل على محاربة آمالها في التجديد ، ومع هذا الحذر فإن الخطى التي تسير بها الأمم واسعة إلى حد كبير ، وخذ مصر مثلاً ؛ فلم تبق بين أمم العالم أمة تخضع لمثل الاعتبارات السياسية الثقيلة التي تخضع لها مصر : تحفظات إنجلترا المكشوفة بجيوشها من جهة ، والامتيازات من جهة أخرى ، والاضطراب الحزبي الناشئ عن هذا الموقف السياسي من جهة ثالثة . مع ذلك فإن خطى مصر في سبيل التجديد خطى العالقة . ومهما يتغير القائمون بأمر الحكم في مصر فإن حاجة الشعب نفسه للتجديد تدفع هؤلاء القائمين بالأمر إلى السير فيه طوعاً أو كرها . وإذا كان من بينهم من لا يؤمن بالتجديد إيماناً صحيحاً وكان يستطيع لذلك أن يحاول الوقوف في وجهه ، فهو إنما يحاوله بوسائل ملتوية لأنه لا يستطيع أن يصارح الناس بأنه عدو التجديد وخصم تقدم الأمة إلى الصف الذي يمكنها من التغلب على الجود الذي عصف بها وجرىتها واستقلالها في الماضي . وأنت لا ريب واجد من سوريا وفلسطين والعراق مثل ما تجد من ذلك في مصر سواء بسواء . والحق أن الذين حضروا العهد القريب السابق لأيام الحرب في هذه البلاد ليزكروا كيف كان الجود متمكناً ، وكيف كانت الصيحات إلى التجديد تقابل بفتور أدنى إلى السخرية منها والاستهزاء بها . وبالرغم من تضافر كثير من القوى في هذا العصر الأخير على الوقوف في وجه حركة

التجديد فإن هذا التجديد منتصر لا محالة بالغ غايته من إلغاء النير
الاجنبي والوصول بهذه الأمم لتسكون علاقتها مع غيرها علاقة تقام
وتعاون لا علاقة خضوع وذلة .

بقى الآن أن نتساءل عما يكون شأن مخلفات النظام القديم الذى
جدد ، والذى حدثت الحركة بقدر ما جدد . هل يكون من أثر هذه الحركة
القضاء على هذه المخلفات قضاء أخيراً ؟ ذلك ما يمكن أن تبعث مثل
حركة تركيا إلى الاعتقاد به . فالتكيا القديمة ، والملابس التى كانت معتبرة
وكأنها ملابس دينية ، والمحاكم التى كانت مصبوغة بهذه الصبغة ، كل ذلك
قضى عليه إلى غير عودة . لكن تركيا نفسها — مع ظهورها فى حركة
التجديد بمظهر المتطرف الذى لا يريد الوقوف فى منتصف الطريق من
إصلاحها — قدرت أن لا يد فى حياة الشعوب من قوة روحية . وإذا
كانت هذه القوة قد أغرقت فى الماضى فى فيض من الجهالات والأباطيل
كانت هى التى تعمر التكيا وما إلى التكيا من نظم ، فإن تنظيف أسباب
هذه القوة من الإدارات التى أحاطت بها فى الماضى وجعل الدين والعلوم
المتصلة به موضع دراسة صحيحة كفيل بما تحتاج إليه الجماعة من هذه
القرة من غير أن يخلق بسببها عاطلين ومرترقة بغير عمل . وما نحن
أولاء نرى فى الأفغان وفى فارس مثل هذا الاتجاه . بل ها نحن أولاء
نراه أخيراً فى مصر وإن كان يسير بخطى متددة ليس فيها معنى الثورة
التي لزمنا الانقلاب فى تركيا وفى الأفغان وفارس . وإذن فسيكون
أن تأخذ هذه البلاد من هذا النظام القديم ؛ لقدر اللازم لحياته ولحياتها

وستنفي منه ما كان معطلا لغيره من أسباب حياتها وتقدمها ، وسيبدأ هذا النظام لذلك يستعيد شيئا من القوة التي تكفل له التعاون مع حركة التجديد الذي كان يعتبر في الماضي عدوا لها ، وعندئذ توثق حركة التجديد ثمارها فتقف الأمم الشرقية تكاتف غيرها من سائر الأمم ، وتكون قد خاضت لنفسها الحضارة التي تكفل لها الحرية وتكفل للعالم السلام .

(٣)

حضارة الشرق الأوسط

متى تلبثت من جديد ؟

قامت في تركيا وإيران وأفغانستان في الحلقة الثالثة من هذا القرن حركة تجديد عظيمة أساسها إحلال مظاهر الحضارة الغربية محل آثار الحضارة الشرقية ، ولقد ذهبت تركيا في هذا السيل إلى أبعد مدى حين قررت استبدال الحروف التركية بالحروف اللاتينية في الكتابة ، وكثيراً ما قيل في تركيا إن سبب ما أصابها في الماضي إنما يرجع إلى أخذها بالحضارة الشرقية وقيامها على رأس الأمم الإسلامية حين كانت صاحبة الامبراطورية العثمانية . ولعل شيئاً من مثل هذا يقال في إيران وفي أفغانستان . فهل نستطيع أن نعتقد أن الحضارة الغربية ستقضى على الحضارة الشرقية . وأن الأمم التي عاشت قروناً طويلة ذات حضارة شرقية خاصة ، ستضطر أمام تيار المدنية الغربية إلى أن تنسى ماضيها وإلى أن تأخذ في الدقيق والجليل بالحضارة الغربية ، وأن هذه النزعات القائمة اليوم في الدول الثلاث التي أشرنا إليها ، وما شابهها من نزعات قائمة في سائر الأمم الشرقية ، لا يمكن أن تنتهي بالشعوب الشرقية إلى الأخذ بالحضارة الغربية وحدها ، وأن هذه الأمم متى استعادت نشاطها بما تقتضيه من أمم الغرب ستضطر بحكم طبيعة الوجود إلى بحث حضارتها الشرقية من جديد ، بالغاً ما بلغ تأثير هذه الحضارة الشرقية بمظاهر الحياة الغربية التي اقترضتها ؟

وقد يحسب البعض عند النظرة الأولى أن الحضارة الشرقية قد أقفلت بل اندثرت ، وأن لا سبيل لها إلى عودة أو بعث . أو ليس العالم تتقارب اليوم أجزاءه بما ييسر العلم من طرق المواصلات وما يسهل من ذبوع الأفكار والآراء بمختلف الطرق والوسائل ؟ وإذن فالمدينة الحاكمة في العالم ستكون مدينة واحدة ، وهذه المدينة اليوم وإلى أجيال مقبلة هي مدينة الغرب ، مدينة العلم والصناعة . بل لقد يصح القول عند أصحاب هذه النظرة الأولى بأن ما امتاز به الغرب من نشاط ، وما عرف عن أمم الشرق من ميل للدعة ، قد يجعل الشرق أبداً تابعاً للغرب في مدينته ، أسيراً له في حضارته .

لكنني أحسب هذه النظرة الأولى لا تلبث أن يتغير رأى صاحبها إذا هي دامت إلى زمن يسمح بتفكير أعمق من التفكير السطحي ؛ فالشرق يستعير اليوم حضارة الغرب ويندفع في استعارته إليها لأن الحضارة الشرقية التي كانت زاهرة في عصور كثيرة قد تدثرت في القرنين الأخيرين بنوع خاص بدثر ثقيلة من أوهام الماضي التي لاغى عنها لسعادة السواد حتى في أبهى أيام الحضارة ، والتي لا تتصل بهذه الحضارة إلا كما تتصل الألياف الذائبة بالشجرة القوية ، فإذا ذبلت الشجرة نفسها رأيت الألياف تتكاثر حولها وتتماسك وتصبح غطاءً كثيفاً يحجب عن الجذع مقومات الحياة ويحجب عن الناس ما يبقى في الجذع من حياة . وليست حضارة الشرق فيما أصيبت به من هذه الدثر إلا خاضعة لما خضعت من قبل له مدينيات سبقتها ، كالحضارة المصرية القديمة والحضارة الإغريقية القديمة وما اتصل

يهاتين الحضارتين فى روما وفينيقيا قد عدت عليها عوادي الأيام كما فعلت بحضارة الشرق فى آخر عصوره . لكن ذلك لم يكن معناه أن هذه الحضارات القديمة قد قبرت إلى غير عودة . وإنما معناه أنها يوم تبعث تبعث متأثرة بحياة العصر الذى تقوم فيه بعد رقدتها الطويلة، متأثرة كذلك بالمدينيات التى تجاورها ، والتى قد تندمج وإياها فى حضارة أوسع نطاقاً وأبعد فى حياة الإنسانية أثراً .

والحضارة ليس قوامها هذه المظاهر التى تراها العين فى الملبس أو حياة الأسرة وما إليها مما نستعيرها نحن بنى الشرق بما فى الغرب . كلا . فهذه المظاهر ليست إلا آثاراً تتفق وتختلف بين أمة وأخرى وطائفة من الناس وطائفة غيرها فى الأمة الواحدة . إنما الحضارة روح وإيمان . فإذا قلت الحضارة الإسلامية ، أو الحضارة المسيحية ، فأنت لم تقصد إلى الغزو الذى غزاه المسلمون وإلى ما فتحوا من أمصار ، ولم تقصد كذلك إلى ما استحدثوا فى اللباس وفى حياة الأسرة ، وإنما أنت تقصد إلى أصل أعمق من هذا ، أن تقصد إلى قصور الناس لعلاقة الفرد ولعلاقة الجماعة الإنسانية بالوجود كله ، فهذا التوحيد الذى قام محمد بالدعوة له هو أساس الحضارة الإسلامية كلها . ولهذا الفكرة خضعت ألوان التفكير والإحساس فى الأمم المختلفة التى انتشر الإسلام فيها . ولأفكار معدودة متصلة اتصالاً وثيقاً بفكرة التوحيد يرجع الفضل فى تطورات العالم الإسلامى العظيمة وفى أيام مجده ونفاره . وفى طليعة هذه الأفكار المتصلة بالتوحيد فكرنا العدل

والنصوص . كذلك الحضارة المسيحية تقوم على أساس من فكرة التضحية — تضحية عيسى بنفسه لنجاة بنى الإنسان ، وفكرة الحب المتصلة في الحضارة النصرانية بفكرة التضحية اتصالاً وثيقاً . لكن المتكلمين من المسلمين ومن النصارى قد أضافوا إلى هذه الأسس من استنتاجاتهم ومنطقهم ما كدس حولها الشيء الكثير من نظم وعقائد . ولما أن لهذه الحضارة الإسلامية وتلك الحضارة النصرانية أن يستريحا الزمن الكافي من الأوهام التي علقتهما ، قامت الحضارة الأوروبية الحاضرة ، والتي يمكنك أن تسميها حضارة العلم ، أو الحضارة الصناعية .

قامت هذه الحضارة العلمية أول قيامها على أساس من هدم قواعد الحضارات التي نشأت بينها . وإذا كان منشؤها في أحضان الحضارة النصرانية ، فقد جدت أكبر الجذبة في عارضة النصرانية ، وحاولت أن تحل محلها . وكانت هذه المحاولات بادية الرأي بتأييدها الأساس الأول الذي تقوم عليه النصرانية : أساس الألوهية . فسخر ديكارت وكانت وغيرهما قواعد العلم والبحث الجديد لإثبات ما اعتمدت المسيحية على الوحي وعلى المعجزة في إنيائته . ثم كان الملحدون والعديميون وكان آخر الأمر المتشككون الذين قصروا العلم على ما نعلم وما نستطيع حله من طريق البحث والملاحظة والاستقراء . فأما ما لا نعلم فقد وضع جانبا ، إلى أن تتاح فرصة لإثباته . وكان الكثيرون في القرن التاسع عشر يؤمنون بأن هذه الفرصة آتية لا محالة ، وإنك إذ قرأ

الفيلسوفين الفرنسيين : تين ورينان لتشعر بأنهما يريان بعين الإلهام يوم يحل العلم طلاس مافى الأرض والسماء ويكشف عن لفض الوجود بوسائله التى لا تقبل الشك ولا يأتينا الباطل من بين يديها ولا من خلفها . على أن هذا الإيمان بقدرة العلم المطلقة قد بدأ يتراجع شيئاً فشيئاً بما ظهر من مذاهب جديدة تهدم مذاهب عليية قديمة ، وبما شعر به الكثيرون من العلماء أنفسهم بأن كل حضارة يجب أن يكون لها روح وإيمان . ولعل دكت العالم والفيلسوف الفرنسى كان فى مقدمة العلماء الذين قدروا هذا . لذلك قرن بفلسفته العلية ديانتة الإنسانية لتكون روح حياة السواد ولإيمانهم . وها هو ذا «برجسن» والروحانيون يشعرون اليوم بأن العلم - على ما أحسن للإنسانية ومد فى أسباب الرخاء والسعادة المادية - قد اعترف بقصره عن أن يجد حلا علياً لصلة ما بين الفرد والجماعة الإنسانية بالوجود كله ، وبأنه لا مفر من الالتجاء للإلهام إذا أريد الوصول إلى هذا الحل ، ولا بد من أن يكون حلا يجمع إلى الحقيقة البساطة لتمثله روح السواد والجمهير كى يكون لها أساس حضارة جديدة .

وليس هذا النوع من التفكير مقصوداً على العلماء والفلاسفة . بل إن موجة التفكير العام الأخيرة فى أوروبا لتذهب إلى أن العلم قد عجز عن أن يعد غذاء نفسيا للشعوب الغربية ، وأنه لا مفر إذن من الالتجاء للشرق ومذاهبه وأديانه على الغرب يجد فيها هذا الغذاء . وإنا نجد هذا التفكير فى أمريكا وأوروبا وأخيراً قوياً : نجده فى

أمريكا حيث تعددت المذاهب الدينية إلى غير حد ، وحيث جعل الناس يأخذون عن المذاهب الشرقية كالبهائية وغير البهائية . ونجد في أوروبا حيث يبحث الأوروبيون في مذاهب الهند القديمة يريدون أن يقيموا وحدة الوجود على أساس من إلهام أبناء بوذا وبرهمة بعد أن رأوا الملاحظة والاستنتاج والاستقراء عاجزة عن إقامة هذه الوحدة. والتيوزوفية وغير التيوزوفية من المذاهب ليست إلا بعض آثار النعطش النفساني وبعض مظاهر مرجة التفكير هذه . فهل ترى يلهم الغرب الوصول إلى كلية جامعة تكون للسواد روحاً وإيماناً ، وتكون بذلك قاعدة حضارة جديدة يضطر الشرق إلى الأخذ بها فتكون مدينة غربية ؟ أم أن الغرب سيظل يضطرب بين موج من إلهامات الشرق الكثيرة القوية حتى يقوم في الشرق مناد بكلمة الحق فإذا الغرب وعلمه يتبعانه طائعين لأنهما يجدان في كلمته صلة الإنسانية بالوجود ، ويجدان لذلك فيها سبيل السعادة ؟

إذا صح لنا أن نتخذ التاريخ هادياً للجواب عن سؤالنا هذا ، أحسب جواب التاريخ أوضح من أن يحتاج إلى بحث بعيد ؛ فالكلمات الجامعة التي تفسر صلة الإنسان بالوجود تفسيراً يأخذ الناس به طائعين كان مصدر الوحي بها في الشرق دائماً . فالإسلام والمسيحية واليهودية والبوذية والبرهمية وديانة كونفوشيوس نزلت كلها على وسل من أهل الشرق ولم يعرف التاريخ في الغرب أحداً نادى بكلمة جامعة كالتى نادى بها أى واحد من أصحاب هذه الأديان . هذا مع أن الغرب كان دائماً موضع نشاط عظيم ، وكانت اليونان منبع الحكمة والفلسفة الأولى

التي تعتبر أساس الفلسفة الأوربية الحاضرة ما تزال . فإذا كان هذا جواب التاريخ كان لنا أن ننتظر صاحب كلمة الحق التي تفسر الوجود في الشرق . وكانت مدينة الشرق الروحية هي التي ستعلم العالم بعد أن تربط أواصر العلم وصلات الميكانيكا العالم كله وتجعل منه بقعة ضيقة . ويومئذ يكون التعاون بين حكمة الشرق ونشاط الغرب تعارفاً يجمع إلى الرجاء السعادة ، وإلى الحكمة السامية الطمأنينة الروحية .

قد يذهب بعضهم إلى أن عصور الإلهام قد انتهت ، وإلى أن العلم وامتداد سلطانه إلى مختلف فواحي الحياة يجعل الكلمة الشعرية التي تستريح لها النفوس جميعاً أمنية عزيزة المثال . وأصحاب هذا المذهب على حق إذا أنت نظرت للمستقبل القريب جداً . أو إذا أنت قدرت أن العلم سيصل من سعيه المتواصل إلى حل لغز الوجود ، وأحسب الظن بمقدرة العلم هذه لا يبرره الآن ما كان يبرر الإيمان بالعلم في أيام تين ورينان ، يومئذ كان العلم ما يزال في قفوة نشاطه ، وما يزال بذلك يكشف كل يوم عن جديد . فكان المؤمنون بالعلم يحسبون أن العلم أصبح وحدة قائمة بذاتها ، سامية فوق الطبيعة الإنسانية لا تعرف الوقوف ولا الاستجمام . أما اليوم فقد أصبحت خطى العلم أبطأ بكثير عما كانت من قبل وأصبح العلم التطبيق يهر الاطلاع أكثر مما ينهها الكشف عن قوانين علمية جديدة . بل إن القوانين التي اعتبرت ثابتة زمناً ما ، قد وضعت اليوم موضع النقد والتحليل . فالمرحلة الحاضرة من مراحل العلم في جانبه النظري مرحلة تحقيق وتمحيص ، وليست بمرحلة كشف جديد .

فأما العلم التطبيقي ، وأما اختراع الأنومويلات والطيارات وزيادة أسباب الرخاء ، فليست في شيء من قواعد الحياة الجديدة . إنما هي استخدام لقوى اكتشفت استخداماً واسع النطاق . وسيكون يوم قريب أو بعيد يقف فيه هذا النشاط التطبيقي عن الجديد من الاختراع ليعني بكمال المخترعات وإسباغ السكال الفني عليها . ويومئذ يدخل العلم التطبيقي هو الآخر في دور النقد . ويومئذ تتمحض الحركة العلمية العظيمة التي شهد العالم في القرن الأخير والتي ما تزال تهزه اليوم من جهتها التطبيقية عن صور فنية تبعث إلى النفوس شعراً أكثر مما تبعث . لأنها علمياً ، وتدعو الناس للتفكير من جديد في الوجود كله كجموع ، وفي الفرد الإنساني محاطاً بكل أسباب الرخاء وعلاقته بهذا المجموع .

قد يكون هذا اليوم قريباً وقد يكون بعيداً . على أنه وإن بعد فلن يتخطى بعدنا جيلاً أو جيلين . وفي هذا الجيل أو الجيلين سيندفع الشرق في اقتراض مدنية الغرب اندفاع تركيا وفارس والافغان اليوم . وسيعقب حركات الاقتراض هذه حركات رد فعل وثورات كالتى تجيء منذ اليوم بها الأنباء من مختلف أنحاء هذه البلاد . خلال ذلك تشير هذه الحركات خوف الشرق وتحرك حضارته القديمة المتدثرة اليوم بدثر كشيقة من الأوهام . وتقوى نزعات هذه الحضارة القديمة في نفس امتلات بآثار علم الغرب وحضارته ووهبت من لدن القدر شاعرية ذات قوة ليست في متعارف الناس . ومن هذا الاحتسك بين القديم الموروث والحديث المستعار تكون شرارة إلهام تتجلى خلالها كلمة الحق التي تفسر لغز الوجود لأهل الجيل الذى تقال فيه ، كلمة الحق التي

تجتمع فيها مظاهر الحضارة الغربية المستعارة وهذا الأصل القوى الثابت من حضارة الشرق التي كانت دائمة الطموح لمعرفة كلمة الحق .

يومئذ ينفخ الشرق في حضارة الغرب بعض آثار هذه الروح ، وإذا أهل الغرب يدخلون في حضارة الشرق أفواجاً مؤمنين لا مستعيرين . وإذا الشرق والغرب يتعاونان للخير والحق . وإذا ضياء باهر يفتح أبواب عصر جديد . وإذا الغرب ينادى مقتسماً : المجد للشرق الذي قد أمدنا بروح قضينا الأجيال نلتسمه فلا نجد . والمجد للروح روح الخير والسعادة .

أحسبني أرى هذه التطورات التي أشرت إليها والتي أومن بها رأى العين ، وأحسب الذين نهزم اليوم مدينة الغرب يرونها مثلي إذا هم أطلوا التفكير فيها ، وبحسبهم أن يفكروا في مبلغ شعور أهل الغرب اليوم بما ينقص مدنيته من روح يسمو فوق المادة ولا يخضع الخضوع الأعشى لمذاهب الاقتصاد ليقنوا يقيناً بأن العالم تضارم اليوم بين أحشائه حياة جديدة لا سبيل لها إلى أن تبدو إلا أن ينبعث في العالم نور جديد غير نور العدمية وهذا النور الجديد عما قريب سيضيء .. ومن الشرق سيكون مطلعه .

الفصل الثالث

البوذية

١- الأصول

كان الآريون حين انحدروا من مضائق كابول إلى بنجاب أشبه الناس بالعجم، على ما يصفهم هيرودوتس ، أو بالجرمان على ما يصفهم تاسيت ، قبائل بين البدو والحضر معظم مدداز ثروتهم قطعان الثيران والبقر ، ولهم قرى ومنازل ، وهم على علم بالزراعة ، فكانوا كما كانت شعوب الآرمن والسيروس على حدود ما بين حياة الترحال وحياة السكن ، يحكم كل أسرة أبوها ، ويقود كل قبيلة ملك أو رئيس حرب . ولم يكن عندهم فرق ولا طوائف لإكليروس ، بل كان كل أب يقوم بالوظيفة التبعية في بيته ، وكانوا ذوي أخلاق ساذجة حرة صحيحة كتملك الأخلاق التي يمجدها الإنسان في أصول كل شعوب ذلك الجنس الآرى . ولم يكن للأوهام الصوفية المريضة أى أثر فيهم ، بل كانوا على العكس من ذلك ذوي عواطف كلها رجولة وشرف ، تنصرف عبادتهم للإلهة إلى طلب القوة والمجد والنصر والغنيمة .

فإن بحثنا عن الصفة الخاصة التي كانوا يمتازون بها عن باقي

(*) هذا الفصل تلخيص للترجمة الفرنسية التي قام بها الكاتب الفيلسوف هيوليت بين لكتاب البوذية للكاتب الألماني النهر كوين .

الاجناس التي ترجع إلى الأصل الآرى وجدناها متجلية في تخيلهم البالغ أبعد حدود الدقة ، وأعجب مظاهر النماء — فندهم وحدهم توجد الأساطير في هذا الصفاء وذلك الامتداد ، حتى لسكانما خلق هذا الشعب ليرى آلهة في كل الأشياء ، وأشياء في كل الآلهة . يعبدون السماء المضيئة ، والنور اللألاء الذى يعم الأشياء وينفخ فيها الحياة . ويعبدون الصاعقة الرائعة ، والرعده المحسن الذى يشق السحب فيفك الأمطار المحصبة من إسارها . ويعبدون الشعاعين التوأمين ينبعثان من شواطئ الآفاق بشيرين بعودة الضياء . ويعبدون حمرة الأفق . والفجر الأبيض ينسل من خلال الظلام قبيل مطلع الشمس ليكشف صدره أمامها كشف العروس عن صدرها أمام زوجها . ويعبدون « آتى » — وهى النار التى يثيرها احتكاك العصى بعضها ببعض — « آتى » اللابسة ثياب الإبداع ، عتافه ألوانها متعددة أشكالها بديعة تعم الأرض ، تخمد وتشب وكثيراً ما تهرم ثم يعود إليها شبابها ، ويعبدون الرياح والأنهار ومختلف مظاهر الشمس . وبالجملة فهم يعبدون كل ظواهر الطبيعة على حالها في نقائها وصفائهم لا على صور الإنسان كما جعلها هوميروس . ولن يستطيع الإنسان أن يتخيل مبلغ ذلك التقاء والصفاء قبل أن يقرأ الفيدياس ، فليست الأساطير عندهم سرّاً خفياً ، وإنما هى أشياء واضحة جليلة . بل هى تعبير وإيضاح . ولن ترى لغة أبلغ ولا أساس من اغتهم . تعطيك صور السحاب وموج الهواء وانتقال الفصول وكل ما للسماء والنار والمواصف من أحداث . ولم تلق الطبيعة وسطاً ألين مرونة ولا

أحد ملاءمة تظهر فيه بمختلف مظاهرها غير المنتهية ما لاقت في هذا
الجيز . ومهما يكن للطبيعة من استحداث ومظاهر فإن الخيال البوذي
ليس أقل منها في ذلك . فليست له آلهة ذات شخصية ثابتة ، واسكنها
تستحيل ويمتزج بعضها ببعض . فقارونا^(١) هي أندرا ، لأن الرعد
هو السماء الصاعقة ، وأندرا^(٢) هي دأني ، لأن الصاعقة هي النار السماوية .
وكل واحد من هؤلاء الآلهة هو الإله الأعلى . وليس لأحد منهم
شخصية معينة ؛ إذ كل واحد ليس إلا لحظة من لحظات الطبيعة قدّر
حسب حال التصور أن يشتمل صاحبه أو أن يشتمله صاحبه . لذلك
كانت الآلهة متعددة بالغة في الكثرة . فكل لحظة من لحظات الطبيعة ،
وكل حال من أحوال التصور قد تنتج لها وقد تصبح الصفات والأسماء
الإلهية ، بل وصفات الصفات آلهة هي الأخرى . والشراب الذي يقدم للآلهة
والصلوات والأدعية وكل طقوس العبادة تنتهي بها الحال لتسكون قوى
وآلهة تنادى وتوقر ، وحيثما وجدت قوة — والقوى توجد في كل
مكان — فالأرى يقيم لها لأعلى أنه شخص ، ولكن على أنه قوة . وهذا
لعمري يجمع عجيب بين التعمق التجريدي والإحساس الشعري ، بل بين
الصلاحية لفهم الطبيعة والميل لتمثيلها وتصورها . ولم يثبت جنس من
الأجناس أول قيامه ما أثبتته الجنس الآرى من هذا الذكاء الدقيق
الحساس المتحضر لإبداع خلاق محيطه غير متناهية المستعد للانشاء
والاختفاء تحت انماء الخصيب الذي تنموه آلهته .

(١) وهو الرعد

(٢) وهو السماء

ليسمع القارىء بالتدقيق في ملاحظة هذه الصورة من صور
الذهن القديم . فإذا أضيف إليها المركز الجديد الذى أعده الغزو
والطقس للشعوب الآرية إذن للاحتلال بالسيدين الشاملين كل ما سواهما
الحاويين موجز شأن الجنس الهندى وفكرته ، وإذن للبست القوى التى
لن تزول ، والتى توجه زوابع الحوادث الإنسانية والإرادات الصناعية
البشرية والتى تقمى المنظمات وتبعث الديانات وتنتشر الأفكار وتقرر
الأخلاق فلا يستطيع حادث وقفها ولا يقدر مجهود شخصى على قهرها ،
التي تقضى على مئات الملايين من الخلاق بالذل وفساد الخلق والخيال
والياس ، وإذن يحيط الإنسان بموقعة الحياة الهندية العظيمة الفظيمة .
وما كان لنا أن ننبه هنا ابتهاج سيديون بمنظر المذبحة التى خلطت
ما بين أشلاء جيشى ما سنيا وقرطاجنة ، فلسنا من الرومان ، بل نحن
رجال يأخذنا الإشفاق كلما فكرنا فى مصيرنا وفيما قدر لنا . ولو أن
شيئاً بالغاً فى العظمة يدعونا للتفكير فيما قدر لجنسنا أن يحتله
لكانت تلك المأساة الصحيحة غير الملفقة مسرحها نصف قارة ، ومداهها
ثلاثون قرناً ، وأشخاصها قوى القدر المحتوم تتطاحن أرواقها خلال
بؤس تسعين جيلاً من الأجيال الإنسانية ، ودموعها تهر من غير أن
تهدا إلى غاية .

تقدم الآريون على مهل من السند إلى الجنج وجعلوا يخضعون
لحكمهم السكان السود ذوى الشعر المستطوح . ولما كان هؤلاء الجميع
الذين احتلوا شبه الجزيرة عرضة لأمراض جلدية قبيحة ، وكانوا يبعدون
الشمابين وشياطين الهواء ، فقد طاملهم الغزاة كأنهم قطيع من الحيوانات

الحسيسة ، وظلت الحروب أزمنة طويلة استقر بعدها القادمون إلى عصر يشبه عصور أوروبا المتوسطة التي عقيت غزو قوط الأربك ولبارودى . البرات وأفرنجة كلوفيس ، وأحلت بينهم حياة الاستقرار محل حياة الترحال ، وقام النظام البطركى (الأبوى) مقام الإمارات الحربية وتميزات الطبقات . فجاء فيما بعد طبقة الأشراف والغالبين طبقة الجنس الحسيس المغلوب من (الكودرا) - وهم جماعة العميد من الزراع والصناع والعمار الذين خضعوا للقلب . وجاء من دون هؤلاء الأجناس المطرودون والهمج المتوحشون الذين امتنعوا على الجمعية الجديدة واحتموا منها بالمغائر والجبال والمستنقعات ، ثم انقسم الجنس الغالب بعد ذلك بقوة الظروف وانحط بمجموع الأمة من العاملين إلى مركز دون مركز الأسر المحاربة التي لومت القرون على الأسلحة ، ودون مركز الأسر الدينية التي أخذت على عاتقها الاحتفاظ بطقوس العادات وأدائها . وقد أدى هذا النظام إلى انفصال الأعمال ، كما أدى القلب إلى انفصال الأجناس وبدأت الفرق تتكون وجعلت الفوارق بينها تقوى وتعظم . ثم حدث من بعد ذلك حادث حاسم أدى إلى تقديسها ، وبالتالي إلى تخليدها ، فقد قامت بين الفرقتين الرئيسيتين : فرقة البراهمة وفرقة الشاثرية ، حرب استعلاء كالحرب التي قامت بين الجلف والجيلان ، ثم انتصر فيها البراهمة بسبب استنادهم إلى الطبقات الوضيعة . وكان نصراً أتم بما حازه الباباوات ضد الهوهنستوفن . وقد ترتب على ذلك استئصال الشاثرية لولا أن التجأ القساوسة لاستبقاء فرع عقيم منهم مخافة أن يتلهمهم الفناء بعد

إذ وقفت جميعتهم المتداعية على حافة مائلة لتتهار فيه . وقد أصبح أهم مال للوك والشارية من وظيفة أن يباركوا البراهمة حماية لهم ، وبذلك طبعت الجمعية بالطابع الديني وأصبح انفصال الفرق أمراً مقررأ ، وانقلبت الأنظمة المدنية قواعد دينية ، وأخذت الحكومة الشكل الديني ، والعقل الديني كذلك ، وظلا محتفظين به إلى وقتنا هذا .

ولتفوق البراهمة هذا أسباب مختلفة ، منها : تغير الخلق الآرى تحت تأثير الطقس . فإن شمس الهند قاسية فظيعة لا يطيقها أحد ورأسه عار إلا السكان الأهالى سود الجلود . فإذا جاء تحت هذه السماء المحرقة شعب أجنبي آت من بلاد معتدلة ، بل باردة رأيته لا يطيق المرأة الجنسية ، بل يبدأ عنده الميل للراحة والكسل ، وتلاشى عنده حاجات البطن والمعدة وتفتت عضلاته وتصبح أعصابه سريعة إلى التهييج ، وذهنه أميل إلى التأمل والحلم . ينتهى ذلك بتكوين هذا الشعب الغريب الذى يصفه السائحون اليوم لنا : حساسية إنسانية مرتمشة ودقة فى التصور عجيبة ، وروح واقفة عند حدود الجنون ، قادرة على كل اضطراب . وكل ضعف وكل إغراق ، مهياة أن تنقلب أمام ألقه الصدمات ، مجاورة للأفن والهوس ونوبات الجنون ، وخيال يموج بأحلام فظيعة . تفشى الرجل وتطويه على نحو ما يطأ الرجل الضخم الدودة الحقيرة . ولم يجد الدين فى الطبائع الإنسانية مثل ما وجد من الصلاحية فى هذه الروح لينمو ويتزعر . لذلك تما غراسه وتأصلت جذوره وامتدت فروعه وانقلب الطبع الثمرى إلى نظر باطنى أساسه وحدة الوجود .

قتضات الآلهة لكثيرة المتفرقة تحت حكم ثلاثة آلهة ذوى سلطان هم : «طاروناء» فى السماء ، «واندراء» فى الهواء ، «وانى» على الأرض . ومن وراء هذه الآلهة الثلاثة ظهرت الروح الكبرى التى تعمل بواسطتها لإحياء الأشياء . وتلك هى الشمس . ثم يستمر التفكير التجريدى العميق فى سبيل تقوية الطبيعة الحارة الدائمة التجدد والسيولة حتى يستبعد هذه الشمس المحسوسة ويستظهر القوة العليا من خلال الأشكال المنغيرة ويقرر : أنه لم يكن فى البدء إلا الموجود غير المحدود ، الموجود النقي غير ذى الشكل ، وأن كل شىء كان محتلاً به . وأنه كان مطمئناً فى الفراغ ؛ وأن هذا العالم نتج بقوة فكرته . أما عن ماهية هذا الموجود فقد وصلت المثابرة والمجد بالابحاث الفلسفية لا نزاعه من دائرة الطبيعة المحسوسة ووضعه فى سلطان القساوسة . فقد كانت النار التى أوقدها البراهمة واستبقوا عقيدتها من بين الآلهة القديمة أيضاً ، لكن هذه النار بالرغم من عظمتها كانت محسوسة بحيث لا يمكن أن تكون الموجود العام النقي الطاهر . لذلك أخذ أحد أسماؤها — البرامانسيانى ، أى ملك المادة — فصار إلهاً مستقلاً غير مادى ، وصار يزداد أهمية شيئاً فشيئاً حتى اشتمل كل ماسواه . ثم برز من هذا الآلهة برهمة جديد أبعد عن المادة وأعرق فى جوهر العبادة التى أصبحت الموجود الأول لاشكل له وهو لكل شىء مشتمل . وكذلك اختلطت العبادة بمبدأ العوالم وبالآله الأعلى . وسبب ذلك أن التضحية والكلمة المقدسة والعبادة لم تكن عند هذه الأذهان المحتاجة بمجرد دعوة القاس ، بل كانت قوة ظاهرة متسلطة . وقديماً

اعتقد هؤلاء الناس أنهم يلزمون الآلهة الطاعة بواسطة هذه العبادات .
 و بالعوا في تصورهم لذلك حتى حسبوا أن ليس للعبادة دافع . لذلك
 ألحوا د موته ، البناء والعصى ، كما ألحوا كل لحظة من لحظات التضحية ،
 ووصلوا في تصورهم إلى جعل القوة التي يخضع لها العالم بأسره ماثلة
 في الفكرة المتوترة . وقد جاء على لسان الملكة في إحدى أغاني ريج :
 « إنني أنا الملكة وأول من يستحق التكريم . فني مترا واندرنا وآني
 والإسفانيين وكل من سواهم . وأنا الخاتمة بالآلهة في كل شيء . والنافذة
 إلى كل شيء . بل أنا مبدأ كل الموجودات وكالريح أهب من كل مكان » .
 أما ساد هذه الكلمة وتلك العبدة فهم البراهمة ، وهم بذلك الآلهة على
 الأرض . ولقد قال برهمه في إحدى پوراناته : Pourans : إنه
 يأكل بضمهم وأن لا أحد يمدحهم ، وأهم الآلهة ، لذلك هم في المنزلة من
 كل الأشياء . وظاهر أن سلطانهم بين مثل تلك العقائد سلطان باق
 إلى الأبد .

والآن فلننظر في مجموع طريقتهم (مذهبهم) من أفسكار ونظم ، حتى
 نرى ماذا تكون الحياة تحت تأثيرها . فبرهمه الذي هو روح الأشياء
 والموجود غير المحدود ينمو ، ونموه هو العالم . وهذا النمو ليس منفصلا
 عنه ، بل إن برهمه نفسه يسيل ويتشرو ويخرج من نفسه خروج الجدول من
 النبع ، والشجرة من البذر ، والنسيج من العنكبوت . لكن هذا العالم
 الذي هو الذات برهمه ليس إلا ذاته منقوصة مشروبة ؛ لأن ابتعاد المادة
 الأصلية عن أصلها أفسدها حتى صارت درجات نحو لها المستمرة درجات إلى
 تزايد الفساد ، فبينما ترى الآلهة والتور في الصحف الأولى إذ الصف الثاني

فيه الناس والشهوات ، وفي الصف الثالث الحيوانات والنباتات والظلمة والمادة . وهذه المظاهر المتعاقبة من برهمة ليست إلا برهمة مهدوداً مضطرباً ساقطاً مستمراً مع تحوله في سقوطه وتدرجه ، فالعالم إذن فساد ، والحياة شر ، والأرض قرارة بؤس وتعس . ولا كمال ولا سعادة إلا في الوجود الجامد الخالي . وخير الخير لسلك مخلوق أن يعود فينغس في برهمة الجامد Immeuble الذي خرج منه .

هذه العقيدة تبعث بلا شك على اليأس المبرح وتدفع إلى النفس التقزز العام من الحياة ، وتدعو إلى إقناء الشخصية الإنسانية إقناء تاماً . وقد كان ذلك هو الشأن في أوربا حينما قامت مثل هذه العقيدة عند الإسكندريين والأغنوطيين وما سواهما من الطوائف المتصوفة وليدة الضغط الروماني . على أن الذي زاد الطين بلة أن امتزجت بهذه العقيدة الهندية عقيدة شر منها . تلك هي أن الحياة ليست شراً وحدها ، بل هي شر يهوى الإنسان إليه من جديد بعد موته . فإن الأرواح تنقل من جسم إلى آخر وفي مختلف أنواع الأجسام من حجر ونبات وحيوانات وآلهة ورجال بلا انقطاع ولا سكون مدى ملايين القرون . من أرقى الدرجات إلى أسفل الدركات تقذف بها خفاياها على مقدار دركات تلك الخطايا في أتعس الأحوال وأدنتها في ثمان وعشرين جهم تنشق فيها بصنوف من العذاب رقيتها وهذبتها وأطالنها وأوهام أشقياء وجلادين ، فسكرة الشر السكائن المغروس في أعماق قلب الأشياء المتضاعف المنتشر في كل ما هنالك مما يحيط بالحياة الإنسانية ، المتعاطف إلى ما وراء كل الحدود بما أبدع له الخيال الهاجج المضطرب من

مبتكرات الفطائع ، تلك هي الفكرة السائدة التي تثقل كاهلهم في الحياة النظرية وتودى بهم في الحياة العملية إلى شرور تتوارث معها جسامه وعظماً .

وسبب هذه الفكرة أن الاستبداد هناك نام شامل يحول من كل النواحي دون العمل ، ويشل الإرادة . وقد انقلبت الملكيات الحرية أثناء هذا التوتر العصبي العام إلى استبدادات مطلقة ، وأدخلت صنوف التعذيب والإلزام والتخريب وكل ما إلى ذلك من مفااسد الحكومات الشرقية . وقامت الفوارق بين الطوائف منيعة لا يمكن تخطيها ، وارتبط كل بحظه ونصيبه وكأنما شد إليه بأغلال من حديد . زد على ذلك أن كل لحظة من لحظات الحياة وكل جزئية من جزئياتها نظمت حتى لم يبق للإنسان حرية في حركاته لشدة ما قيده الاستبداد الديني وغلله . وهذا الاستبداد أضيق خناقاً من الاستبداد غير الديني . قطعت المخاوف الناعسة الأوامر والنواهي التي لا عدد لها والمقدسة كلها في النفس المضطربة . ومن هذه الأوامر ما يرتب دقائق العقيدة وطقوسها ، ومنها ما ينظم الأدعية والصلوات والقرايين والغسل والوضوء والرجبات والبخور ، ومنها ما يمين ملابس وأخلاق كل طائفة . ومنها ما يرسم الزهباب والجيئة والنوم والملبس وخلعه والاستحمام والتطيب وسائر الوظائف الجسدية . فهذا كله يذكرنا بالأعمال الكثيرة التي كانت تشغل القسيس في ديريه كل نهار أيام القرون الوسطى حين كان من الخطيئة أن يسرع الإنسان السير أو أن يرفع بصره إلى الكنيسة . وقد كان الضغط لدى البراهمة

ولكنه كان مضاعفاً مئات المرات حتى لا يعد له شيء .
وما كان لذاكرة أن نعى مختلف الأوامر التي لاحصر لها . ثم
كان كل ترك لأي من هذه الأوامر خطيئة . وما كان لأحد
مهما يبلغ من دقة انتباهه أن يجتنب موجبات الدنس . وكان كل دنس
خطيئة . فلم تك ملامسة جثة المائت هي وحدها التي تدنس المؤمن ، بل
كان يدنسه كذلك مجرد الاقتراب من أى مكان وضعت فيه أشلاء
إنسان أو بقايا حيوان أو عظام أو شعر أو أظافر أو قذر كما كان
يدنسه استعمال إناء غير طاهر وتنفس من شرب الخمر أو أكل الثوم .
ويقابل كل خطيئة تفكير ووجوب الطهر بالماء وبروث البقر وتلاوة
الادعية وأنواع من تهذيب الجسد تبلغ أحياناً من الفظاظة أكثر مما
باله تمثيل قسنا أنفسهم . فمن قتل بقرة خطأ لومه ارتداء جلدها
والبقاء ملتصقاً إياه والإقامة في آخر مرعى رعت فيه مدى ثلاثة أشهر
ليل نهار . ومن شرب العرق عمداً لومه أن يشرب من سائل يغلي حتى
تتحرق أحشاؤه وحتى يموت . فلعلك تستطيع وقد رأيت ذلك أن تحكم
على مبلغ ما كان ثبت من الفظائع الدينية . فإذا ذكرت إلى جانب ذلك
أن عندهم ثمانية وعشرين ججياً مفرعة يهوى إليها كل من وقع في
خطيئة أو أهل أمراً أو لم يقب توبة كاملة أو نسي أن يسكفر . ثم
هو لا يخرج منها إلا لينقل تنقلاً متعوساً طوال الدهر من جسم إلى
جسم ليسكون يوماً دودة وآخر ثعباناً أو حشرة أو رجلاً زنياً .
وإذا ذكرت المخاوف الدائمة التجدد وآلام تلك الأوهام الهائلة المحاشدة
لإذن لفهمت الرغبة العظيمة في الخلاص الأخير تدفعها ثورة

اليأس واندفاع الصيحة المضغوطة الثائرة .

وكيف السبيل إلى هذا الخلاص ؟ لقد بلغ من مسيس الحاجة إلىه أن تعلق به رؤساء تلك الجمعية وأن أوضع القانون طريقه . قال ماتو : على البرهمنى متى لاحظ أن عضله ضعف ، وأن اليباض قد أنسل إلى شعره ، وكان قد رأى حفيداً له ، أن يهرع إلى الوحدة هو وزوجته . ثم ليرض نفسه على الحرمان وتعذيب الجسم . ويلزم العبادة والصوم والسهرة ويعرض جسده عارياً إلى قوارص الطقس إبان فصل الأمطار ، ويلقف بين أربع نيران تحت الشمس المحرقة أثناء الفصل الحار ، ثم ليعلم في نفسه كل شهوة وكل شهية . فإذا تم لذلك ترك زوجته وعاف حبيبها ولم يأكل إلا مرة كل يوم وعاش من إحسان المحسنين ومحا من ذهنه كل إرادة وكل فكرة محسوسة . ومتى صار كذلك بسيطاً تقياً طاهراً أصبح خالصاً من الشر . وذلك لاشك دواء يعالج به المرء نفسه . فإن الإيمان في الجود يقتل الحس ، والإيمان في التلاشي يقطع على الإنسان سبيل الألم . بعد ذلك ولا تدعو إليه الوحدة من التأمل ينفثح طريق جديد تقوم عنده المبادئ التجريدية على أساس من النظر الفلسفي ، فيقلب المتصوفون فلاسفة وتتصادم فرق المتكلمين فيذهب بعض بالاتفاق مع العقائد القائمة إلى أنه ليس إلا موجود واحد هو برهمن ، وأنه غير محدود وأنه طاهر وأنه لا صفة له ولا شكل وأن الخلاق المختلفة ليست إلا قلباته وقدرجاته . ثم يتخطون العقائد إلى أن العالم وهم ولا شيء موجود أصلاً خارج برهمن . وإلى أن العلم إنما هو معرفة عدم (انعدام) الأشياء ، وإنما ينتهى بالعاقل تأمله إلى عدم الاعتقاد

بوجود خاص له ثم لا يرى إلا الموجود الخالي لا شيء وراءه ولا شيء خارجاً عنه . ويقوم إلى جانب هؤلاء المفكرين السنين مفكرون أحرار يتفقون معهم في أن الخلاص هو الغاية ، وأن الوسيلة إليه هي معرفة الوجود . لكن الأولين يحررون الإنسان من نير الطبيعة بتقريرهم أن الطبيعة لا وجود لها ، في حين يحرره الآخرون بتقريرهم أن الروح جوهر بسيط نقي لا سبيل للطبيعة عليه . فالأولون يعدمون الشريان لكاد مسيحاته في حين يمدده الآخرون يانكاد المجرى الذي يصل هو إلينا عن طريقه . لذلك كان خلاص الروح عند (الفدوتتا) انقاسها في الوجود المتشابه وعند (السنخيا) برجعها إلى نفسها — هذه هي التأملات التي نزع إليها المصنعة قبل مجيء بودا . وإن السائح الذي يرى هؤلاء الناس على ما يصفهم الشعراء وقوفاً تحت شجرة من أشجار الموز ناحلة أبدانهم منقطعة حركتهم ثابتة عيونهم محتبسة أنفاسهم ليرى مشهداً فذا لا مثال له . فالفلسفة لم تكن هنا مثلاً كانت عند اليونان ترويحاً عن الذهن وتسريحاً للفكر المطلق المنظم . بل كانت على خصبها وسعتها في التفصيلات والتحليلات وفي دقة النظر ذات غاية ترمى إلى عمل من شأنه تحويل الإنسان نفسه بنفسه والجهد لذلك جهاداً عظيماً يصل بالذهن إلى حدود الخيال والهوس لتركزه وثباته عند نقطة واحدة معينة ودوام العودة إليها مدى الشهور والسنين . وإنك لتجد عند المتصوفة وسائل ميكانيكية لإثارة صور الهوس في النفس . ولا عجب فتلك نتيجة المواقف العنيفة الطويلة المدى . فإن الإنسان يفر من الألم كما يسيل الماء من فرق المنحدر ، فإذا زاد به الألم وبلغ

مشتهاء استعاذ منه إلى كل ملجأ ولو كان قتل الحس ياتلاف الأعضاء
إتلافاً منظماً ، أو كان الجنون ياتلاف عقله كذلك . ولقد كان من
واجب كل من ارتفع بعض الشيء عن سواد الرهط الذى يعيش فيه أن
يبحث عن ملجأ يحتوى به . وكان كل حكيم راجع العقل يخلق لنفسه
ملجأ ويدعو الناس إليه . وبذلك تكونت طائفة كبيرة من الفلاسفة
والديانات والأنظمة والنظريات . حتى ظهر أخيراً من جمع السك
ووجههم وجهة الطريق الحق : إلى السلام .

(٢)

مميزات البوذية

لا يترك الإنسانُ الناسَ بفكرة ولكن بعاطفة . وقد تدغمهم أعقق النظريات وأدغمها تقاليد ثم تخرجهم عن طوقهم نصيحة مبتذلة . وبعض العبارات المتداولة التي صرنا لا نهم اليوم لها ظهرت في الماضي . اكتشافاً معجزاً قدس صاحب الوحي به . والجماعة المتألمة الطامحة كالرجل الطامح المتألم ، تأتيه بما شئت من نظريات متباسكة وأنسجة بدعية من المضاربات الفلسفية فتزلق هذه الشروح عن ذهنه دون أن تحترق حجب نفسه وتراه يستمع إليك لحظة ثم يحيمك تحية الرجل الكيس ليعود فينغمس في ألمه ، على حين ترى كلمة متداولة يقال بلمحة مؤثرة تستدر دمه وتدفق به إلى أحضانك مسلماً زمامه وإرادته . وكذلك الشأن في أزمت الجنس البشري . ترى الناس جميعاً ينتظرون كلمة معينة هي وحدها التي يستطيعون فهمها . أما الكلمات الأخرى فتسربهم وكأنها جلبة سخيصة تظن مضطربة حول آذانهم ، ثم لا يكاد يمس بالكلمة المنتظرة هامس حتى ترى الناس جميعاً وقد أصاخوا لها وتلقوها وتناقضوها وأكبروها باجتماع أصواتهم جميعاً ، ذلك بأنها المقابل لحاجة عظيمة متغلغلة في نفوسهم ، والآثر لتطور عام خفي ، ومظهر بمجموعة ضخمة من النصورات والجهود المتسلسلة خلال قرون عدة في مختلف طبقات الجمعية وضياعها ورفيعها ، والآخذة بالافكار المختلفة . . . فهي في ظهورها كالنبع يشور متى لاقت ضربة الجنس

طبقات الماء المضغوط . ولقد زعم الزاعمون أن محمداً كان ملفقاً — حاشاه — ألف ما بين الإنجيل وآراء الفرق التي عاصرتة . وأن لوثر إنما كرر بمبارات ضخمة ما سبقه إليه جان هس وفيكلف ، لكن الحقيقة أن هؤلاء إنما نطقوا في عصرهم وأتهم بالكلمة الفذة ونطقوا بها لا بشفاهم ولكن بكل قلبهم وبكل كيانهم ووجودهم . وذلك ما جعل لكلامهم قوة وإصلاحهم ثمناً . وذلك هو ما يجب أن يبحث عنه في أحاديث ساكيا موتى وإصلاحه .

تنقل الأساطير أنه كان في السموات بين الآلهة ، وأنه اشتمل على منتهى الفضائل برحمته وإخلاصه وتقواه ، وأنه جمعها في متعاقب حيواته (١) ثم إنه اعتزم آخر الأمر لخلاص الموجودات الحية أن يهبط في أحشاء امرأة فأجال طرفه في العالم ثم اختار مياديني وهبط إليها — ولم يمسه رجل — في شعاع مضئ ذي خمسة ألوان . ولما حان الحين ولد وترى وزوج في حجر الملاك الذي كانت مياديني زوجته . لكنه لما بلغ التاسعة والعشرين — وكان قد ذاق كل لذائد الحياة — اختمرت أفكاره العظيمة فشعر بعطف على الخلائق وفكر في نجاتها . وسبب ذلك أنه رأى يوماً في طريقه وقد خرج من القصر إلى إحدى الحدائق هرماً مقوس الجسم أصلع الرأس مجمد الوجه مرتعش الأطراف . ورأى في مرة أخرى مريضاً لا يرجى برؤه مهملأ أمره مغطى جسمه . ثم رأى في مرة ثالثة جثة بالية قد أكلها الدود ، فأنعم النظر في هذه الآراء وخرج من تفكيره إلى أن الشباب والصحة

في الحياة ليست شيئاً مادام يأتي عليها الهرم والمرض والموت . فأخذته الرأفة بحال الإنسان وجعل يبحث عن دواء لهذه الأمراض . العضال . فلما خرج مرة رابمة رأى متسولاً متديناً دله جده مظهره . وبادى كرامته على طمأنينة نفسه . فاعتزم للحال أمام هذا المنظر أن يعتزل العالم . ولقد وضع أبوه حراساً حول القصر ليحولوا دون تركه إياه لكنه أفلت منهم واحتمى بالوحدة وظل سبع سنوات يعالج أقسى أنواع التوبة ويعانى الجوع والعطش والحرق والقر والمطر ولا يطعم كل يوم إلا حبة من سمسم . ثم رأى آخر هذا الزمن أن الاستماتة تغشى على الذهن بدل أن تربيه ، فطعم حتى عاد قوياً جميلاً وذهب إلى مكان نذر أن لا يخرج منه حتى يصير (بوذا) . هنالك جاء إليه « مارا » أمير هذا العالم وإله الحب والخطيئة والموت فهاجمه بكل أنواع الفجوة مزججاً إياه بدعوة سلاحه ، ومغويماً إياه بحسن قتياته ، لكن القديس ظل مطمئناً فلم تزجه الخواف ، لأنه يرى كل الأمور حلأاً ووهماً . ولم يستغوه الجمال ، لأن أجمل الأجسام لم تكن في نظره إلا بعض فقاقيع الماء والخيالات الزائلة . عندئذ انهمزت الشياطين وبدأ النور الداخلى . فذكر تعدد ميلاده السابق وميلاده كل الخلاق فأحاط في نظرة بالعوالم الهائلة التي لا عدد لها ووقف على السر الأبدى السكل الأسباب وكل النتائج ، وأخترق حجب مظاهر التطور والتغير وعرف العدم الذى هو حقيقة مادة الأشياء ، ووصل إلى المبدأ الاسمى المؤدى إلى السلام .

ويتكون هذا المذهب من حقائق أربع : فالوجود ألم لا يستدعى . الهرم والمرض والحرمان والموت . وإنما يجعل الوجود ألماً تلك الرغبة

الدائمة المتجددة والتي تجد أبداً ما يحول دون ما ترى إليه من الاتصال بالأشياء والتعلق بالشباب وبالصحة وبالحياة . إذن فيجب إعدام الرغبة لإعدام الألم ، ولإعدام الرغبة يجب أن تتخلى عن أنفسنا وأن نتخلص من ظمئنا الموجود وأن لا نشعر بانجذاب نحو أى شيء . ولا لآى موجود ، تلك هى النظرية الأولى التى لم يتعدها ساكيا موثى على الأغلب . لكن التعمق فى البحث يكشف لنا عن فكرة تجريدية صميقة كانت أساس ما تلاها ، ولم يفت المفكرين الجادين الذين جاءوا فيما بعد استخلاصها . تلك الفكرة هى أن الحكيم يصل إلى التخلي والجمود حين يرى أن كل موجود يهلك لأنه مركب وأن هلاكه دليل على أنه ليس إلا مظهراً لا قوام له ولا قوة ، وظاهرة سائرة إلى العدم كالزبد يكون على سطح الماء ثم يفتى ، أو كالصورة التى تبدو فى المرآة . ومن ثم يصل إلى الاقتناع بأن الأشياء لا وجود لها وما دام الموجود لا وجود له فال ميلاد لا وجود له . وياعدام الميلاد ينعدم الهرم والموت والبؤس والآلام والأحزان والقلق والمشقة ، وهذه الوسيلة تنعدم كومة الأحزان المكسدة . فإذا وصل الإنسان إلى هذا الشعور بعدمه تعداه الألم ، لأن الألم ليس إلا دغناً كالوجود فى الثلاثى العام . وعندئذ يتحول الإنسان ويصبح ولا حكم للحوادث عليه ، ويطمئن الطمأنينة الخالدة إلى فكرة الفراغ الذى هو أساس كل شيء وكنهه . وبذلك يصل إلى الترفان ويصبح بوذا .

ذلك هو الطريق الفلسفى . لكن ثمة طريقاً آخر عاماً وجد التمساء فى بابه الواسع مدخلاً للاحتباء بالديانة الجديدة التى كانت أكرم

الاشياء لملاءمة للأرواح يومئذ ، فإن تخلى الإنسان عن نفسه خلق
لضيق بالنفس إذا جددت ، وعندئذ تفتى الألفة والأطماع والشهوات
الشديدة المتحاربة أو الآخذة المرء عن نفسه حتى لتدوس الرجل بقدمك
فلا يغضب ولا يفكر في القيام ، ويحسب طبيعياً بعدما سقط أن يبقى في الأرض .
فإذا حدثت حديث عن نفسه خيل إليه أنه إنما يحدثه عن سواء لأنه لا يعياً
بذاته . ثم هو لا يهتم بالاشياء الجميلة أو البراقة ، بل يبقى أمامها في
جهوده ومهموده بسبب ما أصاب إحساسه من البلى وكذلك تراه على
أنهم استعداد لقبول مبدأ نكران الذات العام . فإذا قال يودا :
« اقتل الشهوة في نفسك ، كانت الشهوة وقد انعدم من قبل جملها
وإن قال : « اقطع تلك الصلة الأتانية الملتبسة التي تدفكك للتمسك
بالاشياء » ، فإذا البؤس وقد جاء على آخر خيوط تلك الصلة . ولا
عجب — والإنسان في تلك الحال يوحى بأمره بالجهود والاستكاثرة
وأن يستمع لمثل هذه النصائح . أمح من نفسك الكبرياء والحمد
والغضب وابعد عن ملاذ الحس واقع فكرك — وخير أن يقع
الإنسان نفسه من أن يقع نفسه ألف مرة رجل آخر — وكما ثبت
الصخرة أمام العاصفة ، يجب أن لا يتأثر الحكيم بالمدح أو بالذم —
واحكم نفسك ولا تقاوم ولا تدافع عن نفسك ودع نفسك لتصاريف
القدر وتخل عن نفسك ولا تهتم أبداً لما يثيرها . وقد التفت نعيان حول
أحد العمال فأمسك العامل مسئته ليدفع عن نفسه ثم ذكر أن القتل
محرم عليه وألقى سلاحه . ووهب ابن المليك فساتارا كل ما يملك
لأول سائل غير مستبق ذهباً ولا عبيداً ، بل ولا أولاده الذين

غذاهم من دمه ، فلما قر الأولاد وعادوا إليه وهبهم ثانية ثم رآهم بعيني رأسه على أثر ذلك يجلدون بالسياط . وتلك هي الأمثال التي يخطب بها من أعلى المنابر إلى اليوم من يدعون لتقليد البوذيين . وجدير بالإنسان إذا وصل لمثل هذه الحال ألا يكون إنساناً وأن يكون حجراً يستطيع احتمال كل شيء ولكنه يعجز أن يحب شيئاً .

وفي هذا الاعتزال التام يجد الإحسان منبته . لذلك لم يكن الخلاص الذي سعى إليه ساكيا موني هو خلاص نفسه وحدها بل خلاص الموجودات طراً . وقد كان يفكر في أمرها مثلما كان يفكر في أمر نفسه . وإنما هو خلاصها الذي أدى به ليعود بعد اتجاهه بكل نفسه مخلصاً للسماء فينغمس في قراره تعاساتنا وشقوتنا . بل أنت يا من أحطت الناس بالنعيم وشمئلتهم بالعناية ثم أصبحت جلادين وقتلة فغفرت لهم . لرب سيدنا . لقد عطفت حينما كنت دباً على رجل ملأه اندفاع ماء الثلوج فرعاً فأخذته وأغدقت عليه من جذور الشجرة وفاكهتها وأحطته بكل صنوف العناية ثم مالبت أن عادومعه رجال يريدون قتلك فغفرت له . فإذا كان ساكيا موني يسعى في هذه الساعة كذلك لسلامه فما ذلك إلا ليرينا طريق السلام . ففكرته في الألم تشمل آلام سائر الناس وفي قرارة حزنه يستكن العطف على من سواه . والعطف على الغير هو الكلمة المرجوة . هو آية الوقت والنبا العظيم الذي سيرفع أولئك البؤساء من كبوتهم ويعزيهم عن مصائبهم . وهو الذي كانت تنتظره كل تلك القلوب الكييزة أو البائسة .

فإن الإنسان إذا وصل من الألم المبرح إلى أقصى غاياته وسقط إلى
الدرك الذي لا صعدة منه فحمد نشاطه وتلاشت فيه شهوات الرجولة ،
وهبطت روحه الرقيقة ونظامه العصبي إلى مواضع الاستسلام وعدم
المقاومة بسبب ما أصابها من المهانة ونضب دمه لكثرة ما أريق
من وهامت على شفاهه المصفرة ابتسامة ضعيفة مكتئبة ثم أصبح
لكثرة ما تألم فلا يفكر في الألم فتسى نفسه وأهلها ، هنالك تراه
وكثيراً ما يصعد إلى قلبه صوت رقيق عذب مؤثر وترى ذراعيه
وقد هجرتهما قوة النضال يمدان بقية من القوة يمدان بها نحو البؤساء
الذين سيكون إلى جانبه . وهذه الحركة هي التي تهز القلوب وتحسك في
الأفتدة وتبلغ بالنفس مكان النجاة : ولعمرك ماذا تهمني الحقيقة
الجمردة أو الحجج الدامغة بعد ما انقطعت عن الرغبة وعن الأمل ،
ثم ماذا تهمني المضاربات النظرية العالية ، أو كيف في أن أجاهد
مع الجماعات النشيطة بعد ما أصبحت عاجزاً عن الوصول إلى فكرة
وعن القيام بعمل ؟ كل هذا إنما للأقوياء لا لأمثال العجزة الضعفاء .
وكل هذا شديد وشخصي ضعيف فلا أطيقه بعد أن برحت في الآلام حتى
تركت العناية بنفسى . وإن أجد ضماداً للجراحى في تطبيق مذهب
معقد روائى تطبيقاً دقيقاً ، وإنما ضمادى أن تمر بي يد إنسانية مرراً
رفيقاً يجعلنى أعتقد أن نعمت من بين سائر إخوانى من يهتم بى ويرجو
دوائى ، وأن أرى معونة إخوانى وتمزيتهم من واجباتى . فالشعور بهذا
الإشفاق وتلك المودة وهذه المرام المشتركة المجتمعة هو الذى يسير بالناس
وبالحلاق طرأ نحو الطمأنينة والسلام ، وذلك هو الضهاد الشافى . ولقد

نشرت أنانية البرهمي والرواق حول الحياة الإنسانية جوا بارداً محملاً بثلوج الشتاء لجأته هذه الريح الدافئة فأذابت الثلج في ألف موضع منه وأعادت إلى أعضائي المتجمدة المألومة حركتها . ففي لحظة ولد د بوذا ، قامت بنفس كل الموجودات أفكار المحبة والتعاون وشعر بعضها نحو بعضها الآخر بعواطف الأبوة والأمومة . ثم انقلبت الحوائل القائمة ما بين الفرق والطوائف والأمم رأساً على عقب ، ونادى بوذا إلى سلام الناس جميعاً من ملوك وعبيد وبراهمة وبغايا وطهر وأرجاس ومواطنين وأجانب رجالاً ونساء . وإنشئت رسله في التبت ومنغوليا وفي آسيا كلها لهداية عباد الوثن ، وكان الفقراء والضعفاء أفضل عند برهمة بدليل ما جاء في فصوص قديمة : « ليس حيناً أن يصل الكبراء والأصاغر إلى حظيرة السلام . ولكن هذا الوصول أكثر مشقة على الكبراء منه على كل من سوام . ولقد نادى صاحبه المفضل بغياً وأراد أن يشرب من يدها غير معتبر في لمسها ما ينجسه . وكان من بين المستمعين إلى بوذا كناسو الشوارع والمفلسون والشحاذون والشيوخ الذين همجهم أقرباؤهم وضعاف العقول والمقطعة أيديهم وأرجلهم والبغايا والغانيات والبنات اللاتي يسنن في القدر ، بله اللصوص والقتلة . وكذلك كانت كل الرءوس الشقية أو المستبد بها تنحنى بين يديه رجاء نفحة روحية تنالها . وكانت تعاليمه توافق مزاج هؤلاء السامعين . فكان يعلم في الطريق ويكلم أتباعه في الأماكن العامة ويقص قصص الحياة السابقة بلغة سهلة بسيطة ، ويحدث عن الخطايا وعن جزائرها وعن أعمال الخير وعن مشوبتها . كل ذلك بلا نظريات.

عولا فلسفة ولا مذهب ، ومن غير مطالبة بأى بحث أو تقرير أى عمل . بل كان كل ما يطلبه طمأنينة القلب وسكينة وأُن يفكر الإنسان في تقاض نفسه لا في تقاض سواه ، وأن يقابل المساء بالليل ، وأن لا يقتل أحداً بل حيواناً ولا عدواً ولا مجرمًا وأن يحتمل الشر ولا يردّه ، وأن يتساع مع كل مغايرته في العقيدة حتى الهراطقة ، وأن يكون برأ حسناً حتى إلى الأنعام — وبديهي أن في هذه التعاليم ثورة تامة على العوائد والأخلاق أقامت على أقاض شهوات الناس القديعة التي لم تترك أمامهم إلا الممسود والفراغ ، أملاً أحياء في أعماق نفوسهم قوة دافعة نحو العمل .

بعد خمسة قرون من ذلك العهد قام في الغرب إخوان غزاة الهند بمجهود يشبه مجهود هؤلاء الغزاة ، جددوا على أثره مذهباً يشابه مذهبهم مشابهة لا تجد في حوادث التاريخ أتم منها . وقد كان ما بين الفرعين القائمين على الجذع القديم من فروق ضئيلة راجعاً إلى ما كان عليه آريو الغرب من خيال أكثر توازناً وأقل عظمة ، ولما لقوه من طقس أكثر اعتدالاً وأشد ملازمة لمراة العقل . أما فيما سوى هذا فكانت المظاهر العامة لمنتجات الفرعين متشابهة كل التشابه . وظلت أخلاق الرجولة وعوائدها حاكمة مدى ألف سنة وخمسة على شواطئ البحر الأبيض حكماً في شبه جزيرة الهند . فلك الإنسان القوى المسلخ الأرض وحرثها وأقام المدائن واستأصل الأجناس الوضيعة أو استعبدتها ، وأنشأ القصائد والأساطير والعلوم والأخلاق والفلسفات ثم تربع معجباً بنفسه يشاهد مثالها في قصص أبطاله وآلهته متصوراً

كأن نعمته في تكميل ملكاته وزيادة سلطانه . وكما طمح البرهمي ليسكون
 لها في السماء فقد أراد اليوناني والروماني أن يكونا إلهين على الأرض .
 ثم انهار عملهم جميعاً بالتغالي في العواطف التي كانت سبب قيامه .
 فأصبح الإغريق الشهم الكريم متكلياً سفسطائياً وتطاحت المدائن
 الجميلة فيما بينها حتى ضمنت وسقطت في قبضة البرابرة المميج الخياليين بها .
 وأصبح الروماني النشيط جندياً ثم عبداً لرومائه فاقبلت الأمبراطورية
 العظيمة التي امتد سلطانها بقوة ذراعه على عدد عظيم من الشعوب ،
 وصارت آلة استبداد منظم وقع هو كما وقع غيره بين عجالاتها ، وقد
 أهلك الاستبداد الأشراف بعد ما أهلك العامة وقامت القوة التي
 أعدتها الملكية العسكرية بين هذه النفوس الأسيرة حائلاً حديدياً صلباً
 لا يفلح مجهود في تحريكه . فلم يعد ممكناً أن يطالب الرجل بعمل ما كان
 يقوم به من قبل أو أن يكون قوياً جريئاً أو أن يدفع عن نفسه أو
 أن يد بالعدوان عدواناً . ذلك بأنه وقع في الفخ فتسلطت فيه تلك
 الجرة القديمة المعروفة في هذه الأجناس المحاربة الأنوفة — وقد بحث
 الباحثون يرجون علاجاً لهذه الحال في البهر وفي الإندلاق في الشهوات
 وفي الاستسلام للمطمئن وفي الباطنية المشوشة وفي أحلام خلق الوجود
 وفي التأملات الفلسفية وفي سحر المشعوذين وفي نبوءة المرضى ، فلم
 يحرك ذلك كله إلا الذهن والعصب بينما كان هو القلب الذي يجب هزه
 بمحرك جديد دافع للعمل . ولقد تم ذلك فيما بعد على نحو ما تم
 في الهند فاختفت الأخلاق وبجته جديدة كالوجهة التي أخذتها في الهند
 ، إذا ضربك أحد فلا تجزه جرحاً يجرح كآمر القانون القديم الذي .

يحتكم في الناس من ألف وخمسة سنة والذي لم يخلق منهم إلا
 عارفين وغالباً ومغلوباً . فكنذك ليس يكفي أن تطرح الغضب وأن
 تنزل عن التأثر وأن تحترق لها فتوان تحتل الظلم صابراً على نحو ما يدعو
 إليه حكام العصر . بل تلق برفق بين ذراعيك من ضربك وأدر له
 خدك الآخر ودعه يأخذ مالك وأعطه مالم يأخذه وأحبيه لأنه أخوك .
 فإن ثمة فوق هذه الممالك المنظورة ملكوت الله ، ملكوت الأمل
 الآسي حيث لا ترى إلا رقة وتغانياً في الغير مخلصاً ، وإلا قلباً واحداً
 هو قلب الآب الذي يحبك ويحميك . ، وهذه هي العاطفة الكبرى
 التي أحيت الإرادة الإنسانية في أوربا . وهي أكثر تحديداً وأقل
 تجريداً من العاطفة الهندية . فهي لا تمتد إلى الحيوانات ولا تعتمد
 على فكرة العدم العام . ولكنها أضبط وأصح من العاطفة الهندية
 لأنها تدع للعمل والأمل مجالا أوسع ، كما لا تصل بالإنسان إلى
 السكينة الجامدة ولا للاستسلام الحسير والعدم الأخير ، انذك كانت
 أشد ملازمة لأذهان أكثر عملية من تلك الأذهان ، ولأرواح أقل
 من تلك الأرواح مرضاً ، ولخيالات أكثر اعتدالا ، فهي أوربية
 وليست آسيوية . على أنها في أوربا وفي الهند هي على كل حال مركز
 التقدم الإنساني ، وعلامة الساعة التي يصبح فيها الإنسان وكأنه
 حيوان هذب الألم وقهرته القوة بعد ما أسرف من قوته فيترك عبادة
 القوى الطبيعية ويستبدل بها إجلال القوى الأخلاقية ، ويتخطى فكرة
 الطوائف والفرق والامتيازات ليصور أمامه صورة أخاء بني الإنسان .

(٣)

النظر

إذا بذرت حبة نمت متأثرة في نموها بعاملين مستقل كل منهما عن الآخر ، عامل القوى الداخلية التي تتكون منها البذرة ، وعامل القوى الخارجية المحيطة بها . ففي دخيلة البذرة شجرة وجهتها النماء . لكن شأن الأرض والجو الخارجين عنها أن يعينا طريق نموها أو يفسدها . كذلك ترى في كل دين فكرة جديدة لتصور الطبيعة ولتصور خطة سير الإنسان في الحياة . وهذه الفكرة الجديدة تنمى نفسها بمجهودها الخاص . لكنها في نمائها تتجه وجهة خاصة بتأثير الظروف المحيطة بها . فالإصلاح الأخلاقي يصبح رويداً رويداً لاهوتاً منظماً يسهل على الإنسان أن يميز خلال فروع شجرته الضخمة التي خرجت من البذرة الصغيرة بين ما نشأ عن البذرة وما جاء عن طريق الوسط .

فأما ما يرجع إلى البذرة في النظر البوذي فاعتبار فكرة العدم مادة الأشياء وفكرة الخلاء (الفراغ) منشأ الأشياء وغايتها . وأما ما يرجع في الوسط فضخامة وتهتك الخيال الوفير الخصب الذي يكس الأعداد والعوالم حتى يعتريه الدهول بين مضطرب خلّاقه .

وقد خلف ما كياموني مبادئ أخلاقية وقصصاً مطمئنة كما خلف مبدأ التخلي قائماً على فكرة الخلاء . أما أتباعه الدينيون الذين أقاموا بعد

الوحدة في صوامعهم مسلحين بالفلسفة المحيطة بهم ومندفعين وراء ما يبدعه الخيال الباطني في تضخمه وانتفاخه فقد أقاموا مذهباً كاللتي أقامه دوريجين ودنيس الأوريوباجي ومجموعة من الأساطير أشبه بأساطير دانت ودفوارجين .

ويرى أنباع يوزا أن ليس ثمت مادة أولى ولا مبدأ يتكون ولا إله خالق سبق الخلق . بل « إن القطع بوجود موجود أعلى خلق العالم وما يحتويه إنما هي من هرة المناقضين الست » ففكرة الموجود الثابت القائم بذاته تتنافى ومذهبهم تنافياً تاماً . وليس ثمت سبب أولى وإنما الطبيعة سلسلة لا تنهاى من الميلاد والهلاك واتصال لا نهائي بين أسباب هي النتائج ونتائج هي الأسباب وانحلال وتكون أزلي أبدي خالد . تلك هي وجهة نظرم العامة التي وصلوا إليها مسوقين إليها من جهة بفكرتهم الرئيسية : فكرة العدم العام ومن الأخرى بمشهد الأشياء الدائمة التغير . ذلك بأنهم قد أطرحوا الأسباب الثابتة فلم يبق لهم إلا سلسلة النتائج المتغيرة وقد سار خيالهم في هذا الميدان شوطاً يسيرى القارىء الآن مداه .

ففي الحيز اللامتناهى عدد غير متناه من العوالم . ولو أن الإنسان أقام جداراً حول حيز يمكن أن يسع مائة ألف مرة عشرة ملايين من هذه العوالم ثم رفع هذا الجدار إلى أعلى قمة السموات وملا هذا المخزن العظيم بحب الفافل لما ساوى عدد هذه الحيزات نصف عدد العوالم التي توجد في إحدى عمالك السماء . ويقوم في وسط كل عالم جبل ضخم

ذو سفوح أربع : سفح من ذهب ، وسفح من بلور ، وسفح من فضة
 وسفح من زمرد . وهذا الجبل هو جبل (ميرو) الذى يرتفع أربعاً
 وثمانين ألف (يودشانا) فوق سطح ماء البحر وينزل مثلها فى جوفه
 ويحيط بهذا البحر إطار من صخور مرتفعة يمتد وراءها بحر ثان تحيطه
 الصخور كذلك وتمتد بعدها بحار تحيطها صخور . ولكن البحار يقل
 عمقها والصخور يقل ارتفاعها حتى إذا كان البحر السابع والأرض
 السابعة التى هى أرضنا لم ترتفع الجبال أكثر من ست وسبعائة
 (يودشانا) فوق سطح البحر . وهذه الأرض تشمل أربع قارات القارة
 الشرقية وفيها يعيش الناس مائتى عام وطول كل منهم ثمان أذرع .
 والقارة الغربية وفيها يعيش الناس خمسمائة سنة وطول كل منهم
 ست عشرة ذراعاً . والقارة الشمالية وفيها يعيش الناس ألف سنة
 وطول كل منهم إثنان وثلاثون ذراعاً . والقارة القبلية وفيها يعيش
 الناس مائة سنة وطول كل منهم ثلاث أذرع ويحيط بهذه المنطقة جدار
 شيد من الحديد تسطع من وراءه شمس أخرى ويمتد بعده عالم آخر .
 وتقوم فى وسط جبل ميرو من أسفل صخرة ضخمة نحتت فيها ثمان
 جهنات . وفى وسطه من الأعلى تبدأ السماء بعالم الرغبة مقام الآلهة
 والشامل لست سموات ما خلا الأرض ، ويحيط من فوقه عالم فيه
 أربع مناطق حسب مناطق الإلهام الأربع . ثم يحيط من فوق ذلك
 العالم الذى لا شكل له شاملاً أربع سموات كذلك ويصل الخيال البوذى
 فـهذه العوالم الأخيرة حدّاً يكسب معه الملايين منها فوق ألوف الملايين
 حتى يبلغ مجموعاً مبدئية يجعلها بعد ذلك أساساً يصدر عنه التسكديس

ما هو أعظم وأضخم . ثم تراه يستمر على هذه الحال بلا انقطاع ولا روية حتى يضطرب الذهن ثم لا يدرك شيئاً .

كل هذه العوالم من أسفلها إلى أعلاها مأهولة بالخلائق . وفي أحق دركاتها أهل الجهنمات الثماني في طبقات بعضها فوق بعض ويحد السكاكين والحرا ب أحسنهم حالا مدى خمسمائة سنة . أما ما ينال الآخرين من فظاعة العذاب وطول مده فزريع مخيف . على أن الخلود في العذاب للتكفير عن الذنوب ليس مقرراً إلا عند سكان الجنوب من البوذيين الذين يحكمون على المتشككة والكفار بالبقاء غالدين حول حائط يمتد في بحر يحتل خلايا العالم ويلتهم هذا البحر أعضائهم ويبلعها .

في مقابل ذلك ترى البوذيين من أهل الشمال يضيفون إلى الجهنمات الثماني المثلثة ثماني جهنمات أخرى من الصقيع يصعد أو يهبط من حل به الجزء أثناء هذه الآتونات بحسب ما يستحق . ثم يحيى البروناس في درجة من العذاب فوق درجة من العذاب فوق درجات أولئك ، جنيماً . والبروناس قوم من العالقي ناشفة أبدانهم ، قيحة مناظرهم ، واقفة شعورهم ، ذوو بطون عظيمة لا تشبع . وحلق أضيق من سم الحياط يتعذبون بأفطع الجوع وأفسى العطش ولا يكادون يسمعون اسم الماء مرة في كل مائة سنة ، ويأكلون جثث الموتى أو ينهشون لحم أنفسهم . والبخلاء الذين لا يتقدمون لرجال الدين بإحسان هم يصلون إلى هذه الحال التعمسة . وتجيء الحيوانات في درجة ما فوق البروناس ثم تجيء من فوقها الآزوراس وهي الأرواح الخبيثة عدوة الآلهة . وإلى جانب هؤلاء يحيى مختلف أنواع الشياطين . من عمالقة غلاظ وقصار وثمانين ضخمة وزواحف لها رأس إنسان وغيلان

لها رأس فرس وحيات وطيور وهي تغوص في الماء أو تطير في الهواء أو تسعى على الأرض أو تجاور الآلهة أو تقوم على سفوح ميرو ، ولكل جنس منها ملكة ولكل ملكة ملك ، ثم يحيى الناس في درجة مافوق الشياطين ويحيى الآلهة من فوق الناس ، والآلهة على طوائف وأدنا هذه الطوائف أندرا وإخوانه من الآلهة العاديين للبرهنة . وآلهة هذه الطوائف يقيمون مسلحين فوق قمة الميرو ويدفعون الشياطين السفلى من غير انقطاع . أما السموات الأربع التي فوق ذلك فلا تمس عالمنا ولا تستضيء بشمس أو قمر بل بنورها هي . وفي هذه السموات توجد البوذات المقبلة التي تنتظر الساعة التي تنقصر فيها البرة الأخيرة جسماً لنقوم بنجاة البوالم . وهذه المنطقة هي الأخرى واقعة تحت حكم إرارا أمير النہوات ومستوى البوذات . ولا سبيل للخلاص منه إلا بالارتفاع إلى المنطقة التي فوقها والدخول في عالم الأشكال النقية . وفي هذا العالم وجد البرهمنات ثم آلهة النور الصراح وهم غائصون في بحر الإلهام الأسنى معفون من نير التفكير ويتخيّلون من غير أن تتعاقب عندهم التصورات ، وفوق هذا العالم توجد الكائنات الطاهرة الفاضلة . ومن فوقهم المخلصون الذين خلّوا عن التحول وصاروا بمنجاة من الإحساس والألم . وفي الدرجة العليا تنفتح المناطق الأربع للعالم غير ذي اللون أو الشكل حيث تخفى الأجسام الأثيرية تمسها وتلك هي سماء البوذات . وكل مادون هذه السماء الخالدة في سكينة واقعة تحت حكم قانون التحول والتغير .

هذا ولم تطبق ديانة من هذه الديانات أثناء هذياناتها الشريرة
مبدأها الأساسي من عدم ثبات الكائن بمثل ما طبقته الديانة البوذية
من القوة ، ولا شرحت فكرتها المبدئية من أن كل كائن حي يحمل في
وجوده بذور موته بمثل دقتها . فهذا العالم ينشأ ويفنى ليحل محله
سواه ليفنى هو الآخر ويحيى من بعده غيره ثم يفنى كذلك وهكذا
بلا انقطاع ولا غاية . وكل نشوء وكل فناء يمتد إلى أجل من الزمان
ما أعظمه . والدمر (الكالبا) هو الزمن الذي ينقضى بين إحدى
تلك البدايات وإحدى تلك اللانهايات . وهذا الدهر بالغ من الطول
حتى لو أنك أمررت قطعة من أرق حرائر برانس مرة كل مائة سنة
على صخرة طولها وعرضها وارتفاعها ستة عشر ميلا وظللت تكرر
ذلك حتى تصبح الصخرة وحجمها حجم بذرة الأمانة المنجوة ، لما انقضى
ربع مدى الدهر . وهذا الزمن الكبير يشمل أربعة أزمنة دنیا يتم الهلاك
في اثنتائها وستة وخمسين مرة بالنار وسبع مرات بالماء ومرة بالرياح .
وقبل وقوع كل هلاك بمائة ألف سنة ينذر الناس به ولي يدعوهم للتوبة
والاستغفار ، وأعظم مرات الهلاك هي المرة الأخيرة التي تسببها
الرياح ، فهي تصل من الفضاء إلى حد أن لا تبقى من العالم كله ذرة
واحدة متناكسة . ويبقى الفضاء أمرا كل هلاك خالياً عبوساً ، حتى إذا
حانت الساعة قامت ريح فشقت بحجاباً فسقط منه المطر فأصبحت المياه
شلالات فامتلا بها الفضاء حتى يصبح أقيانوساً تحصى الرياح شواطئه
ثم تستقر الأجزاء الصلبة من بعد ذلك وتجمد بفعل الرياح ، وتهمس
المياه عنها فتظهر المناطق العليا : مناطق المخلصين والبراهمة والآلهة

واحدة بعد الأخرى . أما سائر العالم فيصبح أهلاً بعد ذلك بالخللاق العليا التي بقيت بعيدة عن تلك الصدمات ولا يتم بعد نقاؤها . وتندرج هذه الخلائق يكون في مراتب شتى ؛ فهي تنقص بادية الأمر صورة موجودات بريئة سعيدة غير ذات شكل ولا جنس وغير محتاجة إلى شيء ، بل هي ثورية هوائية . ثم تثقل الأجسام من بعد ذلك وتفسد من غير شعور منها وترتكس في حكم الرغائب والشهوات فتقتصر حياتها إلى أربع وثمانين ألف سنة بعد أن كانت غير ذات نهاية أو تكاد . وهنا يزايد الفساد فتقوم دطامات الملكية والحكومات والطوائف ويتدهور آلاف من الأحياء تثقلهم خطيئتهم فيصبحوا . ومنهم الحيوانات وشياطين الجوع ومن صبت عليهم اللعنة . وعند ذلك يصبح العالم كما تراه اليوم ويبقى كذلك ربع دهر يتراوح بين درجات مختلفة من الهبوط والنهوض متروكا لنفسه طوراً وتعيّنه البوذاط طوراً آخر . وفي خلال هذا الزمن تتراوح الحياة الإنسانية ما بين عشر سنوات وثمانين ألف سنة بحسب درجات شروء الناس أو فضائلهم — ونحن في هذا الزمن في عصر من أقصى العصور — وكذلك ندور عجلة الوجود الكبرى ، ولو نظرنا — ونحن في ذلك الركن الصغير الضيق الذي تشبث به قوم على برزخ — إلى هوى الزمن عن جانبينا وإلى وحدة الفضاء الهائلة حولنا ، إذن لما رأينا في كل التواحي إلا إمعاناً في تجديد التطور الخالد تجددًا يجعل من كل جد .

أى قوة تحفظ ذلك التجدد ؟ هنا تظهر الفكرة الخلقية التي يقوم عليها المذهب من جديد . فهذه القوة هي الفضل والنقص وهي الموجودة

وحدها ، والموجودة حيث يكون الوجود . وليس في هذه الفكرة شيء يشابه الأفكار اليونانية أو المحمدية أو المسيحية أو الحديثة . فليس ثمت قدر مستقل يحكم حياة الكائنات وإنما يصنع كل كائن قدر نفسه بفضيلته أو برذيلته . وليس ثمت قوانين طبيعية تربط الحوادث . وإنما يربطها القانون الخلقى . وليس ثمت إله مستبد يوزع الخير والشر بقوانين تحميهِ ، ولا إله عادل يوزع الخير والشر مثوبة أو جزاء ، ولا إله يدخل بين الفضيلة والسعادة أو بين الشقاء والشر ليفرق بينهما أو ليجمعهما . وإنما تتصل السعادة بالفضيلة طبعاً ، والشقاء بالرذيلة طبعاً ، كما يتصل الظل بالجسم . وكل عمل فاضل ، وكل عمل قوة من قوى الطبيعة . وبمجموع الأعمال من فاضلة ومرذولة هو وحده بمجموع قوى الطبيعة . « والنقص العام الذى يثقل بمجموع الأحياء هو السبب الحقيقى لهلاك العالم . والفضل العام الذى تمتاز به كل الأحياء هو السبب الحقيقى لتجدد كيانهِ » . ويتصل كل عمل بصاحبه اتصال الثقل أو ما يعضاده . فالعمل السىء يجر صاحبه لاهالة إلى الدرك الأسفل ، كما أن العمل الصالح يرتفع لاهالة بصاحبه إلى عليا درجات العوالم . وعلى نسبة هاتين القوتين يتحدد مكان صاحبهما على أثر كل ميلاد ويتكيف حظه عند كل قمص كما يكون رجحان إحدى كفتى الميزان بنسبة ما يكون في كل منهما من الأثقال . فادامت الروح تحت سلطان الشهوة . فهي تولد من جديد . وكلما ازداد سلطان الشهوة عليها كانت عودتها للحياة أتمس حالاً وأشق ، والتعلق بالأشياء وما يترتب عليه من سيء . الأعمال هو وحده سبب تجديد الميلاد ، ويمكن فيه ذلك الثقل الذى

يدفعنا إلى دركات هوة الحياة السحيقة الآلية بقوة . ولهذا كان في مقدورنا أن نتخطى القدر العام بإعدام هذا التعلق فننجو من تجدد الميلاد ونصل إلى الخلاص الأخير . وهذا مقام من الرفعة في العالم بمكان ولم يوضع الإنسان فيه أبداً . والإرادة عند البوذيين قوة لا حدة لها . تسمح للإنسان أن يصل إلى النروة من الأشياء . وأن يدخل الزفانا وأن يسمو إلى ما فوق الآلهة .

أما تلك السماء البديعة وهذا العالم (غير ذى اللون ولا الشكل) حيث تقوم البوذاة الكاملة وحيث تهزم الطبيعة ويتم الخلاص ، فيها مناطق أربع : منطقة فضاء لا حدود له حيث تمتد الحياة عشرة آلاف دهر كبير . ومنطقة الحكمة لا حدود لها حيث تمتد الحياة أربعين ألف دهر كبير . والمنطقة التي لم يبق فيها شيء مطلقاً وتمتد الحياة فيها ستين ألف دهر كبير . والمنطقة التي لم يبق فيها فكرة ولا لفكرة وتمتد الحياة فيها ثمانين ألف دهر كبير . ومن بعد ذلك تمتد الزفانا واللاشيء الصراح والقضاء الكامل وتدرج المناطق على هذه الصورة يبين لنا خطوات تقدم الصفاء الباطني . فترى التأمل يتضاءل وبعث شيئاً فشيئاً حتى يصل رجل الدين . بعد تركيز فكره عند نقطة ثابتة وبعد وقفات عدة إلى أن يطرد من ذهنه أفكار ، المقاومة والشكل والاختلاف ، وإلى أن يقصر تصوره على الفضاء الفرد الذي لا حدة له ثم لا يلبث هذا الفضاء على عظيم بساطته أن يفنى هو الآخر ولا يبقى منه أمام نظر المتدين إلا الفكرة غير المنتهية ، أو بالأحرى التصور غير المنتهى ، ثم يفتنى ذلك كذلك ولا يبقى أمام نظر المتدين شيء .

مطلقاً ، وعند ذلك يقف تصويره ولكنه لا يزال قصيراً على الجزم بأن ليس ثمة شيء ، وهذا الجزم شيء في ذاته ، فيعدم الجزم أيضاً . وعند هذا المرتقى لا تبقى فكرة ولا تبقى لفكرة « بل يقف الفكر والتصور ، ويكون الذهن قد أحل الفضاء في نفسه ملامشياً واحداً بعد الآخر ، الأشياء المختلفة والأفكار المختلفة وكل شيء وكل فكرة حتى تنجز مادته وحتى يصل تحت هذا الامتصاص الشديد إلى درجة العدم الصفر . وتلك هي الغاية والتمام والكمال الأعلى . فالخير الأعظم ليس في الخروج من الحياة لحسب ولكن من الوجود كله . وإلى هذا الخروج تصبو البوذاة خلال ملايين تطورات وجودها فتبلغه بعد تضحيات وأنواع من الزهد لاحتلها ، من ترك المال والحياة والجسد ، بل ومن ترك جسد وحياة أقرب من يحبون من زوج وولد .

ويجب لكي نفهم مثل هذا المذهب أن قلب كل عاداتنا الغربية رأساً على عقب ، وأن نمحو كل الألوان المظلمة التي تعميظها فكرة الفناء ، وأن لا نعبر بما عبر به باسكال من أنا نوضع أمام بؤسين متعادلين حينما ندعى إلى « الاختيار القاسي بين البؤس الخالد والفناء الخالد ، فإنما تلك قواعد تصلح للأجناس القوية النشيطة المتحمسة في التمسك بمطالبها والتي تحفز جودة طقسها أو قسوته نفوس أهلها . وتدفعهم ربح القوة وروح الأمل إلى الأمام . أما أساس المذهب في الهند قائم على مبدأ أن التضخيم يدعو للألم وأن الرغبة أس الشقاء وأن الحياة شر وأن فكرة السعادة تقابل الخلاص والطمأنينة . لذلك كانت الصورة المرضية التي تدور في نفس الإنسان أثناء أحلامه أن

لا يريجه مزيج، وأن لا يحس شيئاً، وأن يبقى أبداً في طمأنينة مثابته .
صحيح أن الأذهان الغفل وعامة الشعب ، وبنوع خاص من سكان آسيا
الشمالية الحثثين أولئك كلهم لا يتصورون هذه العقيدة في صفتها
التجريدية ويأبون إلا أن يزوا في الترف طمأنينة مادية ونوعاً من
السرور المحسوس ، ولم يعارضهم أحد في هذا التصور قصداً وذلك
لأن كل مبدأ يراد به أن يكون عاماً مضطراً للتوافق والتلاصق مع
سواد الشعب . على أن الفكرة الأصلية باقية على الرغم مما يفشاها في بعض
المواضع من التغيرات ، وهي كما هي لا تزال ذات جمال يجذب قلب
الإنسان ويجعله يحس لذة كبرى حين يصور لنفسه هذه المناطق الرفيعة
المطمئنة البعيدة كل البعد عن أن تصل إليها الاضطرابات الأرضية . وهذه
الأجسام الأثرية التي ترتفع من سماء إلى سماء فتزداد أثناء ارتفاعها
طهراً ونوراً وهؤلاء السعداء تظل فكرتهم ثابتة مطمئنة خلال آلاف
آلاف القرون ويشعرون أثناء ارتفاعهم بتساقط حواجز وجودهم
لتتغنى في الفراغ الهائل . وهم في ذلك كنقط الماء تبقى آلاف
الملايين من السنين تتلج وتسيل وتملح واضطرب باضطرابات أرضنا
العظيمة ثم تنتهي بأن ترتفع بخاراً يتهاوى بديعاً تحت الشمس التي
تحيله ذهباً ثم تزداد ارتفاعاً وندرة حتى لا يظهر إلا كالحجاب الشفاف
الناحل ويستمر في ارتفاعه بعد ذلك حتى إذا وصل إلى المناطق التي
لا تصلها الضجة والتي ينتهي فيها التغير وتنتهي فيها المادة بتلاشي في فضاء
الجو العظيم من غير أن يحس بتلاشيهِ .

ولقد وصلوا إلى أبعد من هذا مدفوعين بما يمتاز به النظر الهندي. من التعمق الذي يصل من كل مذهب إلى أقصى غاية يمكن الوصول إليها. ولأنهم والحق يقال هم والألمان نوابغ في العبقرية التجريدية حتى لا ييؤنان إلا جانبهم، على ما بلغوا من دقة، على جانب من الاستحياء والحيلة. والإنسان لاشك في حل من أن يقول غير مبالغ إن ذهن الإنسان لم يخترق أعماق الأشياء وجوهرها إلا على شاطئ الجنج والأسيرى، فقد طرحت المسائل العليا هناك من غير مبالاة بما يترتب عليها من النتائج الطائشة. أما فيما سوى ما هناك فلم يفكر أحد في إمكان عرض هذه المسائل. وقد أقدم الفلاسفة البوذيون على المساس بالغاية التي يرمى إليها مذهبهم، ولو أنك عاجلت طبيعياتهم المبتدلة ومناقضاتهم العوجاء ووصلت من ذلك إلى تبين آرائهم العامة إذن لرأيت أنهم، على الرغم من أسلوبهم، ومن ثمرتهم التافهة، لم يخشوا شيئاً وأنهم فهموا كل شيء: فهموا إمكان حدوث التغير وإمكان كون الموجود مع حتم انقطاعه عن الوجود أو إمكان ابتدائه إذا لم يكن. وكيفية انقلاب كل من الوجود والعدم في لحظة معينة إلى ضده بدل بقاء كل منهما على طبيعته. وكيف نفهم أن جوهر الشيء ينحصر في مناقضته لنفسه وفي إعدامه إياها؟ وهذه المسألة الأخيرة تتخطاها نحن اليوم، بل ولا نرد بيال الأكثرين من مفكرينا الذين يدعونها جانباً في عالم الإطلاقات العقيمة المجردة مع أنها هي أم كل المسائل. وفيها فصل البوذيون بقوة منطقية تدل على مبلغ إحساسهم بصوابها — قصدهم أن الوجود وكل الشرور تنبع عن اثني عشر

مبدأ ، وأنه إذا أمكن إعدام أحدهما انعدم ما يتبعه مثلاً يقطع الرجل الشجرة عند ارتفاع معين منها فيأتى بذلك على كل الفروع الناشئة فوق هذا الارتفاع . والجهاالة هي السبب الأساسى للشرور . ولا يقصد بالجهاالة ما تعارف الناس عليه منها ولكننا يقصد بها ذلك الخطأ الأصيل الذى يجعلنا نعتبر أن ثمت شيئاً حقيقياً . فذلك هو الوهم القديم وهو أصل الوجود وكل بلاياه . إذ ليس ثمت شئ حقيقى ، وليس ثمت وجود ، وإنما الكل فراغ وفضاء .

وعلى هذه النظرية بنى مختلف فلاسفة البوذيين وشادوا طبقة بعد طبقة . فقرر بعضهم أن الأشياء لا وجود لها إلا فى البرهة التى تراها فيها . وقرر آخرون أن الأشياء لا وجود لها البتة وأن ليس من شئ خارج عن الإحساسات الداخلية . وقرر غير هؤلاء أن هذه التصورات نفسها لا وجود لها وأن ليس فى داخلنا ولا خارجاً عنا إلا اللاشئ . والعدم المطلق — وفوق هذا الفضاء تموج مظاهر غاية فى الغرابة يمتد فى أقصاها سواد عظيم ساكن تنشر فوقه خزعبلات بأشكال وألوان مضطربة . فن اخترق أعماق هذه الحقيقة وجد أن لا معنى لكلمات الشباب والموت والنور والظلام والشكل والحجم والزمان والمكان ورأى أن كل الصور وكل الأفكار العامة ليست إلا أحلاماً مضحكة .

وإذ ذاك بصير شأنه شأن البرهمى الذى يرى العالم سرا با خداعاً يروج على سطح الموجود الثابت ، والآكاذباً يلبس فوق العدم الخالد فى سكينته فيحتقره وينأى عنه بجانبه . وبذلك يتم خلاصه وتحقق نجاته ويرتفع

غوى كل الأعمال ويمسك بيده الحقيقة العليا . وتلك هى غاية ارتفاع
الحكمة ، وشرع الشرائع ، والمذهب السكين فى النفس بحيث لا تعتبر
القواعد المتعارفة إلا تحضيراً مبدئياً . وانت ترى أن ليس هنا من
شئ ناقص . فلا البحث الصوفى الذى يحسب الوقت ويقيسة إلى حد
يذهل البحث دون ما كرس من إعداده . ولا البحث الفاسفى الذى
يستخلص المبدأ ويتبعه حتى يصل عند منتهى قواعده إلى الزهول
وسط كل ما أنتج بسبب عظم المجهود الذى قام به .

(٤)

العمل

توجد في الأنظمة كما توجد في المبادئ قوة كينة هي السبب في نموها ، فالرسول يتحول ويتكامل كما تتحول كلمته وتتكامل حتى ينتهي الأمر بأن تقوم الكنيسة إلى جانب اللاهوت (الكلام) . لذلك ، فبينما يقوم القائمون بجمع المذهب وترتيب أجزائه وبالتركيز عليه بمعونة المنطق والخيال والعلم المعصرى وبتفخيمه بالشعر وبشئيته بالقواعد وتعظيمه بالفلسفة ، وبينما تصبح الأقاصيص والنصائح والخطب التي يلقونها المعزلة تحت الشجر بمجموعاً ضخماً من مضاريات نظرية تشمل كل ما في العالم من منظور وغير منظور ، إذ يقوم من الجانب الآخر من يعني بوضع النظام وبتحديد واجبات أعضائه ووظائفهم وبترتيب ذلك وتوسيمه حتى يرى العالم حكومة عظيمة تقوم وريداً وريداً مشتملة الجمعية بأسرها في دوائرها المتباينة . وكذلك تنتهي الحال بأن يقوم البناء الكنائسى . وقد قام العمل المستمر على مر القرون إلى جانب البناء الروحى ، يتقدمان جميعاً إلى الإرادة وإلى الفكرة الإنسانية ويتحركان فيهما ويصبحان للإنسان ملجأً وسجناً .

والطريف والجمهورى في نظام ساكيامونى أنه أنشأ نظاماً جامعاً للمبتدئين . فقد كان المتصوفة والمعزلة موجودين من قبله ، لكنه كل

أول من جمع هؤلاء المشتتين في وحدتهم بأن نادى إليه كل ذوى العزم من الرجال بلا تمييز بين جنس أو طائفة . ثم أنشأ منهم نظام متسولة اعتزل أهله الملك والأسرة ونذروا الفقر والطهر ، فكانوا النواة التي أظهرت اتفاق النظام الأساسي مع المبدأ الأساسي اتفاقاً يحمل الأول يقتضى الثانى اقتضاء . ويظهره محسوساً وينبئ عليه بدقة لا تجعل محلاً للاختلاف بينهما إلا بمثل ما يختلف الظاهر عن الباطن . لما تكون مثل هذه الجماعة لتزرع الإنسان من أثرته وأنايته فقلسه إلى التقشف والزهد . لذلك كان من زهد من الجماعة متسولاً دينياً .

وفى تلك العصور القديمة سمح للناس من كل الطوائف والمراكز والأعمار كما سمح للأرجاس والمجرمين والشيوخ والمرضى أن ينضموا للجمعية الجديدة ماداموا يؤمنون بيوذا أو بهجرون العالم ، أما المتدينون فلم يسمح لهم أن يلبسوا إلا ملابس مقدرة مكونة من رقع تجمع من المناير ومن فوق أكوام القدر ويخاط بعضها إلى بعض . وقد أقام بعض هؤلاء المتدينين فى الغابات ، والتجأ بعضهم إلى جذوع الشجر . وظل آخرون فى الفضاء ، ونزل البعض فى المقابر . ذلك أنه كان من واجب المؤمن الصحيح الإيمان أن يشابه حيوان الغاب فلا يستقر إلى مأوى ويطلع غذاء فى غير المسكان الذى أطعم فيه اليوم وينام أنى وجد . ولكن المتدين كان يحيط نفسه دائماً بجماعة من الصحاب ليؤدى ما كان مكلفاً به من تعليم الناس الحقيقة ودعوتهم إلى الدين الجديد . ثم تطورت هذه الجماعات الصغيرة المتجولة من غير شعور منها وأصبحت جمعيات كبيرة ذات مقام ثابت . ونزل المعتزلون الملتجئون لله الغابات من

عزلتهم وقضاموا احتفاء من شرور البرامعة . ولما كان النساء كلرجال مدعوات لاعتناق الحياة الروحية فقد كن مدفوعات بطبيعة جنسهن للاحتفاء في الجدران ، واضطر المتقشفة أيضاً للدخول إلى المدن إبان فصل الأمطار . وبذلك انتهى أمر الجماعات الدينية التي كانت تعمل لإقامة الدين فأصبحت لها مراكز ثابتة . وعلى هذا النحو تكونت الطوائف وقامت الكنيسة . ثم انتظمت الكنيسة رويداً رويداً فرسمت قوانينها ووضعت قواعدها وقررت شرائط الاقتساب لها .

وغالب الأمر اليوم في من يتقدم لهذه الكنيسة أن يكون طفلاً قد حلق رأسه واغتسل ليحضر أمام القسيس الذي اختاره أبا روحياً له فيبدي إرادته في التنصل من الأشياء فيلبسه القسيس الثوب الأصفر ويقص له مؤخرة شعره ويلقى عليه القواعد العشر لدراستها . ويبقى هذا القتي إبان تمرينه تلبس أبيه الروحي وغادمه . فإذا بلغ العشرين من العمر وتعلم عدداً معيناً من الطقوس والصلوات وفي متديناً ودفعت إليه المظلة وتسلم الوعاء المعد لتلقى الإحسان وارتدى صدرية وقيصاً ينزل إلى ركبتيه ومعطفاً يعلق على كتفه الأيسر ثم ذهب مقسولاً يأخذ في وعائه الطعام الذي يدفع إليه ويأكله في الوعاء نفسه ، وذلك كل ما له وما عليه ، لأن القاعدة المقرر عليه اتباعها تدفع به إلى التخل عن كل شيء .

وهو — جرياً على هذه القاعدة — يترك أهله ويصبح ولاوطن له . ويحتم عليه أن لا يبكي موت أبيه ولا وفاة أمه . ويظل ولا زوجة له

ولا ولد . فإن كان له زوجة أو ولد تحتم عليه تركه لأن الخطر على المتعلق بزوجة أو ولد أو مال أو بيت أكبر من الخطر المتعلق على رأس المسجون المغفل في الأصفا . فقد تصادف هذا الأخير فرصة سعيدة تخلصه من سجنه على حين يبقى الآخر كمن يكون بين فكي نمر . ثم إن أعرق أصول الشر اشتها المرأة ، ولو أن في الإنسان شدة وقوة مثل ما فيه من شهوة ما كان لأحد إلى الخلاص من سبيل . فلا تنظر أيها المتدين إلى النساء ، وإن لاقيت امرأة فاغضض من طرفك ولا تخاطبها ، وإن أنت خاطبتها فاذكر دائماً في دخيلة نفسك أنك متدين وأن من واجبك أن تكون في هذا العالم الفاسد كالزهرة النقية البيضاء . ويجب أن تنظر إلى المرأة العجوز وكأنها أمك ، وإلى من هي أسن منك وكأنها أختك الكبرى ، وإلى من هي أصغر منك سنّاً وكأنها أختك الصغرى . والأوامر البوذية في هذا الشأن عدة : فلا يصح لمس يد امرأة ، بل ولا يد فتاة ولا الدخول في زورق تمسك امرأة بمجاديفه ولا أخذ الإحسان من يد امرأة .

هذا والأمر في شأن التملك يوازي الأمر في شأن الملذات صرامة وشدة . فليس للمتدين أن يمتلك سوى أشياء ثمانية : فاقطع الثلاث التي يتكون منها لباسه ، ثم مشد وسطه ، ووعاء الإحسان ، وقدر الماء ، وموسى ولبرة . وعليه أن يعيش من الصدقة من غير أن يطلبها وإنما يتقدم بوعائه من غير أن يحدث أى حدث أو حركة تدل على وجوده ، ومن غير أن يبدي أنه جائع ، ومن غير أن يطلب شيئاً بإشارة أو بحركة أو بكلمة . ثم إنه يرتكب خطيئة إذا هو أخذ أكثر مما يلزم

لاكلته . وليس من حق أن يطعم شيئاً بعد الظهر أو أن يتناول الطعام لذته . وإذا مرض لم يكن له أن يطلب دواء . وليس له أن يأخذ ذهباً أو فضة أو أى متاع آخر ، وإنما للدير وحده حق التملك .
أما الأمر الثالث الخاص بالطاعة فالتشدد في شأنه أقل منه في شأن الأوامر الأخرى . ولئن وضعت القواعد المتدين تحت أوامر رئيسه وأزمته في غير موضع الطاعة والاحترام فإنها كانت من ناحية أخرى تأمر بوجوب التوفيق وتعتبر كل قائل بالتفرقة بين المتدينين مرتكباً لإحدى الخطيئات الخمس القتالة .

ذلك هو الإنسان في نظر البوذية العميقة ؛ غير أن للتهاون والفساد في الحياة العملية ولا شك نصيباً . وقد عمل الجدول ليطوى القواعد علماً تتفق به مع الطبيعة كما انتشرت المفاسد التي نخرت أديرتنا أيام لعصور الوسطى في معابد سيلان والتبت والصين أيما انتشار . لكن ذلك كله لم يمنع فكرة بوذا أن تتم ولم يحل دون نظامه أن يضر الإنسان كما تضر «المونة» البناء . ففسد فيه كل منفذ يمكن أن تنفجر منه ينابيع الشهوة أو قوة الرغبة .

والآن فما هو مصير هذا الإنسان المنظم المخفف الشهوات . وماذا ردء عساه يصنع ؟ إن كل تغيير في الطبيعة الإنسانية يمر إلى تغيير مقابله في الجمعية الإنسانية ؛ ومصلح الفرد يصلح الجماعة بالتفاعل . لذلك جر تطهير الفرد إلى إدخال السلام على الحياة الاجتماعية فخطرت لتضحيات الإنسانية التي كلز البراهمة يقومون بها وألغى حكم الإعدام

بشهادة السائحين الصينيين الذين زاروا الهند في العصور الوسطى
واقطع الناس عن تضحية الحيوانات وهجر الملوك والأمراء الذين
اعتنقوا المذهب الجديد مسارح الصيد الفتاك . ثم غلا المذهب بعد
ذلك حتى لم يكفه منع حروب الاستيلاء فنح كذلك حروب الدفاع .
أما الصدقة فقد صارت واجباً يؤدي حتى إن ملوك البوذيين في اجتماعهم
العام كل خمس سنوات كانوا يعطون كل ما توافر لديهم ، بل وجواهرهم ،
للساكنين واليتامى ومن لاعائل لهم ، وذلك عدا ما كانوا يعطونه للتدنيين .
ثم إنهم كانوا ينشئون المستشفيات وملاجئ الفقراء والتسكيا ويفرسون
أشجار الفاكمة ويحفرون مجارى الماء للسائحين وعابرى السيل .
وكانوا يقيمون ملاجئ للحيوانات كما كان بعض الأتقياء في سيام
ومنغوليا يفتدون العصافير والأسماك ويعيدونها إلى حررتها . وكان
غير هؤلاء يننون ملاجئ يضعون فيها الطعام لحيوانات الغاب خصوصاً
إبان فصل نتائجها .

على أن ما كانت تنطوى عليه هذه الجدة الأخلاقية من التسامح
كان يزيد أمرها غرابة ؛ فقد كان البوذيون حسنى الظن والرأى في الديانات
الأخرى ، وكانوا يعتبرونها جميعاً أشكالاً دنيا من الحقيقة الحقة حتى لقد
أمر درما سوكا أول عظماء ملوك البوذيين وقسطنطين الديانة الجديدة
بتبادل الإحترام والوثام بين جميع الطوائف وبأن يكون أتباع
كل مذهب أغنياء في الحكمة سعداء بالفضيلة ، ثم ذهب البوذيون
لأبعد من هذا فامتدت عاطفة المحبة عندهم إلى كل الأجناس كما امتدت
إلى كل الطوائف وصار الأجنبى يعامل بينهم كما يعامل ابن الوطن

ولا يبعد ولو كان مبشراً مسيحياً . ولقد شرب السامخ وترين ، الشاي في وعاء كان يشرب فيه السلاما الأكبر . ولم يبق عندهم أطهار ، ولا غير أطهار .

وقد كان من أثر ذلك كله أن استفادت الحياة العائلية من احتكاكها بالقانون الجديد على الرغم من اعتباره إياها في المحل الثاني ، فقد جاء في هذا القانون : « خير أن يكرم الإنسان أباه وأمه من أن يخدم آلهة السموات والأرض . ولو أنه حل أباه على كتف وأمه على الآخر مدى مائة عام لما جزاهما بذلك عما قدما إليه ، فكذلك قد تحسنت حالة النساء وزال اعتبارهن رقيقات كما كان الشأن في البلاد الإسلامية ، أو دأوعية رجس ، كما كن يمترن في البلاد البراهيمية ، وسمع لهن بالخروج والتزاور وطرح الحجاب ، وأصبح الزواج من واحدة قاعدة وأمرأ .

وليحيط الإنسان بكل التطور الذي حصل يتحتم عليه أن يلاحظ ما تم في منغوليا والتبت وسيلان والممالك الأخرى التي امتد سلطان الدين الجديد فيها ، فكلنا نعرف جنسكينخان وتيمورلنك وقموتهما وتخريبهما ، ونعرف ما شادا من أهرامات حجارتهما رؤوس الرجال ، ومن أبراج جدرانها الأجساد وموتها الدماء . أما اليوم فخرائم القتل والنهب نادرة في منغوليا نددتها في أوروبا المتمدينة ، وكذلك أصبح اليوم أهالي التبت الذين ظلوا تحت تأثير طقسهم العبوس العميم في درك الوحشية المخجلة والذين كانوا يأكلون موتاهم كأنهم ذئاب

الثلوج الجلياع ، شعباً رقيقاً متعلماً ، بل يكاد يكون بمتديناً . أما أهالي
سيام فقد رقت فظائع ضعفهم وخفت اعتداءاتهم الدموية وعنتهم
وقسوتهم إلى حد أن لم يبق في بانكوك — وهي مدينتهم الأولى يقطنها
أربعمائة ألف من السكان — نزاع ولا شجار ، وأصبحت جريمة القتل فيها
حادثاً غريباً لا يرى أغلب الأمر مرة في كل مائة سنة . والخلاصة
أنك في حل من أن تقول إننا لو جمعنا كل ما في حياة آسيا المدنية
والمزاية اليوم من دعة ورقة لكان لنهر البوذية الحظ الأكبر
من ماء بحر السلام .

على أن البوذية لطفّت الإنسان باستهلاكها نفسه . وقد كان شأنها
في ذلك شأن الإنسان يصل بالحيوانات المتوحشة من أنوار وأعز
لتكون نعاها ويجو لا تحبس في حظيرة لتعيش عيش الإخاء وتعاد إلى
مرعاهما ككنة مطبنة الخطى . فإذا صح أن هذه الحيوانات تصبح
في حالها الجديدة أقل من قبل إضراراً بعضها ببعض ؛ إلا أنها تصبح
مع ذلك خلائق محترمة وضيعة . ولو أنك قارنت الكتابات البوذية
بالكتابات البرهمية لهلك الفرق من أول نظرة . فقد اندثرت
نخامة شعر اليورانات ، وخبا الاندفاع ، وخذت تلك القفزات الذهنية
التي كانت تحيط في لحظة بالسماء والأرض والعالم كله وتشترك في عظمة
الطبيعة وخصبها ، واضمحلت عظمة الشعور وروائه ، وخفت روح مانو
العظيمة وذهبت رقة الرباعيات البشيمة وولت تلك القوة النادرة
التي كانت للمعاطفة وللإبداع القديم . وأصبحت الكتب البوذية
— ومعظمها من كتب التساوسة — مسهية مضطربة تذكرنا بسقوط القرن

الخامس عشر المدرسى وبهوس الثروة البيزنطية . ودل عدم تماسك الأسلوب على أن الإنسان أصبح لا يستطيع التفكير لجعل يعيد أدلته ويكررها بتطويل وإملال . وصار الحوار والجدل عنده أشبه بما يكتب في كراسات التلاميذ . ولم يبق له شيء من الآراء المحيطة العامة الملهمة للحظتها ، وانقطع كل جميل وكل عظيم عن أن يدخل إلى نفسه دخول البرق في النظر . ووقف عند تكديس المكررات تكديساً يحيل إليك معه أنه جالس يعد ويعيد ملايين الملايين حتى يذهل تحت أكداش الأعداد ، ولم يبق لبوذا على نحو ما يصدره البوذي فوق محرابه شيء من الرجولة وإنما هو جسد رخو سمين يشبه صدره وبطنه صدر المرأة وبطنها ، ويتم مظهره عن سكون بليد وطمأنينة راضية يصلان إلى حد الابتسامة البلهاء .

من السهل أن يفهم الإنسان أن أمثال هؤلاء الرجال لا يمكن أن يكونوا قد وقفوا في وجه السلطة ، بل ومدوا بأعناقهم للاستعباد مثلاً فعل أهل القرنين الرابع والعاشر في أوروبا . وكما انشطرت الجمعية المسيحية في القرنين الرابع والعاشر كذلك انشطرت الجمعية البوذية إلى شطرين : سواد الشعب وتلك هي الطائفة المنحطة التي ظلت مرتبطة بالعالم وبالأسرة وبالعمل وبقيت عاجزة عن الوصول إلى الدرجة الرابعة من درجات القداسة . والمتدينين وتلك هي الطائفة الرفيعة العاطلة غير ذات الأسرة والتي هجرت خيرات الأرض وشغلت بتحصيل الفضائل الروحية .

ورجل سواد الشعب مكلف أن يطعم المتدينين . وقبول المتدينين الإحسان

من رجل السواد إحسان إليه . ذلك بأنه لو أتيح لأحد رجال الشعب أن يملأ بالجواهر السبع ألفاً من ثلاثة آلاف العوالم ثم قدمها لمتدين لما عدلت شيئاً إلى جانب الخزان الروحية التي يشركه المتدين فيها يقبوله عطاءه . وكلما ازداد المتدين قداسة كان العطاء أكثر مشوبة . لذلك كان إطعام متدين أكثر مشوبة من إطعام ألف من سواد الشعب المؤمنين . وطعام قديس من الدرجة الرابعة (١) أكثر مشوبة من إطعام ألف من سواد المتدينين . وإطعام بوذا في يد بوذيته أكثر مشوبة من إطعام مئاة الألف من متدني الدرجة الرابعة . وإطعام بوذا كامل أكثر مشوبة من إطعام مائة ألف من البوذات المبتدئين . ويكفي أن ير الإنسان النظر على هذا التدرج العددي وحده ليرى مبلغ ما كان لإكليروس البلاد البوذية من المسكاة وما حصلوا عليه من ثقة . ثم إن السواد من أهل منغوليا والتبت المتحمسين كانوا يركعون أمام المتدينين المشهود لهم بالقداسة رجاء قبول ما يقدمونه لهم من التذوق . وكان المتدينون والمتدينات يقدرون بخمس عدد سكان التبت وبثلث سكان منغوليا . كذلك نص في الشرع على أنك تصل إلى أرفع درجات الحكمة إن أنت أكرمت اللامات كما أنك تضيع ، إذا أنت واجهت المتدينين . ياهانة ، كل ما كسبته من فضائل مدى آلاف عدة من وجوداتك . وهذا النص يزيدك بياناً كيف كانت حال الجمعية الإكليركية في سداهاة ولحقها . فإذا أنت لاحظت أخيراً أن اللاما الأكبر يعتبر في تلك

البلاد صورة لبوذا وإلهاً على الأرض ، إذن لرأيت بجلاء مبلغ التحكم الإكليريكي تحسكماً يشابه ما كان في أوروبا في القرن الثاني عشر حين وضع الإكليروس يده على تلك الأراضي في إنكلترا وعلى نصفها في ألمانيا ، وحين أقام البابا نفسه سلطاناً على الملوك والقيصرة .

للطاعة والوهم مصدر واحد . ذلك بأن الذهن المضطرب الأعصاب العاجز أن يحكم بنفسه سريع إلى أن تحتله العقائد الجنونية ، وهو يهوى إلى لجة الوهم والحلم بسبب حرمانه التمييز ، ويؤدى به ضعفه ليرتكس وسط التخيلات الصيانية . وليس شيء يعدل أو هام البوذيين في سرفها وتطرفها حتى لتجل معجزات الخزانة المذهبية (La legende Dorée) عن الاقتراب في السرف منها . فإنك تراهم يدكون الأرض دكا ويتعذبون بسير آلاف ملايين الآلهة يتحكمون في السماء والأرض ، كل ذلك مع الإسراف في المبالغاة الصيانية والثروة القديمة العقيمة التي تسرع بك إلى التفرز .

والولى والقديس البوذى قدير على الإتيان بالمعجزات ، قدير على أن يحيط بكل الخلاق وبكل العوالم نظره ، قدير على أن يسمع كلام العوالم جميعها وكل ما فيها من حجة . ثم هو عليم بأفكار كل الموجودات ، ذاكر لكل حيواناته السابقة وحيوان كل من سواه . وللبوذات المبتهدين والبوذات الكاملين من تسمو مرتبتهم على مرتبة الأولياء . قوى أغرب وملكات أعجب . ولو شاء كاتب تسطير ما يمتاز به البوذا الكامل لامتدت صحائف كتابه من الأرض حتى تحمل إلى سماء برهمة فيحسبه من علامات الجمال ، اثنتان والثلاثون علامة

ممتازة وثمانون علامة ثانوية . وإنه ثمان عشرة مستقلات
Dependances وسبع وثلاثون مجموعة Accompannements
وأربع أسس ثقة وعشر قوى . فإذا انتهى البوذيون من تضخيم إلههم
على هذا النحو عادوا إلى تحليله . وعادوا إلى ذلك بادعاء ثقل يعيرون
به على اندفاعهم الآخرق .

طبيعى أن يؤدى ذلك كله بهم إلى الجود وإلى العبادة الآلية .
فإن الذهن المكسود ميال للاندفاع الأعلى في هذه السبيل . وميال
إلى ذلك رغم ما وضع به صاحب المذهب السلام فى دائرة الإحسان
والهدو وحكم النفس ، ورغم تزويه الدين عن المظاهر الخارجية . وذلك
لأنه ما دامت النظرة الثابتة الحرة التى تميز بين الشكل والموضوع
مفقودة فإنما بالشكل يستمسك الرجل إذ يجد الإمساك بالشكل
الملبوس أهون من الإحاطة بالحقيقة غير المنظورة . ومن هنا تنقلب
العبادة عنده تقديساً للأصنام فيركع أمام بوذا وسواه من الأولياء
ويقسم لهم صوراً وتماثيل عدة ، ويؤدى إليهم فرائض العبادة ويقدم لهم
الأعياد تيمناً ، ويبني الأهرامات والمقامات للاحتفاظ بعظامهم
وأسنانهم وأردبتهم وبالأوعية التى يجمعون الإحسان فيها . ويشترى
المكرفاتهم وبها ياهم بأثمان باهظة . ويصحب المتدينون من مختلف
الانقطار الآسيوية ليسجدوا أمام آثار أقدام بوذا وليلأوا الكنائس
المقدسة بالتذرر . وإنك لتقرأ فى أسفار الحاجين من أهل الصين
مبلغ ما يقاسونه من المتاعب والأخطار أثناء رحلات يقدمون عليها
يكل تقان وإخلاص . وطبيعى أن ينتظر الإنسان من عقل وصل إلى

مثل هذا الدرك أغرب الأمور وأعجبها . فالتاس من كل الطبقات في بلاد المغول والتتر رجالا ونساء يمضون يومهم في تلاوة الأدعية لا يمنهم عن التلاوة سير ، أو طعام ، أو لعب ، وأخص أدعيتهم اللسان ذو المقطوعات الست .

وهم في سيلان وفي المغول يتلونه أغلب الوقت بلغة لا يفقهونها ، وكلما ازداد الشخص تلفظاً بهذه الأدعية أو كتابة لها أو طبعاً لإياها ازداد ثوابه . وقد جهر الطمع في هذا المزيد إلى استبدال الماكينة بالإنسان ، وذلك بأن ملئت اسطوانات مخروطية الشكل بأوراق صغيرة نقشت عليها الصلوات والأدعية وعرضت في الطرق العامة وفي المعابد وفي المنازل ليديرها من أراد فيكسب من الثواب كأنه تلا كل الأدعية الموجودة طي تلك الاسطوانات ، ومنها ما بلغت ضخامته حتى صارت صورة الصلاة المقدسة منقوشة مائة مليون من المرات وقد ناط بعض ذوى التقوى لإدارة اسطوانة الأسرة بخادم خاص كما أقيمت طواحين الماء والهواء لأداء هذه الوظيفة . ولقد دهش السائحون لما رأوا تدهور الحال العقلية حتى عند أهل الجنوب بسبب توجيهها في هذه السبيل . فقد بدت سيا البله على الأكثرين من القسيسين حتى ترى أغلب هؤلاء التعساء يهذون أثناء سيرهم وتطرق ثغورهم ابتسامة الضباوة ونظرتهم خلاء ، أما حالهم العقلية فهي بمنزلة حال الحيوان أوتكاد . وبمثل هذا الوضع الديني وتحت حكم هذا النظام يصبح الرجل صنماً .

هذه هي الديانة التي تعتبر الحادث الأكبر في التاريخ الآسيوى —

ورغم أنها في أصلها خلقية إنسانية. صرقة فقد تطورت واختلطت على مرّ القرون ، وما أطولها قصة دينية ؛ قصة تطورها التجريدى والقصصى وتقلباتها الكفرية (Payenne) والبرهمية . ومع أنها كانت هندية بحثة في نشأتها فقد امتدت في الشمال وفي الجنوب حتى شملت الهند الصينية ، والمسكة برما والصين واليابان والمغول وسيبيريا والتبت وإيران وطوران . وقصة تقدمها المائل وهزائمها الجزئية ونضالها ضد عباد النار وضد المسلمين والبراهمة والأشكال المختلفة التي تشكلت بها عند الأجناس المختلفة وفي المدينيات التي دخلتها أطول من قصة تطورها وتقلبها . ولو أراد الإنسان في هذا الاضطراب المتعرج الضخم الذى احتل أكبر القارات مدى خمسة وعشرين قرناً أن يستجلى وأن يحدد المظهر الأساسى لهذه الظاهرة لصح له أن يقارنها بعملية جراحية مفيدة ومضعفة أسيل فيها دم الحيوان الإنسانى ، وقد كان على نفسه قوياً قاسياً ، من أربع مفاصله لجعله ما ضاع منه ضعيفاً رقيقاً . وبذلك أصبح أقل نشاطاً وأكثر للاجتماع قابلية ؛ ومن ثم صار أقل خلقاً وأقل إتلافاً .

الفصل الرابع

غاندى

(١)

غاندى والسلام

لم يفكر غاندى فى السلام العالمى فى عشرات السنين الأولى من نشاطه السياسى . ولعله لم يفكر فى هذا السلام العالمى أبداً على النحو المألوف اليوم عند أنصار السلام فى الشرق أو فى الغرب . لكن نشاطه وتفكيره كانا يؤديان بطبيعهما إلى السلام . سواء فى داخل الشعوب ، أو فيما بين الشعوب .

وكان طبيعياً ألا يفكر غاندى فى السلام العالمى فى الأطوار الأولى من نشاطه فى جنوب أفريقيا ، ثم فى الهند . ذلك أنه ابن أمة كان يحكمها الأجنبي بالقوة المسلحة ، بعد أن استولى عليها كذلك بالقوة المسلحة . وكان غاندى يحسب — إلى ما بعد الأربعين من سنه — أن هذا الحكم الأجنبي قضاء محتوم فرضه القدر على وطنه ، فلا سبيل للتخلص منه ، إنما الخير كل الخير فى مداراته لاستخلاص ما يستطيع استخلاصه من برائته لفائدة الشعب الهندى . فلما رأى هذه السياسة غير المؤدية

إلى الغاية المرجوة منها تطور تفكيره شيئاً فشيئاً حتى انتهى إلى ضرورة جلاء بريطانيا عن الهند ، وإلى استقلال هذا الوطن العزيز عليه . فلما بدأت نذر الحرب العالمية الثانية بدأ يفكر في السلام وصيائمه تفكيراً يتفق مع دعوته « عدم التعاون في غير عنف » ، على أنها أمضى سلاح لتحقيق غرضه الأساسى ، استقلال الهند وحرية بنيا جميعاً .

وقد كان التطور في التفكير بعض ما تميز به غاندى عن كثيرين من الدعاة وذوى المبادئ الثابتة . صحيح أن أفكاره الأساسية لم تتغير ، بل بقيت ثابتة منذ بدأ جهاده في جنوب أفريقيا إلى أن مات . لكن هذه الأفكار الأساسية كانت تصور نشاطه العملى أكثر مما كانت تصور اتجاهاته الذهنية في رسم المبادئ التى يراها واجبة لخير الإنسانية . أما هذه الاتجاهات الذهنية فكانت دائمة التطور . وأحسبها كانت ستبقى كذلك ، وأن العالم كان يفيد من تطورها الشيء الكثير ، لو أن حياته لم تنته بمقتله ، ولو أنه مد له في الحياة إلى الأجل الذى كان يرجوه لنفسه .

وغاندى يقر هذا التصوير ويقرره . طلب إليه بعضهم أن يكتب رسالة يسرد فيها مبادئه التى تقوم عليها رسالته . فكان جوابه : « لاني رجل عمل ولست رجل فلسفة . وكلما عرضت لى مشكلة دويت فيها واستخرت الله وصليت له فهدانى إلى الخطوة التى أتبعها لمواجهة هذه المشكلة ثم وفقنى في هذه الخطوة كل التوفيق . »

لست أقصد من هذا إلى أن آراء غاندى واتجاهاته تناقضت

أو اضطربت ، وإنما أقصد أن هذه الآراء أو الاتجاهات كانت دائمة التوالد . فهو لم يقف قط عند فكرة يكررها ويردها ، بل كانت أفكاره حية حياة الإنسان وحياة الوجود ، تخلق كل فكرة منها ، فكرة جديدة وخلقاً جديداً يتطوران إلى فكرة وخلق جديدين تتصل كلها بالفكرة الأساسية التي وجهته منذ نشأته السياسية ، والتي لازمتها طيلة حياته .

وهذه الفكرة الأساسية تلخص في كلمة واحدة : الكرامة الإنسانية ؛ الكرامة الإنسانية لكل رجل ولكل امرأة في الحياة الفردية الخاصة وفي الحياة العامة ، والكرامة الإنسانية للجماعة في القرية وفي المدينة وفي الولاية وفي الشعب بأسره وفي الجماعة الإنسانية . أينما كان أفرادها وجماعتها . الكرامة الإنسانية يتساوى فيها الجميع بلا فارق بسبب الجنس أو اللغة أو الدين أو الطائفة أو اللون أو أى اعتبار آخر . الكرامة الإنسانية الأصلية في الإنسان بفطرته ومن يوم نشأته أيا كان العمل الذي يزاوله .

لم تكن هذه الفكرة الأساسية التي قامت عليها حياة غاندى ، والتي وجهت نشاطه ، نتيجة تفكير طارىء أو نظرة فلسفية خاصة ، بل كانت بعض نفسه وقوام حياته منذ مولده . تربى في ضوئها ونشأ في أحضانها . كان أبواه كريهين المحتد ، وكان أبوه حاكماً محبوباً ، وكانت أمه نقيّة وروحة صالحة . وكان أساس تنشئته الصدق . لما أتم دراسته الثانوية في الهند وفكر بعض أهله في إرساله لدراسة القانون في إنجلترا عارض آخرون ، ثم لم توافق أمه على سفره إلا أن يقطع على نفسه .

عهدا في ثلاثة أمور : ألا يأكل لحما ولا يشرب خمرا ولا يقرب امرأة . وقطع الفتى على نفسه هذا العهد ووفى به لأن الصدق كان بعض فطرته ، فكان يراه من موجبات الكرامة الإنسانية ، وكان لا يعدل به لذلك في الحياة شيئا .

فلما عاد إلى وطنه محاميا ثم ندب في قضية إلى جنوب أفريقيا لم يلبث أن واجهته التجربة القاسية الأولى التي وجهت حياته من بعد . كانت القوانين والتقاليد في تلك البلاد تفرق بين البيض والملونين من سكانها تفرقة تهدر كرامة الملونين ، فلا تبيح لهم أن يتساوا مع البيض في المتاع بما يشاءون من ألوان الحياة . وقضت التقاليد أن ينزع غاندى من مجلسه في عربة الدرجة الأولى بسكة الحديد رغم أنه يحمل تذكرتها فأبى فألقي به من القطار فبات على طوار المحطة . وعومل مثل هذه المعاملة حين ركب مع جماعة من البيض عربة تبحرها الجياد إلى جوهانسبرج . عند ذلك ثارت نفسه وأخذ يقص على بنى وطنه من الهنود ما أصابه فيبتسمون ثم يجيبونه بأنهم يعاملون بأقصى ما عومل ، وأنهم ألفوا هذه المعاملة ، وينصحون له أن يسكن إليها فلا سبيل إلى خير منها . وازدادت ثورته لما سمع . إن كرامته الذاتية لم تكن وحدها إذ هي التي تهدر ، بل كرامة أبناء وطنه المقيمين في تلك البلاد ، ومن ثم كرامة وطنه . وكرامة هذه الجماعة الإنسانية الضخمة التي تضم مئات الملايين . كيف لا يدافع قومه عن هذه الكرامة . إن عليه أن يؤلبهم للدفاع عنها وأن يلتبس الوسيلة للظفر في هذا الدفاع بما يريد .

ولكن كيف يؤلبهم . وأى سلاح ينتضيه معهم لمقاومة هذا العدوان على كرامتهم . إنه يعلم وأنهم يعلمون لأنهم إن فعلوا فيخلوا بالنظام أخذهم القانون بقسوته ، ثم أهدرت مصالحهم ، ولم يجد أكثرهم لقمة العيش الذى اغترب عن وطنه فى سبيل الحصول عليها . أفستطاع والحال هذه جمع كلتهم ، وبث الطمأنينة فى نفوسهم وحملهم على الدفاع عن كرامتهم الإنسانية ولو فقدوا لقمة العيش . فى هذا فكر غاندى . وهداه تفكيره إلى ضرورة إقناعهم جميعاً ، أغنياء وفقراء ، تجاراً وصناعاً وعمالاً ، بأن الكرامة الإنسانية أغلى من المال الذى نكسبه من التجارة ، ومن الجاه الذى نجنبه من الغنى ، ومن لقمة العيش التى يتصعب جبيننا عرقاً فى سبيلها . وإن القوانين والتقاليد إنما تفرض عليهم ما يبرخ كرامتهم الإنسانية فى التراب لأنهم يرضون تمريضها مقابل ما ينالهم من نفع مادى ، وأن الحكومة وجماعة البيض الذين يعاملونهم هذه المعاملة فى حاجة إلى عمل هؤلاء الهنود وإلى مهارتهم فى هذا العمل ، ولولا هذه الحاجة لما أبقوا عليهم ، بل لأخرجوهم من البلاد . وإن عدم تعاون هؤلاء الهنود عمالاً وتجاراً وصناعاً مع البيض ومع الحكومة يشل الحياة الاقتصادية من غير حاجة إلى أية مقاومة إيجابية أو مخالفة للقوانين ، وإن سلطان القانون لا يمكن لذلك أن ينال هؤلاء المعتمدين بكرامتهم ماداموا لا يرتكبون إنما إيجابياً يحرمه هذا القانون ، وإن كرامة هؤلاء الألوف المؤلفة من الهنود ومن إذن بإرادتهم ، فإذا أرادوا المحافظة على هذه الكرامة لم تستطع قوة أن تنزلهم عنها ، بله أن تمرغها فى التراب .

ولكى يكفل النجاح في تجنيد هذه الألوف المؤلفة من الهنود المقيمين في جنوب إفريقيا أنشأ العمال قرى على مقربة من أماكن عملهم ، وعاش هو وزوجته وأبناؤه معهم فيها ، وأنشأ لهذه المجموعة الهندية كلها جريدة تنطق باسمهم وأعان على الملأ إنكارهم للظلم المتبادل بهم . بذلك أعد عدته للنضال في سبيل الكرامة الإنسانية ثم بدأ فضاله السلي البعيد عن كل مظهر من مظاهر العنف ، وبدأ يعلن في جريدته أنه وأبناء وطنه لا يطلبون إلا الحق الطبيعي المعترف به لكل إنسان في كل أمة متحضرة : أن يتساوى أمام القانون وفي الواقع مع غيره في الحقوق والواجبات فلا يلزم بأداء ضريبة لا يؤديها غيره ، ولا يحرم من الإقامة في محلة يقيم فيها غيره ، ولا يفرض عليه لون من الحرمان لا يفرض على غيره . بذلك يستطيع التعاون مع سائر المقيمين في البلاد لخير الجميع . فإذا أبت القوانين أو التقاليد بعد أن تعترف له بهذا الحق فمن واجبه لكرامته الإنسانية ألا يتعاون مع من يحرمونه من هذه الحقوق ، وأن يقف في حدود عدم التعاون في غير عنف ، فلا يخجل بالنظام ولا يخرج على القانون . فإن أبت السلطات مع ذلك إلا أن تحرّم عليه عدم التعاون فمن حقه ألا يطيعها ، ولها أن تفعل به ما تشاء . لها أن تزج به في السجون ، ولها أن تنزل به ما تشاء من عقاب ، فلن يوهن ذلك من عزمه ، ولن ينزله عن إرادته ، ولن يحمله على الخروج على ما أخذ به نفسه من عدم العنف ، ولن يلجئه إلى مخالفة القانون .

وكانت هذه هي السقيا جراها : قوة الحق الدافعة من غير حاجة إلى أى عنف .

ونجحت الحركة واضطرت السلطات إلى مفاوضة غاندى ، وإلى النزول عن كثير مما كانت تفرضه على هؤلاء الهنود ، مما لا يرضاه الكرامة الإنسانية .

أترى هذا التضال الذى طال أمده سنوات سلاما أم دعوة للسلام ؟ لا أظن أحداً من أنصار السلام فى عهدنا الحاضر أو فى العهود السابقة يحيب عن هذا السؤال بالإيجاب ، بل لعلمهم يرون فى هذا التضال نوعاً من التردد على النظام القائم فى جنوب أفريقيا لا يتصل بالسلام العالمى من قريب أو من بعيد .

ولم يدر بخاطر غاندى أن يطرح على نفسه مثل هذا السؤال . لذلك لم ينكر الحرب التى قامت بين إنجلترا والبوير ، بل أعان فيها الإنجليز بأن أنشأ فرقة إسعاف Ambulance corps لإسعاف جرحاهم فى الحرب .

وعاد غاندى بعد ذلك إلى الهند وفكرة الكرامة الإنسانية بتساوى فيها الناس جميعاً هى المتسلطة عليه ، بل لعلمها كانت أكثر سلطاناً على نفسه بعد أن قرأ وهو فى جنوب أفريقيا دعوة تلتوى الاشتراكية ، وبعد أن اقتنع بأراء رسكن بأن خير الفرد يحتويه خير الجماعة ، وبأن عمل المحامى وعمل الخلاق متساويان فى الاعتبار فغاية كلهما كسب العيش ، وبأن حياة العمل ، أى حياة الزارع وحياة الصانع ، هى الحياة الحقيقية بالعيش . هذه حقائق آمن بها ليمانه بعدم العنف وبعدم

التعاون في غير عنف ، وبأن الحق وحده منتصر آخر الأمر
لاحالة ، على أن يكون صاحبه صادق الإيمان به ، متخذاً لِمَا به إمامه
في تفكيره وقوله وعمله فلا يمارى فيه نفسه ولا غيره ولا يتخذ
أحيولة لغاية يبطنها ويظهر غيرها ، بل يسلك سبيله المستقيم إلى الغاية
التي يريد بلوغها .

عاد إلى الهند ولم يلبث بها طويلاً حتى كانت نذر الحرب العالمية
الأولى ، حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ تقترب . فلما نشبت الحرب لم يفكر
غاندى في تجنبها ، أو في إنكارها ، بل اندفع يدعو أبناء وطنه إلى
الجنديّة في صفوف الامبراطورية البريطانية ، يرجو بذلك أن تفيد
الهند لحريتها يوم تضع الحرب أوزارها . فلما انتصرت بريطانيا في
هذه الحرب ثم لم يتحقق لوطنه ما كان يرجوه عاد يفكر في نضال
الامبراطورية الظافرة في الحرب ليستخلص من بين براثنها حرية هذا
الوطن العظيم العزيز .

لم يفكر غاندى إذن في السلام العالمي يوم نشبت تلك الحرب التي
خاضت الولايات المتحدة غمارها وشعارها أن تحارب للقضاء على
الحرب وعلى فكرتها في العالم a war to end all wars . وأخذ
غاندى يناضل الامبراطورية الظافرة في الحرب بسلاحه وهو عدم
التعاون في غير عنف non-violent non-cooperation
لِإيماننا منه بأن الهند على حق ، وبأن سلاح الحق أمضى سلاح ، وبأنه
سلاح القوى المؤمن بقوته الإنسانية ، قوة الإرادة التي لا تقهر وأنه

لذلك أعز من القوة المادية ، قوة السلاح المخرب والقتال . فإدما نأبى أن تهدر كرامتنا ، وما دما لا نتعاون مع من لا يحفل بهذه الكرامة ، فلن يستطيع أحد أن يقهرنا ، وإن استطاع أن يضعنا في السجون وفي المعتقلات ، وإن استطاع أن يقتلنا ونحن وقوف على أقدامنا نرفض الإذعان له والركوع أمامه .

واستجابت الهند كلها لدعوة غاندى وناضلت الاميراطورية العظيمة في غير عنف ومن غير حقد . فقد كان غاندى يرى الحقد ضعفا كالعنف سواء بسواء .

استجابت الهند إذن لدعوة غاندى لأنها رأت أنه صادق في احترام الكرامة الانسانية لبني وطنه جميعا ! حتى لقد ناضل أبناء وطنه أنفسهم إذا كانوا يفرقون في اعتبار هذه الكرامة بين طائفة من أبناء الوطن وطائفة أخرى . فقد كان في الهند بضعة عشرات من الملايين « منبوذون » لا تقرهم طائفة من طوائف الهند الأربعة ولا يقربونها ، حتى لكان خيال المنبوذ نجسا يجب التطهر منه ، ولكان الماء الذي يشرب منه المنبوذ نجسا كذلك يأبى غيره أن يشال منه ربه . بل لقد كان من هؤلاء المنبوذين من لا يستطيع الظهور نهارا لأن منظره كان نجسا فلا يصح أن تقع عليه عين أحد من غير أبناء طائفته . وقف غاندى إلى جانب هؤلاء المنبوذين ونادى بأنهم إخوانه وإخوان كل هندي أيا كانت طائفته . بل لقد كان في تجواله الدائم في أرجاء الهند المختلفة يقيم بين هؤلاء المنبوذين ولا ينزل إلا في أحيائهم . وكثيرا ما كان يصطحب صديا من أبنائهم في زيارته لاتباعه من الطوائف

الأخرى . ذهب مرة إلى صديق له من الطوائف العليا ومعه صبي منبوذ لا يؤاكله ولا يشاربه ولا يتصل به أحد ، فضايق أهل الصديق بالصبي ذرعا ، ومرض الصبي فإذا غاندى يقيم إلى جانب سريرته يمرضه . كيف والمهاثما يصنع هذا الصنيع يضن الآخرون بمثله . واضطر أهل البيت جميعا - على ما لطائفهم من علو المنزلة - أن يصنعوا صنعا للمهاثما العظيم وأن يسبقوا على الطفل المنبوذ عنايتهم حتى أبل من مرضه ، ثم كانوا من بعد البربه والمحبة له كأنه أحد أبنائهم ، بل من أحب أبنائهم إليهم .

وهذا الإكرام الذى أسبغه غاندى على المنبوذين سماوا بالكرامة الإنسانية للناس جميعا من كل معنى من معانى التفاوت قد كان له الأثر الأكبر فى استجابة الهند لدعوة غاندى . فقد شعرت الطوائف كلها بأن الفوارق التى أقامتها عشرات القرون بينها تنهار ، فإن الدعوة الجديدة لحربة السكافة يتمتع بها كل فرد حقيقة بأن تجمع أبناء الهند كلها ، وهم أربعائة مليون فى صعيد واحد ، متساوين فى ظل الوطن وإن اختلفت نحلهم وأهوازهم ومنازلهم وما يزاولون من عمل .

واستجاب نساء الهند لدعوة غاندى كما استجاب إياها رجالها . ذلك أن المرأة الهندية كانت من الرجل بمنزلة الرقيق كشأن المرأة الأوروبية من الرجل فى العصور الوسطى . كانت تدفن حية معه إذا مات ، وكانت تعامل فى حياته على أنها غلامه وخادم أولاده . وقد ارتفع بها غاندى إلى مستوى من الكرامة الإنسانية يعادل مستوى كرامة الرجل ، وجعلها عديله فى الكفاح لكرامة الوطن والنضال من أجل حريته . فكان لها فى معارك عدم التعاون فى غير عنف

مكان كمكان الرجل أو أعز من مكانه في بعض الأحيان ، وجعل لها من الاحترام في الحياة الاجتماعية ما لم يفكر فيه رجل أو امرأة في الهند قبله ، وما لم يفكر أحد في اقتحام أسوار التقاليد القديمة التي كانت تفرض على المرأة عبوديتها للرجل .

بذلك كله اجتمع أربعائة مليون أو يزيدون حول هذا الرجل النحيل العظيم المجاهد في سبيل الكرامة الإنسانية للفرد وللجماعة وللشعب كله . وبهذا وقفت الهند كلها عزلاء من السلاح في وجه الامبراطورية البريطانية العظيمة تقاوم بسلاح المثابرة في سبيل الدفاع عن كرامة الإنسان وكرامة الوطن بعدم التعاون في غير صنف ومن غير حقد مع المعتدى على هذه الكرامة .

ولم يكن هذا النضال سلاماً أو دعوة إلى السلام على النحو المألوف اليوم عند أنصار السلام . ولكنه كان نضالاً يؤدي بطبيعته - على ما سنرى - إلى السلام ، على أن يكون سلام الأحرار لا سلام العبيد .

لم يعلن غاندى إلى سنة ١٩٣٠ أنه يطمح من فضاله هذا في أكثر من بلوغ الهند مرتبة الحكم الذاتي . ولعل تفكيره الذي تطور من معاونة انجلترا في حرب البوير إلى تحنيد الهند إلى جانبها في الحرب العالمية الأولى البلوغ هذا الحكم الذاتي - حتى لقد منع من أجل ذلك مدالية قيصر الهند - قد كان يطمئن ويرضى لو أن الحكومة البريطانية أجابت رغبته . فلما لم يبلغ من ذلك لوطنه ما أراد نادى بالاستقلال التام للهند في سنة ١٩٣٠ ، وطالب البريطانيين بالجلاء الكامل عنها

وأذاع كلته المشهورة : « افعلوا أو موتوا » Do or die . بذلك تطور تفكير المهاتما في تصوير الغاية من فضاله ، وإن بقي سلاحه في هذا النضال هو عدم التعاون في غير عنف ، مع تطور هذا السلاح كذلك . في صور كانت تتعدى في بعض الأحيان دعوته فيشوبها من العنف مالا يرضى عنه ، فيصوم تكفيراً عن خطايا الذين أخطأوا ، فيرد صيامه المخطئين إلى صوابهم .

وكان العنف يقع أكثر الأحيان بسبب مبالغة السلطات البريطانية في قمع الحركات الاستقلالية الخالية من العنف . لكنه كان يقع في بعض الأحيان بين طوائف الهنود أنفسهم بسبب الخلافات الدينية والمذهبية . ولقد وقع غير مرة بين المسلمين والهندوس وكان دأى الآثار . في هذه الأحيان كان غاندى يصوم ويطول صيامه تكفيراً عن خطأ هؤلاء وأولئك . وفي هذه الأحيان جميعاً كان صومه يجمع العنف ويرد السلام يرفرف لواژه على المتخاصمين .

ولم يكن غاندى يتحيز قط لبني دينه ، كما أنه لم يكن قط يتحيز للمسلمين ، ذلك بأنه كان عظيم التسامح ، وكان يحترم الأديان جميعاً أصدق الاحترام ، وكان يرى لذلك في ارتداد الرجل عن العقيدة التي نشأ عليها مالا يتفق والكرامة الإنسانية . حاول بعض المبشرين حين مقامه في جنوب أفريقيا أن يقتموه باغتتاق المسيحية ، وأعطوه الاناجيل فقرأها وأعجب بما فيها من دعوة للحب والسلام ، واشتد إعجابه « ببناء الجبل The sermon on the mount ، حيث يقول المسيح : « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر » ،

ثم اعتذر مع إعجابه هذا عن الاستجابة لدعوة المبشر الذى دعاه إلى المسيحية بأن فى دين قومه ما يتفق ودعوة المسيحية للحبة والرحمة والسلام ، وبأنه لذلك لا يرى أن يخالف قومه عن عقيدتهم وهومهم ، ومنهم آباؤه وأجداده وأصدقائه وأولياؤه . وكثيراً ما كان يشير إلى الأخوة الإسلامية إشارة إجلال وإكبار . لذلك كان يحقت التعصب أشد المقت ، وكان يرى مايقع من عنف بسبب اختلاف العقيدة الدينية إنما جديراً بالتكفير عنه . أما هؤلاء الذين يلجأون إلى العنف لا يدركون خطيتهم ليكفروا عنها ، فليكفر هو عن خطيتهم بالصوم ليردهم إلى حى الحق والقساح والإخاء ، وينبهم إلى أن الأديان جميعاً تحفظ على الإنسان كرامته ، وتهديه السبيل لخيره ، ولرضا الله عنه ، وأنها جميعاً تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وتدعو إلى الإخاء والمحبة والسلام .

وكانت المحبة عنوان الكرامة الإنسانية فى كل تعاليمه . ذلك بأنه كان يرى الحقد والكراهية ، كما كان يرى العنف ، ضعفاً غير لائق بهذه الكرامة ، ويرى الضعيف بحقه أو كراهيته أو بعنفه حقيقة بالإشفاق ، على أن لا يكون إشفاق ازدراء أو تحقير ، بل إشفاق محبة وحرص على علاج هذا الضعف . لهذا كان يناضل البريطانيون من غير أن يحقد عليهم أو يكرهمهم ، بل كان يحرص على أن يتفاهم معهم كلها وجد منهم استعداداً للتفاهم ، فإذا لم يصل من هذا التفاهم إلى تحقيق ما يريد عاد يناضلهم فى غير حقد ولا كراهية ، مؤمناً بأنه

سيبلغ يوماً غايته ويحقق استقلال بلاده ، وبأن البريطانيين سيجلون عن الهند من غير أن تكون في أنفسهم مرارة ضد الهنود ، أو أن تكون في نفس الهنود مرارة ضد البريطانيين .

وأساس المحبة التضامن في سبيل المصلحة العامة . أما التنافس في سبيل المنافع الخاصة فيخلف الاحتكاك وما يؤدي إليه من حقد وموجعة . والناس إنما يتنافسون على المنافع المادية يريدون الاستكثار منها بما يضر روحانيتهم ، ومن غير أن تكون لهم بهذا الاستكثار حاجة . ولو أنهم حرصوا على السمو بروحانيتهم حرص الغربيين اليوم على المتاع بماديات الحياة لاستمتعوا بالحياة أضعاف ما يستمتع بها محب أعباء المادة ، ولكانوا إخواناً متحابين يربط التضامن بينهم بأوثق رباط .

والتنافس يؤدي إلى الحقد وإلى الموجعة ، لأنه يؤدي إلى استغلال عمل الغير لفائدة المستغلين ، وهو ينطوي لذلك على ظلم يثير نفوس من يستولى غيرهم على جانب من ثمرة عملهم باسم الفائدة على رأس المال أو بأى اسم آخر . فأما الحق عند غاندى فذلك أن ينال كل ثمرة عمله وليحصل على أسباب عيشه ، وهذا ما يسميه هو : العيش العمل . هذه مبادئ غاندى التي رتب عليها نتائجها . ومن هذه النتائج عداؤه الصريح للصناعات الكبرى ، ودعوته الصريحة للعمل اليدوى ، واتخاذة عجلة النسيج اليدوى عنواناً لدعوته ، واكتفاؤه في الحياة بما يقيم الأولاد ليستطيع بعد ذلك أن يستمتع من أعيم الحياة الروحية بأوفر نصيب .

ولأنما تبلغ الشعوب المرتبة السامية التي تؤدي إليها هذه المبادئ عن طريق التربية والتعليم . ولهذا وضع غاندى برنامجاً خاصاً للتعليم بدأ يطبقه في المحلات التي أنشأها ، وفي بعض مدن الهند لتكون نموذجاً يحتذى بها حين يرون نتائج هذه التربية وهذا التعليم .

* * *

كيف تؤدي تعاليم غاندى ووسائله إلى السلام داخل الشعوب وفيما بين الشعوب .

لما تلبذ جو أوروبا بنذر الحرب في صيف سنة ١٩٣٨ حين أراد هتلر أن يضم جانباً من تشيكوسلوفاكيا إلى أرض الرايخ الألماني ، كتب غاندى يدعو التشيك إلى عدم مقاومة هتلر بالسلاح إذا حاولت جيوشه أن تحتل بلادهم ، وأن يقاوموه بعد ذلك على طريقة غاندى : عدم التعاون في غير عنف ، والعصيان المدني إذا اقتضى الأمر هذا العصيان . ووجه غاندى رسالته إلى هتلر نفسه ينهاء فيها عن الالتجاء إلى العنف ، كما وجهه إلى البريطانيين رسالة كالتى وجهها إلى التشيكوسلوفاكيين . ولم تنتج رسائل غاندى هذه ، بل وقعت الكارثة . واكتوى العالم بنيران الحرب منذ سبتمبر سنة ١٩٣٩ وهو لا يزال إلى اليوم يعاني من آثارها مايكاد يدفع إلى حرب عالمية ثالثة ضروس . ومادى غاندى ببلغ من التفاؤل أن ظن أن تعاليمه يمكن أن توتي ثمرتها في غير الهند لمجرد رسالة يبعث بها إلى التشيك أو إلى هتلر أو إلى البريطانيين . ولأنما توتي هذه التعاليم ثمرتها رويدا رويدا بانتشار

المبادئ التي أوجزناها عن طريق التربية والتعليم والدعاية ، فإذا بدأت تستقر في النفوس وتطمئن لها العقول اتجه العالم كله وجهة جديدة تسمو بالروح إلى المكان الواجب لها في الحياة الإنسانية ، ويومئذ تخضع المادة لحاجات الروح ، بدل أن تخضع الروح لإغراء المادة ولتماعها الكاذب الغرور .

وإنما تؤدي تعاليم غاندى بطبيعتها إلى السلام لأنها تقضى على أسباب الحرب والنزاع ، ما كان صحيحاً منها وما كان مفتعلاً لمجرد الدعاية وإثارة النفوس لحوض غمار الحرب .

كان الدين من أسباب الحرب في عصور كثيرة . وقد ثارت الحروب الصليبية في القرون الوسطى باسم الدين ، على الرغم من أن المسيح صاحب الصليب كان من أكبر دعاة السلام في العالم . ومن قبل ذلك قامت الامبراطورية الاسلامية في أطوارها المختلفة على أسنة الرماح ، مع أن القرآن يقول : « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » . ومن أسف أن هذه العقلية المتناقضة لتعاليم الأديان كلها ظلت حافلة بالنفوس ، حتى لقد قال المارشال أللني قائد الجيوش البريطانية التي دخلت بيت المقدس في سنة ١٩٣٨ : « الآن انتهت الحروب الصليبية ،

ولعل إدراك غاندى لهذه الحقيقة هو الذي دعاه بعد أن أسست الهند واختارت لطاق الكمنولث البريطاني يقول ، يوم اشتد الخلاف بين الهند والباكستان على كشمير ، إنه على مقتله الحرب وعدم تسليمه بجوازمها ، يخشى أن تصبح بين الدولتين ضرورة لا مفر منها . وقد

أؤخذ بهذا الرأي الذى يتناقض مبادئه ، ووطن بعضهم أنه كان أولى به أن يصوم ليجنب الدولتين مثل هذا الاحتمال المخوف بالنسبة لهما جميعا .

انتهت الحروب الصليبية . والحروب والمذابح التى وقعت فى أوروبا المسيحية بسبب الخلاف المذهبي معروفة . والتعصب أهم الدوافع التى تحرك الجماهير لمتابعة الدعاة إلى الحرب باسم الدين ولو لم يكن الدين هو الدافع الحقيقى لهذه الحرب . وقد قضت تعاليم غاندى على هذا السبب من أسباب الحرب . فالأديان عنده كلها مقدسة ولا يجوز من ثم أن يتعصب أحد لدين على دين ، أو أن يقاتل نصرة لدين على دين ، وهذا التسامح الذى نادى به غاندى ، قد نادى به من قبل فولتير واعتبره أساس السلام فى العالم . لكن أحدا لم يسمع لفولتير لأنه لم يكن متدينا ، بل كان حرا الفسك ، متبها فى دينة به ، موصوما بالإلحاد . أما غاندى فكان متدينا مسلما نفسه لله فى كل أعماله وتفكيره . فدعوته إلى التسامح الدينى دعوة صادقة خالصة لوجه السلام ، دعوة مصدرها الروح المتصل بالمالأ الأعلى ، وليس مصدرها مجرد الحرص على الحرية العقلية . ولهذا نجح غاندى إلى مدى بعيد فى القضاء على الثورات والمذابح الطائفية التى كانت تقع فى الهند الحين بعد الحين ، مع ما بين الهند وأوروبا من فرق فى الثقافة يحمل أوروبا أكثر مما يحمل الهند إلى التسامح الدينى .

وتذهب كثرة المؤرخين إلى أن الدين اتخذ فى الماضى كما تتخذ الحرية والديموقراطية اليوم وسيلة للدعاية للحرب ودفع الناس إلى مجازاتها .

وأن السبب الحقيقي للحروب قد كان السبب الاقتصادى . وليس شك فى أن هذا السبب الاقتصادى هو الدافع الأقوى والمحرك الأول للحروب ، وأن ما يختلط به بعد ذلك من عوامل دينية أو جنسية أو سياسية يستطاع التغلب عليه من غير حرب لولا هذا العامل الاقتصادى . وهذا ما أدركه غاندى وعالجه بوسائله المختلفة .

وأولى هذه الوسائل السمو بالحياة الروحية سموا بالكرامة الإنسانية عن أن تخضع لإغراء المادة على نحو يذلها . ولقد كان مثله الذاتى وإيمانه الراسخ هما الحجة الملبوسة الدائمة على أن المتاع الروحى أعظم من كل متاع ، وأنه وحده هو الذى يجعل للحياة قيمتها ، والذى يبلغ بالإنسان من القوة إلى حيث لا تغلبه قوى الأرض مجتمعة . وأى مثل فى هذه القوة الروحية كمثل حياة غاندى إلا أن تكون حياة الأنبياء والقديسين . فهو رجل ألقى تحت أقدامه الجواهر ، وقدم إليه البريطانيون أنفسهم أسباب الجاه والسلطان ، وكان فى مقدوره أن يبايع كل ما يطمع أكبر الأغنياء وأعظم ذوى الجاه والسلطان بلوغه ، فازدري هذا كله ، وعاش عيش الفقراء ، وآثر حياة المنبوذين سكنا له ، ولم يحفل السجن ولا الموت ، وكان مع ذلك لا يعرف الحقد ، بل يحب الناس جميعا ، ويجب خصومه بل أعداءه . ثم كان فى نظر الإنسانية كلها الإنسان المثالى الذى يطمع أعظم الملوك فى أن يبلغ بعض ما بلغ ، أليس ذلك دليلا على أن المال وما يتبعه من المتاع المادى ليس إلا متاع الغرور والخوف الباطل فى الحياة .

وإذا كان ذلك شأن الفرد فهو كذلك شأن الأمة . فالأمة المستغنية عن غيرها ، المحافظة على كرامتها القومية والإنسانية ، الفاعلة بمواردها ، العاملة على استثمار هذه الموارد دون حاجة إلى الغير . هي الأمة التي تستطيع أن تقاوم غيرها من غير عنف ، فلا يجد هذا الغير وسيلة لاستغلالها ، ولا خير له من ثم في بذل النفقات لإخضاعها . فإذا سلكت الأمم كلها هذا السبيل وقارمت من يحاول استغلالها بالوسائل بالوسائل غير العنيفة التي سلك غاندى سبيلها لم يبق لأمة في الحرب مصلحة ، ومن ثم كان ذلك سبيل السلام العالمى .

وقد صورنا من قبل طرفا من الوسائل التي دعا إليها غاندى لإدراك هذه الغاية . فعدم التعاون في غير عنف والعصيان المدني والإضراب والمقاطعة ، كل ذلك في غير عنف كذلك . والارتقاء بالشعب عن طريق التربية والتعليم ليدرك مألوسه من قوة لا تغلب . فإذا امتثلت الشعوب هذه الآراء والمبادئ فحرت في أوردة حياتها ، وتيقن البغاة أن لا فائدة يحضونها من وراء التغلب عليها ، زالت الحروب بزوال أسبابها .

يبدو جليا مما تقدم أن غاندى سلك في تعاليمه وفي وسائل نضاله سبيلا يؤدي إلى السلام من غير أن يسلك الطريق الذي سلكه دعاة السلام من قبل . وهذه التعاليم وهذه الوسائل كلها نضال في سبيل السلامة الإنسانية كما يستقر في العالم سلام الأحرار لا سلام المييد . فلم يكن غاندى يعرض سلاما كالسلام الرومانى Paxa Romana تفرضه أمة غالبية على أمة مغلوبة ، فإن حاولت إحدى هذه الدول الإخلال بهذا السلام جردت الامم اطورية قواتها لتعاقب الأمة

المتمردة وارتدتها إلى حمى الطاعة والإذعان . ولم يكن غاندى يعرض
سلاما أساسه الخوف من الحرب وأهوالها وكوارثها ، فمثل هذا السلام
تضطرب قوائمه إذا استطاع العلم يوما أن يبدع الوسائل لاتقاء هذه
الآهوال والكوارث . ولم يكن غاندى يعرض سلاما لقارة كأوروبا
يمكنها أن تتحكم في غيرها من القارات على غير ما كانت روما تتحكم في
عهد ذلك السلام الرومانى ، بل كان لا يرضى عن عبارة «آسيا للأسيويين»
إذا قصد بها اعتزال آسيا من سواها من قارات العالم . لأن الاعتزال
لم يكن سلاما في نظره .

لم يكن غاندى يعرض هذه الصور للسلام ١ على حين كان مثله
وكانت تعاليمه ووسائله دعوة للسلام بطبيعتها . فالسلام على ما يفهمه
أهل الشرق والغرب جميعا هو التقيض للحرب التى يعرفونها ، الحرب
التي يستبيح فيها الإنسان قتل الإنسان للاستعلاء عليه واستغلاله .
الحرب التى تعد لها كل دولة من آلات التدمير والفتك ما تقابل به
أمثال هذه المعدات عند غيرها من الدول . وما أيسر ما تقول كل دولة
لإنها تحارب دفاعا عن نفسها ١ أو نصرة لفضبة السلام ، أو لفضبة
الحرية والعالم الحر ، أو لمثل ذلك من الدعايات المختلفة . أما غاندى
فينسكرك هذه الوسائل كلها ، وهو مع ذلك رجل نضال في سبيل الحرية
والكرامة الإنسانية . وهو يرى قوة الحق لذاته . وقوة الروح المستلثة
إيماننا بهذا الحق ، أمضى من كل سلاح وأكفل ببلوغ النصر . وحسبه
دليلا على صدق نظريته ووسائله أن بلغ بها الغاية التى قصد إليها
من تحرير الهند ، تلك القارة التى تضم نحو أربعمائة مليون من البشر ،

لحررها من فوارق الطبقات ، وحررها من التهمصب الدينى ، وحررها من كل صور التفرقة بين الأجناس والألوان ، والرجال والنساء ، وبلغ بها إلى الأغراض التى احتوتها وثيقة حقوق الإنسان كما وضعها الأمم المتحدة من بعد ، ثم حررها من الاستعمار البريطانى ، وبلغ بها إلى مكان العزة والكرامة فى حى الاستقلال والحرية .

* * *

ولنلخص الآن ما سبق عن تعاليم غاندى والوسائل التى انبمها لتحقيق تلك التعاليم ، من حيث اتصالها بفكرة السلام فيما يلى :

١ - السلام الحقيقى هو سلام الأحرار لاسلام العبيد . واطمئنان هذا السلام داخل حدود الدولة الواحدة يكفل السلام فى علاقات الدول بعضها مع بعض .

٢ - الحرية الحقيقية هى حرية الروح فى إيمانها بالحق الذى تتقنع به وتطمئن إليه ، وليست حرية المتاع المادى الذى يضل الروح عن طريق الحق .

٣ - قوة الروح المستمدة من الحق أمضى من كل سلاح ، لأن صاحبها لا يعبأ بما يصيبه فى سبيل هذا الحق ، ولو كان ما يصيبه هو الموت .

٤ - الأديان كلها تمثل الحق الذى يلهى الله من يختارهم من عباده المصطفين ، وكلها تدعو إلى المحبة والسلام ، فلا يمكن أن تقوم حرب لنصرة دين على دين ، لأن الحرب تنساق بطبعها مع المحبة والتسامح والسلام .

٥ - كل عمل شريف ما دام نزيها . والعمل هو الذى يجعل لصاحبه الحق فى العيش وفى الحياة ، وكل من يعيش بغير عمل يسلب العامل عرق جبينه ويسلبه لذلك حريته ، ويهدد من ثم لاضطراب السلام .

٦ - الاستعمار والامبريالية اسم استغلال شعب لشعب بغير حق ، وهو لذلك من أسباب الحرب ما بقيا فى العالم ، فيجب القضاء عليهما قضاء مبرما .

٧ - من اليسير نضال الاستعمار بغير عنف ومن غير حقد عن طريق عدم التعاون ، والإضراب ، والمقاطعة والعصيان المدنى وكل وسائل النضال البعيدة عن العنف ، والمستندة إلى الحق وحده .

٨ - التربية والتعالم من الحقوق الأولية للجميع ، وهما لذلك من أسس السلام ما قالا على قواعد سليمة .

٩ - يجب أن يكون الاكتفاء الذاتى أساس الاقتصاد القومى فى الزراعة والصناعة ، وأن يكون التبادل التجارى مؤيدا لهذا الاكتفاء الذاتى فلا يبنى عليه بحال .

١٠ - التعاون دعامه الاقتصاد القومى ، كما أن عدم التعاون فى غير عنف سلاح النضال القومى فى سبيل الحرية السياسية والكرامة الإنسانية . والناس أحرار ما تعاونوا متحابين .

١١ - واجب الدولة أن ترعى هذه المبادئ دون أن تتدخل بالعنف فى الشؤون العامة . بل يجب أن ينظم الناس فيما بينهم هذه الشؤون عن عقيدة واقتناع وإيمان .

هذه هي التعاليم الأساسية التي يقوم عليها السلام في رسالة غاندى .
وهي لا ريب تعاليم سامية حقيقة بكل لإجلال ولا كبار ، جديرة بأن
تؤدى إلى الغرض الاسمى — السلام — إذا طبقت على وجه صحيح .

* * *

والفكرتان الرئيسيتان عند غاندى (*) هما رأى الصديق والكرامة
الإنسانية . فالصديق عنده لا يعنى قول الحق فحسب ، بل هو يقصد
الحق فى التفكير ، وفى القول وفى العمل جميعا . ومن السهل أن نتفق
على الأفكار ما دامت مجرد أفكار أو مبادئ ، فنناقشها ، فإذا جاء
وقت التطبيق ثارت الخلافات فى التفسير والخلافات فى الرأى إلى أن
تطرح الفكرة نفسها جانبا .

فنحن نذكر ما حدث فى أعقاب الحرب العالمية الأولى حين وضع
الرئيس وودرو ويلسون مبادئه الأربعة عشر ، واتفق العالم أجمع على
أنها سوف تكون ذات نفع عظيم للإنسانية كلها . فلما اجتمع مؤتمري
السلام فى فرساي وبدأ يبحث فى كيفية تطبيق هذه المبادئ تعددت
الخلافات بين الأعضاء فاستغرقت منهم معاهدات السلام ستة أشهر .
ولأنى لمتفق تماما مع مولانا أبو الكلام آزاد بأنه من خلال هذه
المعاهدة التى قصد بها إقرار السلام بعد الحرب العالمية الأولى بذرت
بذور الحرب العالمية الثانية .

لقد عقدت اجتماعات عديدة سواء عن طريق الأمم المتحدة
أو اليونسكو حول موضوع التوتر الذى نبهت اليوم ، كما أعلنت

(*) ترجم هذا الجزء عن محاضرة للدكتور ميكى بالإنجليزية فى الهند .

بشأنه كثير من النصريحات الخلافة . فها هو ذا كتاب عن اجتماع عقد في سنة ١٩٤٨ ضم ثمانية من كبار علماء الاجتماع في الدول المختلفة ، شيوعية وديموقراطية غربية ، وأصدروا بياناً مشتركاً ، وكانت لديهم الأمانة الكافية ليدركوا أنه ، على الرغم من اتفاقنا على البيان في مجموعه وفي كثير مما احتواه من نقط ، وتطبيق هذه النقط ، إلا أننا نختلف بشأن الأثر الذي سينجم عنها . كانت هذه الفكرة عن الصدق في الفكر وفي القول وفي العمل مركزاً لأفكار غاندى وأساساً لها ، وهذه الفكرة نفسها هي التي ستؤدي بنا إلى السلام العالمي .

والفكرة الثانية ، وأعتقد أنها أهم ما في خطة غاندى كلها ، فكرة الكرامة الإنسانية للأفراد والكرامة الإنسانية للجماعات ، فإن حملته الأولى في جنوب أفريقيا كانت أولاً في سبيل كرامته الإنسانية ثم في سبيل الكرامة الإنسانية لمواطنيه في هذا الجزء من العالم . فقد كانت التفرقة الظالمة التي تتبعها حكومة جنوب أفريقيا إذلالاً للهنود فيها سبباً لثورة غاندى . وهو لم ير من أجل ذاته لحسب وإنما بدأ يفكر فيما يمكن أن يكون عليه التعاون بين هؤلاء الآلاف من الهنود وبين الحكومة وهم يلاقون منها أسوأ المعاملة ؟ كيف يستطيعون التعاون مع أشخاص لا يحترمون الكرامة الإنسانية ؟ . . . من هنا انتهى غاندى إلى فكرته حول الساتيا جراها والاهيمسا ، Satia - graha, Ahimsa فشهد جنوب أفريقيا بذلك مولد تلك الأفكار .

فلما جاء إلى الهند دفعته فكرته الجديدة عن الكرامة الإنسانية

إلى الحملة على التفرقة القائمة فيما بين المنبوذين وغيرهم من أبناء الهند ، تلك الحملة العظيمة حقاً : نحن نساوى جميعاً ، ولدنا متساوين فوجب أن نحيا متساوين كذلك . يجب ألا يكون هناك منبوذون وغير منبوذين . وذلك ما بدأ غاندى حملته الكبرى من أجله .

ولم يرق غاندى هذه الفكرة عن الكرامة الإنسانية للدفاع عن المنبوذين فقط ، بل كانت لديه كذلك فكرة الأخوة بين الناس أيا كان دينهم وأيا كانت أفكارهم ، وهى الفكرة التى أدت به إلى التسوية فى المعاملة بين جميع أعضاء المجتمع الهندى سواء كانوا من الهندوس أو من المسلمين أو المسيحيين أو أى شيء آخر ماداموا مخلصين فى إيمانهم وفى صلاتهم .

هل لى أن أذكر أن احترامه البالغ للكرامة الإنسانية دناه إلى الوقوف ضد ضخامة الآلات لأنه رأى الذين يعملون فى تلك الصناعات الكبيرة يتحولون إلى مجرد أدوات فيها ، فتزول عنهم صفة الإنسان المفكر بنفسه ، ليندجوا فيها فيصبحون كأسنان التروس ، وتطبق هذه الفكرة عن الكرامة الإنسانية على نشاط غاندى كله ، وهى تعتبر فكرة الأفكار فى حياته . كيف يستطيع أحد أن يتعاون مع غير مادام هذا لا يحترمه ؟ وكيف يعمل الناس للنفع العام والبعض منهم يحترمون دون البعض ؟ والواقع أن فكرة كرامة العمل أو شرفه بما يتصل بتلك الفكرة الرئيسية عن الكرامة الإنسانية ، واعتقد أن ذلك ما عناه صديقنا الأستاذ همايون كبير حين قال إننا يجب أن نفكر فى تحديد

للثروة فردية كانت أو جماعية، بحيث توضع هذه الحدود على الجانبين :
حدود لضالة الثروة وحدود لضخامتها . فلن تتحقق لك الكرامة
الإنسانية مادمت لا تستطيع أن توفر قوتك وقوت أسرتك عن طريق
عملك . كما أنه لا يتفق مع الكرامة الإنسانية أن تظل أنت عاطلاً
في الوقت الذي تستغل فيه رقيقك لمناحك الخاص .

هاتان الفكرتان — الصديق والكرامة الإنسانية — هدتا غاندى
إلى أن يصوغ ما أسماه ناي تالم . Nai Talim ، ومقتضى هذه
الطريقة أنه يجب أن يراعى في تربية كل شخص أن يمكن من
العمل يديه وبرجليه وبكل أجزاء جسمه . والهدف من ذلك تهذيب
أخلاقه وهداية مداركه إلى فهم أسلم للأمور . ولأتى مع ذلك لا أتفق
مع غاندى فيما يتعلق بالتعليم الجامعى حيث تخصص الجامعات
في بعض فروع البحث ، ولكنى متفق معه تماماً فيما يتصل بالتربية
الابتدائية والثانوية .

وبعد ، فهل لى أن أرجع قليلاً فأذكر أن الواقع في هذا العالم
أننا نستطيع أن نتعاون ، ونحن نتعاون فعلاً ، على أساس احترام
العمل الإنسانى مادام شريفاً — فلتكن محامياً أو لتكن حلاقاً
أو لتعمل أى شيء آخر فعملك محترم من الجميع مادام شريفاً ، شأنك
في ذلك شأن الناس جميعاً .

لو أننا استطعنا أن نفرس تلك الأفكار في أذهان الناشئة ؛ ففكرة
احترام العمل الإنسانى ، والكرامة الإنسانية والأخوة بين الناس

أيا كانت معتقداتهم ، فأننى اعتقد أنه يمكننا أن نصل بالفكر في البلاد المختلفة إلى حالة تؤدي بنا إلى التعاون المشترك في سبيل نفع الإنسانية كلها . وقد وضعت الأمم المتحدة في سنة ١٩٤٨ إعلاناً لحقوق الإنسان وعلى رأسها مبدأ الكرامة والمساواة الإنسانية . فكم أود لو دعت هذه المنظمة الدول كلها إلى الأخذ بالافسكار التي وردت به . والأمم المتحدة تستطيع أن تحقق نفعا كبيرا في هذا الصدد ، إلا أن أمرا يحول بينها وبين النجاح فيه ، أعتقد أنه عدم توافر الثقة بين أعضائها ، بالإضافة إلى أنها لم تصبح عالمية بعد ، كما ينبغي أن تكون . وإننى مدرك تماما لعظمة هذه المنظمة وكونها أمل الإنسانية في السلام المنشود ، كما أثنى معترف بما حقته من إنجازات هامة خصوصا وقوف الدول الصغيرة في وجه الدول العظمى وإعراؤها عن كل ما تريد .

وهذان الأمران مع الأسف ، مازالا حتى وقتنا الحاضر يوازن الأمم المتحدة . وإن كلاما كثيرا قد يقال حول حق النقض (الفيتو) ولكن الذي لا أقفه أبدا هو أن يكون قبول أعضاء جدد في الأمم المتحدة رهنا باستعمال هذا الحق .

فقد يتفق جميع الأعضاء على أن دولة تطرق أبواب المنظمة الدولية تعتبر محبة للسلام ، وأنها قد تكون عضوا نافعا جدا ، ثم نجد مع ذلك في الجانب الآخر من يقول : « سأستعمل الفيتو إذن ، فأنا لا أستطيع قبول هذه الدولة » . وإن بيننا في هذا الاجتماع أعضاء ينتمون إلى دول ما تزال خارج عضوية الأمم المتحدة . ونحن في الاتحاد البرلماني

الدول الذي أشرف بعنويته قبل الدول البرلمانية كافة ونجد من المفيد حقاً الاستماع إليها ، ولقد كانت الدول الشيوعية إلى سنة ١٩٤٩ موجودة هناك ثم انسحبت لأمر لا أعليه ، إلا أن ما تأثرت له حقاً هو ما كان يحققه اشتراك هذه الدول من فائدة . فقد أتونا بأفكار جديدة ، وتعاونوا جدياً مع سائر أعضاء الاتحاد البرلماني الدولي في مسألة السلام وغيرها . وإنني أعتقد أن مثل ذلك سوف يحدث في الأمم المتحدة لو أنها أصبحت يوماً عالمية تضم أمم العالم كافة دون تفرقة .

والأمر الآخر هو تخلف ثمة أعضاء الأمم المتحدة بعضهم ببعض في الوقت الحاضر . ولقد أسعدني ما سمعت بالأمس من مسز بانديت التي عادت لتوها من الأمم المتحدة ؛ من أن الأمور تتحسن في صدد هذا الذي كنا نشكو منه . وأقصد بذلك مجانية بعض الدول على الدوام لإحدى الكمتل ، ومجانبة بعضها الآخر على الدوام أيضاً الكمتلة الأخرى . إن كثيراً من الدول الصغيرة تصبح الآن ، لا أقول أقوى عسكرياً ، بل أقول أقوى معنوياً ، فتقول ما تعتقد أنه الحق ، والحق وحده هو الذي يدعز الأمم المتحدة إلى التعاون فيما بينها ، لأنه ما دام أحداً يعتقد أن زميله إلى جانبه لا يقول ما يعتقد أنه الحق ، لأي اعتبار من الاعتبارات ، قومياً كان أو غير ذلك ، فإن زميله المندوب الآخر سيشعر بأن عليه أن يجد طريقاً مناسبة للإجابة ، فلا يواجهه — بدوره — بما يؤمن بأنه الحق .

ولو أننا أردنا أن نصل إلى حالة للفكر كالتي أودها غاندي ،

صادقة للغاية ، وأقصد بذلك الصدق في القول وفي العمل ، فنتمكن من أن نقول في منظمة الأمم المتحدة ما نعتقد ، وأن نتصرف على أساسه ، فأعلن أننا بالغون إذن حالة من اتعاون المشترك تكون للإنسانية ذات نفع عظيم .

ليس لدى اقتراحات محددة أقدمها إلى أعضاء هذا الاجتماع المحترمين ، ولكنى أعتقد أن هاتين الفكرتين : الصدق والكرامة الإنسانية باعتبارهما المثل الرئيسية لفاندى ستغنفا كثيراً وستساعدنا أجل المساعدة في عملنا من أجل السلام .

(٢)

أساليب غاندى وكيف تخفف التوتر داخلياً ودولياً (*)

إلى أى مدى نستطيع فى الحالة الحاضرة للفكر الدولى أن نطبق وسائل المهاتما غاندى وأساليبه لإزالة التوتر فى العالم ، داخلياً كان هذا التوتر أم دولياً . ذلك ما نحاول أن نجد له جواباً .

ولو وجب أن يبدى هذا الجواب فى مطلع القرن الحاضر ، فإننى لنى شك من أنه كان ليصدر على وجه إيجابى . صحيح أن غاندى بدأ حملته ضد المعاملة الجائرة للهنود فى جنوب أفريقيا فى الحلقة الأخيرة من القرن التاسع عشر . وصحيح كذلك أنه لقى بعض النجاح هناك ، إلا أن الاعتقاد بجدوى طريقته فى حل الأزمات الدولية ، فى ذلك الوقت الذى كانت تسود فيه سياسة توازن القوى والسلام المسلح هو أقرب إلى الأحلام .

وغاندى نفسه لم يفكر أول الأمر فى الأهميسا وفى الساتياجراها كسلاح فى الحياة الدولية ، بل كأدوات لإجبار الحكومة وسلطات جنوب أفريقيا على أن تبتعد إلى أقصى ما تستطيع عن التفرقة المورقة التى تخضع لها مواطنيه . وهو لم يفكر فى تلك المرحلة فى استخدام هذه الوسائل لتحقيق استقلال أى بلد من البلاد ، بل إنه على العكس اعتقد ، كما كان الكثيرون من ذوى التربية الغربية فى الشرق يومئذ يعتقدون ، أن الحضارة الشرقية قد اندثرت نهائياً ، وأن العلم والفكر

(*) ترجم هذا الجزء أيضاً عن محاضرة للدكتور هيكل بالهند .

الغريبين سيظل لهما دائماً مركزهما السامى ، وهذا الاعتقاد هو الذى أدى به أثناء الحرب البوير إلى تنظيم فرقة إسعاف تساعد القوات البريطانية المشتبكة فى الحرب ، وظل على موقفه هذا حتى اندلعت الحرب العالمية الأولى فبذل أثناءها العون الكبير لإنجلترا أو حلفائها بتجديد الهنود المحاربة فى صفوفهم .

ولقد أبرزت الحرب العالمية الأولى تغيرات هائلة فى الفكر الدولى ؛ فقد أيقنت الولايات المتحدة الأمريكية أن عزلتها لم تنجها من خطر هجوم الغواصات الألمانية ، فاشتركت عند ذلك فى الحرب بجانب إنجلترا وحلفائها . ولقد ظن الرئيس وودرو ويلسن يومئذ أن بلاده تحارب من أجل لإنهاء الحروب كافة . فلما شعر بانكسار ألمانيا اقترح شروطه للصلح مقتنعاً بأن معاهدة للسلام تقوم على أساسها كفيلة بأن تقود الإنسانية إلى عصر السلام الدائم . وكان حق الشعوب فى تقرير مصيرها أحد شروط هذا الصلح . ونقف هنا لنجد نقطة تحول فى حياة غاندى وفى نشاطه السياسى ، هى كذلك نقطة تحول فى تصوير آمال الشعوب المستعمرة التى تنشذ الحرية والاستقلال . فقد جعل غاندى رسالته تحرير الهند من الحكم الأجنبى مستخدماً فى ذلك تعاليمه الخاصة : الأहिੰسا والساتياجراها ، بأدلاً فى هذا السبيل أعظم الجهد ، فظل ينشر ويشرح أساليبه فى عدم العنف ، وقوة الحق ، وعدم التعاون ، مدى ثمان وعشرين سنة كاملة إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية . ويفضل التطور الجديد للفكر الدولى كسبب الهند استقلالها على يد غاندى وجهود الشعب الهندى .

والتطور في أفكار المهاتما غاندى — منذ حملته في جنوب أفريقيا حتى استقلال الهند — عظيم حقاً مع أن أساس هذه الأفكار لم يتغير طوال تلك الفترة . فقد كان هدفه الأول في جنوب أفريقيا أن يعترف للجميع ، وأن يحترم الجميع الكرامة الإنسانية دون اعتبار للجنسية أو مذهب أو لون أو لغة أو حالة اجتماعية أو اقتصادية أو أية عوامل أخرى أدت وما تزال تؤدي إلى خلق الأزمات الاجتماعية والدولية .

فلما عاد إلى الهند أقنعه التطور العالمى للفكر الدولى نحو الحرية بأن الكرامة الإنسانية لا تتوافر لشعب تحكمه أمة أخرى ، وأن حرية الأمة أول شرط لاحترام كرامة أبنائها . وفكرة الاحترام الواجب للكرامة الإنسانية ليست من صنع غاندى بل هى قديمة قدم الفكر الإنسانى نفسه . فقد اعتبرتها الأجيال كافة حقيقة حيوية أساسية ، كررت التصريح بها فى بداية كل عصر جديد . وقد رأينا أن جميع الحركات الدينية والحركات السياسية تضع على رأس مقرراتها ، وفى موضع الجذور منها ، إعلاناً لحقوق الإنسان والكرامة الإنسانية أساسها .

وقد يكفى أن نذكر إعلان الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ ، والإعلان الأخير لحقوق الإنسان الذى أصدرته الأمم المتحدة سنة ١٩٤٨ ، ومع ذلك فقد عانت الكرامة الإنسانية وما تزال تعاني سوء العذاب فى الحياة العملية . وما صدر عنه غاندى منذ ستين عاماً

في جلته الأولى في جنوب أفريقيا ، ما يزال يدرج في جدول أعمال الأمم المتحدة عاماً بعد عام منذ إنشائها (١) .

من السهل أن نضرب الأمثلة لذلك في مناطق أخرى في العالم . فكيف يمكن أن تقتقر ديموقراطيات اليوم هذه الحقيقة الواضحة . وكيف يمكن أن نحفظ للكرامة الإنسانية احترامها . ذلك ما كان يتساءل عنه غاندى ، وهو ما نتساءل نحن عنه اليوم .

إن جذور الشر منذ أبعد الأزمنة كامنة في النطاق المادى من الحياة ورغبة الإنسان في استغلال الإنسان ، تلك الرغبة التي تسربت من الأفراد إلى الجماعات والأمم ، وأدت إلى عوج في تفكيرنا لم ينبع منه المجال الدينى نفسه . لما غزا المسلمون العراق في القرن السابع الميلادى ، ورأى القائد العظيم خالد بن الوليد ثروات هذه البلاد ، قال لجنوده : « لى أرى خيرات هذه البلاد كافية لحلمكم إلى الحرب في سبيلها ولو لم تكن جهاداً في سبيل دين الله ، ولقد ذكرت الانسيكلويديا بريتانكا في حديثها عن الحروب الصليبية في القرون الوسطى : « لم تكن الكنيسة تستطيع من خلال الحروب الصليبية أن تهدى غريزة الحرب لدى مجتمع إقطاعى إلا أنها كانت تستطيع أن تتابع هدف السياسة التي وضعتها ، وأن تحاول نشر النصرانية ولو على أسنة الرماح في شتى أنحاء العالم المعروف . بذلك تجدد على

(١) من العجيب أن نجد حتى اليوم من لا يزال يدافع عن التفرقة العنصرية داخل الأمم المتحدة نفسها .

على نطاق أوسع الصراع القديم الذي لم يمتد أبداً بين الشرق والغرب.

ظلت حالة الفكر هذه تمارس تأثيرها في طرق تفكيرنا ومعاشنا ، بل كان لها هذا التأثير نفسه في طرق التربية عندنا . فقد أثرت مسألة تدريس التاريخ أمام لجنة الشؤون الثقافية والإنسانية في اجتماع مجلس الاتحاد البرلماني الدولي في نيس منذ ثلاثة أعوام ، وأقدمت يومئذ على القول بأن الطريقة التي يدرس التاريخ بها تهيء أذهان الناس للحرب ؛ إذ يذكر لهم أن تاريخ البشرية إن هو إلا تاريخ المعارك الحربية ، إن أكبر المجد هو مجد القواد والملوك الظافرين ، على حين أن التاريخ الحقيقي للبشرية هو تاريخ التطور السلس الشاق المتواصل للأخلاق والفلسفة والعلوم والفنون وجميع مجالات النشاط المفيد للسلام . وانتهت إلى أن تدريس التاريخ من هذه الوجهة أقرب إلى الحقيقة وأجدي في إقرار السلام في العالم . ولقد ما دهشت لأن كثيراً من أعضاء اللجنة اعتبر منهجى هذا خيالياً ، فترك الموضوع لمزيد من البحث .

هذه الرغبة في استغلال الإنسان لأخيه الإنسان أدت إلى تقوية الأنانية في ماديات الحياة على حساب جانبها الروحي والأخلاقي . ولقد كان ذلك أشد وضوحاً في الحياة الدولية ، وكان هو السبب في صعوبة تدوين القانون الدولي . ولقد اقترح تدوين القانون الدولي في أول مؤتمرات الاتحاد البرلماني الدولي لما بعد الحرب الذي عقد في القاهرة في إبريل سنة ١٩٤٧ حيث تأجل نظر الموضوع إلى مؤتمر العام التالي

الذى انعقد في روما سنة ١٩٤٨ . وكل ما استطعنا أن نصل إليه في تلك السنة هو تدوين بعض مبادئ الأخلاق الدولية التي أرسلناها إلى الأمم المتحدة للمعاونة على وضع نظام لتقنين القانون الدولي، ذلك النظام الذى لم يكن قد تم إعداده بعد ولو أن مبادئ الأخلاق الدولية حلت محلها لكتب في تاريخ الجنس الإنسانى بذلك فصل جديد .

والفكرة الأساسية للكرامة الإنسانية التي كافح غاندى من أجلها قضية جليلة اعترف بها الجميع وهي حقيقة نخلص لها جميعا وجدير بنا أن ندافع عنها ، فكيف يمكن أن يكون هذا الدفاع ؟

لقد اقترح غاندى في ضوء التطور الجديد للفكر الإنسانى برنامجا موسعا يحيط بجميع ميادين النشاط الإنسانى من أخلاقية وثقافية واجتماعية واقتصادية وتربوية وما إليها . ويتناول هذا البرنامج كذلك العلاقات الدولية، ولكن على نطاق أضيق بكثير، ويلقى كثير من أجزاء هذا البرنامج قبولا عالميا ، ولكننى في ريب مع ذلك أن تلقى بعض أجزائه الأخرى ، خصوصا ما تعلق منها بالنظرية الاقتصادية ، مثل هذا القبول . قد تكون (اسواديشى) Swadeshi والمغزل صالحين أخلاقيا ، ولكن العلم ليس له أن يخطو إلى الوراء ، كما أن أفكاره المتعلقة بالتربية وطريقته التجريبية Projectmethod حطيان مالم تتخط حدود التعليم الابتدائى والثانوى . لكننى أشك كثيرا في إمكان التوصل إلى Swadeshi وإلى الاكتفاء الذاتى لإحدى الدول حتى في الحاجات الأولية للحياة في الظروف الحاضرة للاقتصاد العالمى

المعاصر . كما أنني أشك في استطاعة التوصل إلى إمكان تطبيق الطريقة التحريية في الجامعات .. إلا أن برنامج الأخلاق عظيم حقاً ، فهو مساهمة كبرى لتحسين حياة الإنسان .

والسمة الأصلية في طريقة غاندى هي احترامه لجميع الأديان وحملته الكبرى ضد الفارقة بين المنبوذين وغيرهم من أبناء الهند — لأنني تشديد الإعجاب بتلك النظرة الدينية ، فهي ليست مجرد التسامح ، بل هي أكثر من ذلك ، إنها أخوة حقة ؛ فأنت تستطيع أن تدعو الله على طريقة أجدادك أو على أية طريقة اخترت . وأنت أخ لكل من يدعون الله أيا كان دينهم ما دمت جميعاً مخلصين في إيمانكم ودعائكم ، لأن الله هو الحق . والحق هو الله في جميع الأديان . وفي أثناء قراءتي لغاندى أوقفتني كثير من أفكار الجيتا حول الدين لمشايتها لمبادئ إسلامية بامتثال ، فكلاهما مثلاً يقرر أن إيمانك لا يكتمل حتى تحب لأخيك ما تحب لنفسك .. وهذه القاعدة الأخلاقية ذاتها موجودة في المسيحية مثل وجودها في الديانات الأخرى ، وكذلك بالنسبة لسائر القواعد الأخلاقية المتعلقة بالحقيقة والسلوك وحياة الأسرة وما إلى ذلك . قمحن نطبق نفس القواعد الأخلاقية السامية الشائعة بين دياناتنا جميعاً ، والتي تنطوي بذاتها على عوامل وحدتنا وتآخيها ، فلماذا نستبدل هذا التآخي بالسياسة وراء التوافه التي تفرقنا وتسوقنا إلى الأزمات والحروب .

ولو أننا أخذنا في الميدان الاقتصادي والاجتماعي بنفس مبادئ الحق والإيثار وأنكار الذات التي ينبغى أن نأخذ بها في المجال الروحي

والأخلاقي ، وطبقنا تلك المبادئ بكل إخلاص ، لذات معظم الأزمات واستطعنا بذلك أن نعيش إخوة في عالم ينعم بالسعادة والرغاء إلى أقصى ما يستطيع النعم . من السهل أن يقتنع الجميع بقبول هذه القواعد وبالرضا عنها ببيان ما يكسبونه من تطبيق أسلوب الأيمساو الساتيا بهراما ، وإلا فإن أسلوب عدم التعاون في غير عتف سيقنع الجميع ، متى تحقق ، بالحاجة إلى احتذاء المثل الذي اتبعه المجموع .

إن فاعلي الشر كانوا دائماً أقلية ضئيلة في المجتمع ، ولكنها أقلية نشيطة استطاعت أن تجبر الأغلبية المسالمة على التسليم بنشاطها . ولقد أثبتت أعمال غاندي أن أقلية تعمل للحقيقة بغير عنف لقادرة على أن توغم الأغلبية على قبول عقائدها .

هل يمكن تطبيق هذه المبادئ في الحياة الدولية ، وهل يمكن العمل بها في الأمم المتحدة وفي المنظمات المرتبطة بها ؟ لأنني لوانق من إمكان ذلك . ولو حدث هذا فإن الأمم المتحدة هي التي ستتولى ، قبل أية منظمة أخرى ، قيادة العالم إلى السلام ، شريطة أن تصبح عالمية تضم أمم الأرض جميعاً .

إن جميع البلدان ، وحسنى النية من الرجال والنساء في جميع أنحاء العالم يتوقون إلى السلام ، وسوف يسعدهم أن يطبقوا هذه المبادئ . أملا في أن تؤدي بهم إلى السلام الدائم .

وفي مثل هذه الحال فإنهم يسعون جميعاً فوق جميع الاعتبارات القومية . ولكن السبب في عدم تطبيق هذه المبادئ في الأمم المتحدة

هو عدم توافق الثقة بين أعضائها ، والاعتقاد السائد بأن ذلك الذى يتكلم هناك ليس مؤمناً بأن ما يقول هو الحق ، وإنما هو يحاول أن يخدع زملاءه مندوبى الدول الأخرى وأن يماريهم .

إن الحقيقة ، والحقيقة وحدها ، هى الكفيلة بإتقاذ العالم من الكوارث التى تعلقت بها رؤوسنا : قوة الحق ، قوة الروح ، الساتيا جراها على طريقة غاندى هى وحدها علاج انعدام الثقة . ويوم يثق أحدنا بالآخر ، ويوم نعتقد صادقين بأن كل واحد يقول ما يؤمن بأنه الحق ، ستممكن من أن نتعاون معاً وأن نشترك في تمهيد الطريق إلى حركة عالمية لبلوغ المثل العليا ، ولإيجاد حكومة عالمية وسلام دائم .

ولو أن بلداً صغيراً أو كبيراً ، قوياً أو ضعيفاً ، ظل يرفض أن يتعاون صادقاً مع الآخرين فإن لنا في أسلوب غاندى في عدم التعاون في غير عنف اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً لأداة فعالة لرد هذا البلد إلى طريق الحق . ولأننى لمقتنع أن مثل هذه الأداة لن تفشل ، وأنها ستعيد أكثر البلاد عناداً إلى الطريق الصحيح . فإذا فشلنا رغم ذلك ، وإذا جاءت الحرب رغم كل هذه الجهود ، فإنها ستأتى بنهاية الإنسانية . وليسكن ألماننا ألا يجازف أى رجل أو امرأة في العالم فيضطلع بمثل هذه المسئولية الجسيمة بأن يرفض هذا التعاون ، حتى نبليغ الهدف العزيز : السلام العالمى .

(٣)

حول الهند

منذ عهد غير بعيد كنا إذا ذكرت الهند حسبناها من البعد عنا بحيث لا يحول بخاطر أحد منا أن يفكر في زيارتها أو يمر بخاطره أن هذه الزيارة بما يدخل في حيز المستحالات ، وكان عامتنا حين يذكرون بلاد العجائب يذكرون الهند والسند وبلاد تركب الأفيال . فلما انقضت الحرب العالمية الأولى وبدأت الثورة المصرية سنة ١٩١٩ بدأنا نسمع في مصر عن أنباء حركة المهاتما غاندى في الهند ونرى وجوها للشبه غير قليلة بين حركتنا وحركة الاضراب ومقاطعة البضائع الأجنبية ، وعدم التعاون وما إلى ذلك من شئون قربت في أذهاننا بين تلك البلاد وبلادنا ، ودلتنا على أن ذلك الذي كنا نتصوره من قبل من بعد بلاد الهند عنا لم يكن مرجعه إلى ما يفصل بيننا وبينها من آلاف الأميال ، وإنما كان مرجعه إلى جهلنا أمرها ، وعدم وقوفنا على شئونها ، فلما بدأنا نقف على بعض هذه الشئون قربت منا ، لأن العلم يقرب بين الإنسان وما يعرف ، في حين يبعد الجهل بين الإنسان وما يجهل .

وازدادت حركة الهند الاستقلالية نشاطاً وقوة ، وازددنا تقيماً لها ووقوفاً على الكثير من أمرها ، فازددنا قرباً منها . وزاد في هذا

القرب أن رأينا الهند تعنى من شئون ما يجرى في محيطنا بما نعنى به نحن ، وتشاركنا في آلامنا وآمالنا . لما ألغت تركيا الخلافة الإسلامية بعد أن أقصت سلاطين آل عثمان عن عرشها بدأت في العالم الإسلامى حركة تفكير قوية في هذا الأمر الذى كان يعتبر يومئذ حيوياً عند جميع المسلمين وكانت جمعية الخلافة في الهند أقوى مظهر لهذه الحركة . ولم يكن ذلك عجباً ومسلبو الهند ييلفون يومئذ مائة مليون ويولفون أكبر كتلة إسلامية في العالم كله . لكن العجب في اشتراك الهنود غير المسلمين مع الهنود المسلمين في حركتهم هذه وتأييدهم لها حرصاً على وحدة الهند . وكان طبعياً يومئذ أن تتطلع الأنظار هنا في مصر ، وأن تتطلع أنظار المسلمين في شتى بقاع العالم ، إلى هذه الحركة الهندية الإسلامية وإلى تأييد المهاتما غاندى وأنصاره من الهندوس لها ، وأن يقرب ذلك بين الهند والعالم الإسلامى كله ، وأن يدفعنا هذا التعاطف إلى الشعور بأن الهند ليست بعيدة عنا بقدر ما كنا نتصور . وهل يقرب بين الناس شيء كاشتراكهم في العواطف لإزاء أمر بعينه . وهذا الاشتراك في العواطف يمحو الأبعاد وإن بلغت ألوف الأميال ، وعشرات الألوف من الأميال .

فلما نجحت الحركة الاستقلالية في الهند زاد نجاحها في قريها منا ، نحن معشر الذين يطلبون الحرية والاستقلال للشعوب جميعاً ، وبخاصة لأن الهند قارة أو شبه قارة كما يسمونها ، ولأن استقلال أربعمائة مليون من البشر . خمس الانسانية في مجموعها يعتبر نصراً مؤزراً

وقتحاً مبيناً للحرية والاستقلال والكرامة الإنسانية ولكل المعاني الإنسانية السامية .

وبدأ الغرب يكشف لنا عما في الهند من قيم روحية وخلقية عليا ، كما كان جهادها في سبيل الاستقلال مثلاً فذاً في تاريخ الجهاد الإنساني للحرية ، وبدأنا بذلك نشعر أن هذه البلاد المترامية الأطراف ذات الماضي المجيد والفلسفة الروحية السامية جديراً حقاً بأن نزورها وأن نشهد ما فيها وأن نقف على حاضرها وماضيها .

لذلك لم أتردد حين وجهت إلى حكومة الهند الدعوة للاشتراك في الندوة التي تعقد في نيودلهي لدرس ما كان لتعاليم غاندى وأساليبه العملية من أثر في توثيق العلاقات الانسانية في داخل الأمم وبين الأمم بعضها وبعض فقبلت الدعوة لأول ماعرضت علي ، وأخذت أدرس حياة غاندى وتعاليمه ، وأقف أثناء هذه الدراسة على شيء غير قليل من حياة الهند في ماضيها وحاضرها ، وأهمل نفسي للوقوف على ما هناك من ألوان الحياة ومظاهرها في هذا العالم الجديد الذي لم يتح لي من قبل أن أتصل به أو أقف عليه .

وترتب علي قبول الدعوة أن عرفت أن الطائرة تقطع ما بين القاهرة وبومباي في عشر ساعات . وكذلك سافرت إلى الهند فقضيت بها خمسة أسابيع ، من ٣١ ديسمبر إلى ٣ فبراير الماضي ، وفي هذه الأسابيع الخمسة شهدت الشيء الكثير مما يسرني أن أحدثكم الآن عنه . على أنني أبادر إلى القول بأنني لم أتنقل خلال ربوع الهند طيلة

هذه الأسابيع الخمسة . فقد كانت ندوة غاندى معقودة في نيودلهي ، وكان مقرراً أن يمتد انعقادها من ٥ إلى ١٧ يناير ، فكان لزاماً أن نقيم بعاصمة الهند طوال هذه المدة . فلما انتهت الندوة تنقلت أنا وصديقي الدكتور أحمد متين دفتري رئيس وزراء إيران السابق خلال الهند طيلة الأسبوعين اللذين بقيا من إقامتنا في ربوعها . فلما فرغنا من تجوالنا السريع في أرجائها قفلنا عائدين معاً حتى نزلنا بغداد ، ليسافر هو منها بعد أيام إلى طهران ، ولاسافر أنا منها بعد أيام كذلك إلى القاهرة .

* * *

الطبيعة أول ما تلفت نظر السائح في بلاد غير بلاده . وكثيرون يظنون أن الهند بلاد جميلة كسويسرا أو كلبان . ويغريهم بهذا الظن أن بها جبال الهمالايا حيث تقوم قمة أفرست أعلى قمة في جبال العالم . ويظن آخرون أن الهند بلاد الغابات والأدغال الموحشة التي تغطي عشرات الآلاف من الأفدنة ، وأنها تحوى من الوحوش أمثال الأسد والنمر والفهد ما يخافه الإنسان . يغريهم بهذا الظن ما كتبه الرحالون الإنجليز وغير الإنجليز عن صيد الوحوش في الهند . وكلا هذين الظنين لا يصور الواقع من أمر الهند في مجموعها . صحيح أن الجبال تمتد في شمال الهند وتقوم حاجزاً منيعاً بينها وبين جاراتها من الأمم الأخرى . ولكن طبيعة الهند فيما سوى هذه المنطقة الشمالية . طبيعة سهلة تشبه طبيعة وادينا المصرى في كثير من الأحيان . والمرتفعات التي تقوم على الساحل الهندى ليست جبالات عالية عظيمة

الارتفاع، بل هي في كثير من الأحيان مضاب لا يزيد ارتفاع الكثير منها على الجبال المحيطة بوادينا والتي تفصل بينه وبين صحرائنا الشرقية وصحرائنا الغربية . صحيح أن بعض البلاد بالداخل ترتفع عن سطح البحر بضعة مئات من الأمتار ، وأن هذا الارتفاع يجعل جوها رقيقا مقبولا على مدار فصول السنة . لكن ارتفاعها هذا لا يجعلها جبلية ، بل هي أراض منبسطة تجري السيارة في طرقها مستوية مئات الأميال تنبسط يمينها وعن يسارها المزروعات الممرعة ويمتد البصر منها إلى الأفق فلا يقف في طريقه حائل من تل أو هضبة أو جبل إلا نادرا .

لفتت هذه الطبيعة السهلة المنبسطة نظر الكثيرين من إخواننا الذين دعوا إلى ندوة غاندى ، ولفت نظرهم خصب الأرض المخضرة بالزروع النامية الممتدة إلى مدى البصر . ذهبت أنا والدكتور رالف بانس نزور تاج محل في أجرا ، ونزور آثارا أخرى في المدينة المهجورة : فاتح بورسكرى . وأجرا تبعد عن دلهي مسافة مائة وخمسة وعشرين ميلا ، وفاتح بورسكرى تبعد عن أجرا خمسة وأربعين ميلا . وقد كان انبساط الأرض وخصبها موضع حديثنا ونحن في السيارة . كذلك ذهبت بالقطار أنا والدكتور متين دقترى نزور جامعة عليكرة ، وهي تبعد عن دلهي بعد أجرا عنها ، فكانت الطبيعة أمامنا ونحن ننظر من نافذة القطار منبسطة كذلك إلى مدى النظر . وكذلك كان الشأن حين تجوالنا أسبوعين داخل الهند . من ذلك تبيننا أن الهند بلاد زراعية وفيرة الثروة كثيرة الخامات ، وإنذاك كانت مطمح نظر المستعمرين في عصور كثيرة .

ولم أقف أثناء تجوالى بالهند عند تلك الغابات التى تصاد فيها النور والحيوانات المفترسة . ولعل هذه الغابات أو الـ Jungles كما يسمونها ، تقع فى مناطق محدودة لم يتسن لى أن أذهب إلى أيها .

إذا كانت الطبيعة أول ما يأخذ بنظر السائح الغريب عن الديار فالآثار هى أشد ما يجذبه ويستمره . فالسائح القادم إلى مصر أول ما يفكر فى زيارة الهرم وأبى الهول وصقارة والأقصر . ونحن نزلنا دلمى قبل لنا إن من جاء الهند ولم يرتاج محل لم يكن قد زار الهند . فأنت حين تذهب إلى فرنسا مثلاً فأول ما يعينك أن تشهده ، وأول ما يعنى أهل فرنسا أن يطلعوك عليه ، هى الآثار الموجودة فى باريس وما حولها فى فرساي ، وفونتنبلو ، وفنسين ، وقصور اللوار فى أواسط فرنسا .

وزيارة الآثار لا يقصد بها إلى مشاهدة هذه المباني وما تحتويه للبتاع بجمال العمارة وجمال ما بداخلها وكفى ، بل يقصد بها إلى معنى أدق من هذا بكثير . يقصد بها إلى معرفة صلة الإنسان بالحياة والوجود فى مختلف أدوار التاريخ . فهذه الآثار المصرية القديمة تصور حياة الفراعنة وتصورهم للحياة ولما بعد الحياة . والآثار الفرنسية تصور حياة فرنسا السياسية والاجتماعية وما طرأ عليها من هزات بلغت حد الثورات أحياناً . وما تقع عليه العين من آثار روما ، ما هو مهدم منها وما هو باق إلى اليوم ، يصور حياة الرومان القديمة وتطور هذه الحياة خلال العصور إلى وقتنا الحاضر .

والهند غنية بالآثار إلى غير حد . وآثارها ترك في النفس ألواناً مختلفة من التصور الإنساني للحياة في عصور الإنسان المختلفة . ذلك بأن الهند طرأت عليها ألوان من الحضارات استقرت فيها وتركت من آثارها ما يقف النظر بالفعل . فهناك إلى جانب الآثار الهندوسية الأصلية - التي يرجع تاريخ بعضها إلى أئني سنة أو أكثر - آثار المغول ، وآثار الفرس ، وغير هؤلاء وأولئك من المسلمين . كما أن هناك آثاراً حديثة أقام الهنود بعضها ، وأقام البريطانيون البعض الآخر . وكل هذه الآثار تقف النظر وتدعو إلى أعمق التفكير .

وأهم الآثار الإسلامية التي يشهدها الإنسان في أرجاء الهند المختلفة المساجد والمقابر وتاج محل ، وهو أبهى هذه الآثار وأكثرها روعة وجلالا ، إنما هي مقبرة شادها الملك ساهجان لامرأته ، كما أن أهرامات مصر مقابر شادها الفراعنة ليدفنوا بها . وأنت تشهد هذه العمارات البديعة التي أقامها ملوك المسلمين في الهند ليدفنوا أو يدفن بعض ذويهم بها منتشرة في كثير من المدن . تشهدها في دلهي . وفي أجرا ، وفي السكسندرا ، وفي حيدر آباد وفي مثلها من المدن الكبرى ذات التاريخ المجيد في الهند . وكثيراً ما نرى إلى جانب هذه المقابر الفخمة مستقلة عنها غير متصلة بها . وهي في ذلك تختلف عن مقابر المصريين المتصلة بالمساجد ، وتختلف كذلك عن مقابر الصالحين المتصلة بالمساجد في العراق وفي تركيا . فقبور الصالحين في مصر والعراق ، أو مقصوراتهم كما نسميها هي جزء من المسجد ، كما أن

المقصورة النبوية جزء من المسجد النبوي بالمدينة . وعمارة المساجد تختلف بين مصر والعراق ، لكن الصالحين المدفونين هناك تقع مزاراتهم داخل المسجد ، على حين تقع مقابر الملوك المسلمين في الهند منفردة عن المسجد ، يفصل بينها وبينه طريق يختلف سعة وضيقا .

ولم أر مقابر متصلة بالمسجد إلا ما كان في مسجد حيدر آباد . على أن نظام المقابر في هذا المسجد يختلف عنه في مساجد مصر والعراق سواء منها مساجد أهل السنة أو مساجد الشيعة . فقابر حيدر آباد هذه ، وهي ثلاثة ، تقع في دهليز طويل يبلغ طوله ثلاثين مترا أو تزيد ، وهذا الدهليز مرتفع عن الأرض قرابة متر ، مبني كله بالرخام ، والقبور تتوسطه مبنية بالرخام كذلك ، وقد غطى كل منها بستر من قماش كثيف ، يرفعه سادن هذه القبور للزائرين ذوى المسكنة من ضيوف الدولة .

فأما مساجد الهند فتختلف كذلك عن غيرها من مساجد المسلمين ، ولم أر لها شبيها إلا الجامع الأموي بدمشق . فأما مساجد العراق ، ومساجد أستانبول فتشبه مساجدنا هنا من حيث إنها مسقوفة كلها . أما مسجد دمشق ، وأما مساجد الهند ، فالجانب المتصل منها بالقبلة مسقوف يرتكز سقفه على عمد ثم يظل سائر المسجد مكشوقا إلى السماء ، متصلا مع ذلك ببقية المسجد على أنه جزء منه .

ومساجد الهند التي رأيته حسنة البناء كلها .

ولم أعن نفسي بالبحث عن أى هذه المساجد لأهل السنة وأيها

للشيعة ، وإن كنت قد عرفت في كثير من المدن التي زرتها أن الشيعة مساجد ولأهل السنة مساجد أخرى . وفي البعض يزيد أهل السنة على الشيعة زيادة كبرى ، وفي البعض الآخر يزيد الشيعة على أهل السنة زيادة ظاهرة . ويرجع ذلك إلى التاريخ أكثر مما يرجع إلى أى سبب آخر ، فقد نزل الفرس الذين جاءوا الهند بعض المدن وكثروا فيها فكانت الكثرة فيها للشيعة ، بينما كثرت غير الفرس من المسلمين في مدن أخرى فكانت الكثرة فيها لأهل السنة .

غير الآثار الإسلامية تقوم الآثار الهندوسية المختلفة ومعظمها معابد ، يرجع تاريخ بعضها إلى ألفى سنة أو أكثر كما قدمنا ، بينما أقيم البعض في عهد حديث . وقد هجرت بعض هذه المعابد الهندوسية حتى تهدمت أو كانت ، بينما بقي بعضها إلى اليوم حاسرا . ويتعذر على من لم يدرس عقائد الهند وفلسفة هذه العقائد أن يميز بين هذه المعابد والمذهب الذي تمثله . ولقد كانت مدة إقامتي بالهند قصيرة فلم أتمكن من دراسة تعاوتني على هذا التمييز بين المعابد . ولست أكتفى مع ذلك زور الكثير منها ووقفت عند بعضه معجبا بدقة عمارته ، معجبا كذلك بما بين ألوان العبادة فيه وبين التثليث المصرى القديم والتثليث المسيحى وبين التثليث الهندوسى من شبه ، وإن اختلف ما يرمز إليه التثليث الفرعونى والمسيحى ، والهندي ، خلافا كبيرا .

وتبعث هذه المعابد وما فيها من نشاط صورة من حياة الماضى الهندى يجعله في حكم الحاضر ونشاطه . زرنا المدينة المقدسة بنارس

الواقعة على نهر الجانجى أو الجانجى كما يسميه الهنود ، ومررنا بعد العشاء ببعض معابدها فألفينا العشرات بل المئات يذهبون إلى هذه المعابد ومع الكثيرين منهم ما يتقربون به إلى معبوداتهم ، يصنعون من ذلك ما كان يصنعه أسلافهم منذ مئات السنين أو ألوقها ، ويشهدون بذلك على أن هذا الماضى مازال حيا كما كان ، وأن مظاهر الحضارة الغربية لم تبجن عليه فى قليل ولا فى كثير .

وزرنا عصر ذلك اليوم معابد تشهد ألوان العبادة فيها بأن الحياة الحديثة والعلم الحديث لم يجنيا على مقدسات الماضى السحيق حين كان الإنسان يتخذ الحيوان ويتخذ الأحجار إلى الله زلقى .

زرنا بعد ذلك فى سارنات على مقربة من مدينة بنارس ، معبد بوذا وآثاره . الشجرة التى يذكر أن الإلهام أضاء أمامه بنوره وهو تحتها ، والفضبة التى أدى إليها ليعبد فيها ربه ، والمعبد الذى أقيم من عهد غير بعيد دسنت على جدرانها تماثيله .

ومن عجب أن البوذية التى نشأت فى الهند لم يبق لها فى الهند أتباع إلا قليلين ، بينما ازدهرت فى بلاد أخرى تجاور الهند ، برما والتبت وبعض أنحاء الصين واليابان .

وما دنا بصدد المعابد الهندية والحديث عنها فلا أستطيع أن أغفل أقربها عهداً وأقربها إلى تصوير التطور فى الحياة الروحية الهندية تطوراً كان الماهاتما غاندى صورته الحية . أقصد معبد برلا ، وهو المعبد الذى أقامه السرى الهندى برلا فى نيودلهى واقتنحه

المهاتما غاندى . فهذا المعبد مجموعة تحتوى عدة معابد أحدها برهمى ،
والآخر بوذى ، والثالث لمذهب آخر من المذاهب الهندية . وفي
كل واحد من المعابد يرى الإنسان مكتوباً بالانجليزية وحدانية
الله ، وتشير إلى ما كان يكرمه غاندى من أن الله هو الحق ، وأن الحق
هو الله ، وتذكر أن الخلق والحياة والانهيار والفناء مظاهر ، وأن
البقاء لله وحده ، وأن الأبواب التى يصور الخلق والبقاء والتجدد
إنما تصور صفات من صفات الله . أليست هذه المعانى الدينية
المنقوشة على جدران هذا المعبد تمثل المعانى المشتركة فى الأديان كلها .

اقتتح غاندى هذا المعبد . وكان غاندى رجلاً متديناً شديد
الإيمان بالله . طلب إليه بعضهم يوماً أن يكتب كتاباً يصور فيه
فلسفته الدينية والسياسية فقال : لئن لست فيلسوفاً ، ولكننى رجل
عمل ، فإذا عرضت لى مشكلة استخرت الله فألهمنى طريقاً فسرت فيه
فوفقنى إلى ما أبتغيه .

ليس هذا المقام مقام الحديث عن غاندى وآرائه : لكننى وأنا
أقص مشاهدتى فى الهند لايدلى من أن أذكر أننى حين قرأت حياته
أخذت منها أكثر من كل شىء بمجوده لمقاومة عقائد تأصلت فى
الهند خلال عشرات القرون بل مثاتها ، ونجاحه فى ذلك نجاحاً منقطع
النظير ، حتى لقد كان أول ما دار بخاطرى وأنا بالطائرة فى طريقى
إلى الهند أن أرى مبلغ هذا النجاح . قاوم غاندى نظام المنبوذين ،
وقاوم عبودية المرأة للرجل ، فكان لذلك من أتباعه منبوذون

كثيرون ، ونساء كثيرات . وقد سألت نفسى : أناصل هذا
فى الهند فأصبح بعض عقائدها ، أم تراه تطاير فمادت الهند إلى
سابق صدها قبل غائدى ؟

وهنا أتقل من الحديث عن مشاهداتى لطبيعة الهند ولآثارها
إلى مشاهد الحياة الاجتماعية فيها .

تلطف حاكم ولاية بومباى فدعانى إلى طعام الغداء يوم وصولى
إلى بومباى . فلما التقينا ودار بيننا الحديث سألته : ما شأن المنبوذين
فى الهند اليوم ؟ وكان جوابه : لقد ألغى الدستور نظام الطبقات وقرر
مساواة الهنود جميعاً . قلت : هذا حسن من الوجهة النظرية . فهل
انتقل الأمر إلى الحياة العملية فأصبح الناس يعاملون بعضهم بعضاً
وكان لم يبق بين الطبقات فارق ؟ وأجابنى الرجل فى صراحة :
لا أستطيع أن أقول نعم . فما يزال من أهل الطبقات القديمة
من لا يؤمن بهذه المساواة ، ولا يزال منهم من يرى المنبوذين
نجساً ، لكننى مقتنع أن هذا الاعتقاد مصيره إلى الزوال بعد
أن أصبح أبناء المنبوذين يجلسون إلى جانب أبناء الطبقات
الأخرى فى المدارس ومعاهد التعليم ، وبعد أن فتحت أبواب
الوظائف الحكومية للأكفاء جميعاً بصرف النظر عن الطبقات
التي يتمتعون إليها ، وبعد أن أصبح من حق الجميع أن يعملوا
فى الأعمال الحرة المختلفة ، وأن يكسبوا من المال ما تؤهله لهم كفايتهم .
وللتطور الاقتصادى حكم على التطور العقلى ، كما أن التطور العقلى

متأثر بأحوال العالم الذى تقاربت أجزاءه . لهذا أعتقد أن هذا التمييز بين الطبقات صائر إلى الزوال هما قريب ، وإن كان زواله ليس معناه ألا تنشأ طبقات أخرى أساس منشئها الثروة أو الجاه أو ما شئت من أسباب التفرقة المختلفة .

والتقينا ونحن فى بنارس بالفيلسوف الهندى الدكتور باجوات داسى ، وهو رجل مهيب الطلعة يبلغ من العمر أربعاً وثمانين سنة ، حدثته فى أمر المنبوذين فكان جوابه غير جواب حاكم بومباى . قال : إن محاولة القضاء على الطوائف معارضة للطبيعة والتكوين الإنسانى . فقد أثبت الإحصاء فى أمريكا أن ثلاثة وأربعين فى الألف فقط من بين المتعلمين تعليماً عالياً هم الذين يستطيعون السمو بتفكيرهم إلى مرتبة التجريد (abstraction) وأن غير هؤلاء من المتعلمين ومن غيرهم هم الذين يقومون بالتجارة أو بشئون الجيش ، وأن العدد الأكبر هم الذين يزاولون الأعمال الجسدية كالزراعة والصناعة وما إليها . ومن هؤلاء من لا يستطيعون من هذه الأعمال إلا أقلها حاجة للكفاية أو المهارة . وتطبيق هذا الذى قرره الإحصاء بعد ذلك يعود بك إلى تصوير الطوائف فى الهند تصويراً يرجع إلى ألوف السنين . وإذا كان هذا التصوير قد فسد وأصبحت الطوائف العليا تعمل لكسب المال وهو محرم عليها فليس الذنب فى ذلك ذنب الفكرة المستندة إلى تكوين الإنسان الطبيعى ، بل الذنب ذنب الجماعات الإنسانية التى يهوى بها الضعف إلى درك لا يتفق وما فرضته الطبيعة بين الناس من اختلاف .

كان هذا جواب الفيلسوف الهندي الحكيم . وهو كما ترون جواب على لا يغير من واقع الحياة شيئاً . وواقع الحياة في عصرنا الحاضر أكثر اتفاقاً مع الرأي الذي أبداه حاكم يومباي ، والذي توجه إليه الديمقراطية وغير الديمقراطية في العصر الحديث .

أما تطور شأن المرأة في الهند فأعظم من تطور شأن الرجال . فقد تناول التطور في أمر الرجال طائفة منهم بعينها . أما المرأة فقد دفعها التطور في كل الطوائف إلى الأمام وإلى الحرية دفعاً لا يكاد الإنسان يصدق . وكان أكبر الفضل في هذا للهاثما غاندى كذلك . كانت المرأة الهندية إلى عهد غير بعيد في حالة تقرب من الرق ، حتى لسكانت تحرق مع زوجها حين يموت ، وكانت في حياتها في مركز يكاد يكون مركز الرقيق . فلما أشركها غاندى في حركة المقاومة في غير عنف ، وفي حركة العصيان المدني ، أظهرت من قوة الاحتمال ما يعجز عنه الرجال في بعض الأحيان . هنالك ارتفعت الصيحة بأن للمرأة من الحق في الحياة ما للرجل ، وسرعان ما انتقلت من ذلك إلى مساواته في الحقوق كلها ، وفي الحقوق السياسية نفسها . ولعمري لأنها بذلك لجديرة . لقد كنت شديد الإعجاب بمدام بانديت شقيقة الرئيس نهرو منذ رأيتها في الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٤٦ وعام ١٩٤٧ ، وكنت أحسبها امرأة ممتازة لا يشاركها في امتيازها رجل أو امرأة . فلما ذهبت إلى الهند وأتيت لي أن أتحدث إلى بعض السيدات هناك ، رأيت صورة إنسانية بالغة غاية الرقي في تفكيرها

وفي ذوقها الحياة . وزادني اقتناعاً بذلك أن شهدت بعض مظاهر النشاط النسوى في الحياة الاجتماعية وفي الحياة التربوية ، لا في دلهي وحدها ، بل في مدن مختلفة زرتها . وليس عجبا أن تهض المرأة في أمة كل شيء فيها ناهض أو متوثب للنهوض .

ذكرت أن الهند بلاد زراعية أرضها خصبة متنوعة الحاصلات . مع ذلك تعمل الحكومة المركزية متعاونة مع حكومات الولايات الهندية لمضاعفة الإنتاج الزراعى بإقامة السدود لتنظيم الري ، وتعمل في الوقت نفسه لتصنيع البلاد وتركيز الصناعات الكبرى في الأجواء الملائمة لها . والصناعة هى الوسيلة الوحيدة لرفع مستوى المعيشة في الأمم ، وهى كذلك الوسيلة الأكيدة لعمور الآمة بمقدورها الإنسانية على الدفاع عن نفسها . ولقد نشأت في الهند صناعات ضخمة كثيرة في مقدمتها صناعة النسيج للقطن والحرير ، ومنها صناعة الحديد ، والحزف ، ومنها كذلك صناعة أجزاء الطائرات المختلفة . وقد زرت المدرسة التى يتعلم فيها الهنود صناعة الطائرات على يد أساتذة من الألمان ومن السويديين ومن غيرهم فأثارت غاية إعجابى ، وإذا لم تكن قد بلغت بعد أن تصنع محركات الطائرات فإن تقدمها المطرد يبشر بأنها ستبلغ أن تصنع هذه المحركات في زمن قريب .

ولست فيما أذكر من ذلك مبالغا في التفاؤل . فان نشاط الحركة العلمية في الهند يدعو إلى الإعجاب ، بل يدعو إلى الدهشة . وقد كانت هذه الحركة العلمية أشد ما أثار اهتمامى مدة مقامى بالهند . لذلك زرت

كل جامعة استطعت زيارتها في البلاد التي مررت بها ، وتحدثت إلى الأساتذة والطلاب فيها . وأشهد لقد أدهشني ما رأيته في بعضها من تجارب علمية بالغة غاية الدقة .

كثيرا ما سمعت عن جامعة علي كره ، أو اليجار الإسلامية كما يسمونها بالإنجليزية ، وقد ذهبت لزيارتها مع صديقي الدكتور مدين دفتري بدعوة من مديرها الدكتور زكير حسين . وكان أكبر ظني أن هذه الجامعة الإسلامية تعنى بالدراسات الإسلامية المختلفة ولا تتعدها . فلما بدأنا زيارتنا لم يتغير هذا الظن في نفسي . فقد كان مسجد الجامعة أول ما سار بنا الدكتور زكير إليه . ثم إننا زرنا مكتبة الجامعة ورأينا فيها الكثير من الكتب العربية والفارسية ومن المخطوطات القديمة فلم يغير ذلك من ظني الأول كثيرا . لكنني لم ألبث حين اتفقت مع الدكتور زكير إلى أقسام الجامعة العلمية أن تغير ظني من أساسه . فهذه الأقسام العلمية في الطبيعة والكيمياء والرياضة العليا وغيرها تتناول أدق مشاكل العلم في الوقت الحاضر . وبعض هذه الأقسام بما رتب للبحث العلمي ينقطع له من أموال دراساتهم العليا ويصلون فيه إلى نتائج تفخر يمثلها أكبر الجامعات في أوروبا وأمريكا ، ويشرف عليها بعض العلماء الأمريكيين . وحسبي أن أذكر لكم من هذه الأبحاث محاولة ناجحة لقياس الضغط الجوي على ارتفاع مائة ألف قدم منها وآثاره الكهربائية على ألواح تعد خصيصا لهذا الغرض وترسل في الجو على مناطيد صغيرة تسجل الآلات الدقيقة فيها هذه الآثار الجوية العجيبة .

وقد شهدت مثل هذه الأبحاث في معاهد جامعة بنجلور وفي غيرها من الجامعات التي زرتها .

وكان أكبر اهتمامي في هذه الزيارات الجامعية أن أبحث الوسيلة التي تستطيع البلاد الشرقية ، وتمتطيع الهند معها ، أن تتبادل من ألوان التعاون العلمي والثقافي والفلسفي ما يزيد روابطها قوة إذ يجعل أبناءها أكثر معرفة بما في غير بلادهم من اتجاهات وأبحاث . ولقد شعرت بأن هذا الموضوع ليس من اليسر بما يتصور الإنسان . قال أحد الأساتذة في جامعة بنجلور بأن بحثا كهذا البحث جرى لتقريب أجزاء الكتلوث البريطاني من الناحية العلمية والفكرية فلم يسفر عن نتيجة . كذلك تحدثت وأنا في بنجلور مع سير صمويل رانجيدان والسيد جوردون في هذا الموضوع وذكرت لهم ماعرض من اقتراحات بعقد مؤتمرات وتبادل أساتذة وطلاب وتبادل مؤلفات وبحوث فتمنيا لي النجاح في المحاولة التي أعالجها وإن بدا عليهما شيء من الشك في هذا النجاح . وكم أود لو استطاع رجال جامعاتنا وعلماؤنا أن يتناولوا هذا الموضوع بالبحث فيما بينهم . فالصلات العلمية والأدبية والفنية بين الأمم هي التي تسكفل ارتباطها بأوثق رباط .

الفصل الخامس

الإسلام والحضارة البجدية

(١)

القوة الروحية في الإسلام

يخطئ الذين يظنون أن مصير الإنسانية رهن برغائها المادى ، وأن تطورها إلى ناحية السكال يتأثر بهذا الرخاء . إنما يرتبط مصير الإنسانية بحياتها الروحية وبالإيمان الحق بهذه الحياة . والتاريخ شهيد بذلك . فحيثما هبطت الحياة الروحية إلى أوضاع مادية نشأت الأزمات الإنسانية الخطيرة ، وآذن التاريخ أن يتجه وجهة جديدة . وإن بلغ الرخاء أعظم مبلغ وحيثما سمت الحياة الروحية إلى المعانى العليا نشطت الإنسانية فى اتجاهها نحو السكال . وازدادت حرصاً على بلوغ الغاية من معرفة الحق والخير والجمال . ولو لم يكن الرخاء عاماً ، ولو كان عيش الناس أدنى إلى الشظف والتقصف .

هذه حقيقة يشهد بها التاريخ القديم ويشهد بها التاريخ الحديث . ولئن كانت القوة المادية تستطيع مقاومة القوة المادية لى عاجزة كل العجز عن مقاومة القوة الروحية . وحسبنا مما شهدنا أخيراً ما قاومت به الهند إنكترا

بزعامه المهاتما غاندى . فقد حتم زعيم الهند وكيسين الروحى على أصحابه ألا يقاوموا قوة الحكومة المادية بأية مقاومة إيجابية . وطلب إليهم أن يكتفوا بالمقاومة السلبية ، وأن يأبوا معاونة المعتدين عليهم ، وأن يستمينوا بالموت فى سبيل عقيدتهم هذه ، فكانت تلك قوة أعظم من كل قوة مادية إيجابية تستطيع الهند فى وضعها الحاضر أن تقاوم بها إنكسارها . وإننى لعل ثقة من أن هذه الحال إن استمرت عن عقيدة صادقة وإخلاص وإيمان قديرة على بلوغ كل الأغراض التى يراد أن تبلغها ، وهى إذا كانت قد قصرت دون الوصول إلى الغاية كاملة فلأن القائمين بها لم يستمروا فيها إلى النهاية .

وفى التاريخ أكثر من شاهد على قوة الحيوية الروحية قوة لا يمكن لقوى المادة وإن اجتمعت أن تغلب عليها . وانتشار المسيحية فى روما أول أمرها وما احتمل المسيحيون من اضطهاد وتعذيب وقتل شاهد على ما أقول . وما حدث فى مصر كذلك من تعذيب المسيحيين ومن تغلب المسيحية ، على رغم هذا التعذيب ، شاهد آخر . على أن أقوى شاهد فى تاريخ الإنسانية على اقتدار القوة الروحية على الانتصار والظفر بقوة الحياة المادية كلها إنما هو ما حدث حين قام محمد النبى العربى فى شبه جزيرة العرب يدعو إلى عبادة الله ، وإلى تحطيم الأصنام ومجادل اليهود ومجادل النصارى ويصل بقوته الروحية التى سمى إلى الذروة من قوى الروح إلى إقرار التوحيد فى شبه الجزيرة ، وإلى التمهيد لانتشاره بسرعة لم تعرف الأديان الأخرى نظيرها فى أنحاء العالم كله .

لقد كانت الوثنية هي الدين الغالب في بلاد العرب حين بدأ محمد يدعو إلى الإيمان بالله وحده ، والعبودية له وحده ، والمساواة أمامه ، والإخاء فيه . لكن الأديان المبروفة يومئذ وأقواها اليهودية والنصرانية كانت معروفة في بلاد العرب ، وكان لها دعاة وأتباع . وكانت المجوسية الفارسية معروفة ، إذ كانت الفرس تتاخم بلاد العرب بسلطانها على الحيرة وعلى اليمن . فلما بدأ النبي العربي دعوته كان أول ما اتجه بها إلى عشيرته الأقربين من عباد الأصنام . ومع أنهم كانوا أصحاب سلطة ومجد ، ومع أنهم كانوا القائمين بتجارة بلاد العرب فيما بين قبائلها المختلفة ، والقائمين بها بين هذه القبائل والبلاد المجاورة لبلاد العرب كالخيرة والشام ، ومع أنهم كانوا بذلك أولى بأس مادي شديد فإن القوة الروحية التي دعا بها محمد إلى التوحيد قد تغلبت على أموالهم وعلى بطشهم وبأسهم . وسرعان ما كسبت لذلك أنصاراً جعلوا يزدادون عدداً بتوالي السنين وجعل عددهم يزداد سراعاً كلما تبين الناس هذه القوة الروحية وسموها فوق الاعتبارات التي يجري الناس وراها .

فلما آن لمحمد أن يهاجر إلى يثرب ، ووجد اليهود من أهل الكتاب بين أهلها يؤمنون بالله ، وادعهم وعاهدهم . لكنهم ما لبثوا حين رأوا قوته الروحية أسى من كل ما يعرفونه أن يرموا به وأرادوا إيقاع الفرقة بين صفوف أتباعه بالدسيسة وبالخداع وبالنفاق . والقوة الروحية الصادقة لا تعرف هذه الوسائل التي يلتمس بها سواد الناس سلطان الجاه وسلطان المال ، لذلك أسرع التخصومة إلى القيام

بينهم وبين المسلمين المعتزين بقوتهم الروحية ، المستهينين بالموت في سبيلها ، إيماناً منهم بأن الدعوة للحق جل شأنه أسى غرضاً في الحياة لسلك من اهتدى إلى الحق عن إيمان وبصيرة .

وخاصم اليهود محمداً ومن تبعه فدارت عليهم الدائرة واضطروا إلى الجلاء من شبه جزيرة العرب كلها مع أنهم كانوا يثرب أصحاب السلطان النافذ من الناحية المادية لأنهم كانوا أصحاب المال فيها . فأما النصارى فلم يخاصموا محمداً والمسلمين مخاصمة اليهود إياهم لأن المسيحية تفرقت شيعاً منذ عهودها الأولى . ودب إلى أتباع عيسى شقاق أدى إلى الجدل المادى حول الالفاظ وأدى إلى تصوير الحياة الروحية تصويراً مادياً يسيغه الخيال ويفتن في تلويثه اقتتاناً يزيد في هذه الشيع والفرق ويدخل إلى حياتها الروحية من التعقيد مالا تسيغه بساطة هذه الروح بساطة هي مبعث قوتها . ومن ثم انزع كثيرون من النصارى محمداً وبقي آخرون على نصرانيتهم متزوين لا يثيرون ما أثار اليهود من حرب وجدال لإنهى بهم إلى الجلاء عن بلاد العرب .

وكان أمر المجوسية أضعف من أمر اليهود والمسيحية في بلاد العرب فلم يكن لذلك جدال ولا فضال بين أتباعها القليلين وبين الدعوة إلى التوحيد .

على أنه إذا كانت نصرانية بلاد العرب قد أثرت مسالة محمد والمسلمين الذين آمنوا بدعوته فإن الأباطورية البيزنطية المتباخخة

لببلاد العرب خاف أصحاب الحكم فيها على نفوذهم أكثر مما تمسكوا
بدينهم . فآثروا أن يناصروا المسلمين الحرب على أنها حرب سياسية
لا حرب عقيدة ودين ، وحيث ترتطم السياسة ومداورتها مع
العقيدة القائمة في النفس على إيمان لا يهاب الموت تتحطم السياسة
وأساليبها وقوامها وتنحصر العقيدة الصادقة والإيمان الخالص . لذلك
لم تمض سنوات على اختيار الله نبيه إليه حتى كان سلطان المسلمين
قد أظلم بلاد الشام الخاضعة للإمبراطورية الرومانية الشرقية كما أظلم
بلاد فارس المجوسية ، وفي هذه البلاد التي فتحت أبوابها للمسلمين قام
الدعاة بدعون إلى دين الله فلم يلبث أهل هذه البلاد أن رأوا بساطة
الإسلام وسمو وجمال الدعوة الخلقية القائمة على الإيمان فيه وما يقيم
بين المؤمنين به من إخاء صادق في الله ومن بر وقوى .

هنالك انشرفت صدور الأكثرين من أهل هذه البلاد للإيمان ،
فآمن منهم من آمن وبقى على دينه من بقي . لم يكرهه حاكم على التحول
صنه أو تبديله .

ولم يمض قرن واحد على خروج الدعوة الإسلامية من بلاد
العرب حتى كان الدين دانوا بالإسلام مئات الألوف . وحتى كانت
قوة الإسلام الروحية قد غزت القلوب والعقول ببساطتها وغطايتها
النفس الإنسانية في أعظم نواحيها سموا وعظمة ، لكن أوضاعاً
مادية من أوضاع أهل الأديان الذين اعتنقوا الإسلام ما لبثت أن
تسربت إلى بعض نواحيه ، كما أن دعايات سياسية عملت جهدها

لتكثر من هذه الأوضاح المادية . وقد خيف أن تفشو بين المسلمين
الفرقة والتشيع كما فش في المسيحية فيكون لها على المسلمين ما كان
لها من الأثر على المسيحيين. ولو أن ذلك حدث واستفحل أمره لكان
الطامة الكبرى . لكن ما حدث منه ، وما أضعف بحدوثه هذه القوة
الروحية العظيمة التي جاء الإسلام بها وانتشر سلطانها لم يؤثر لحسن
الحظ ، على جوهر الدين وعلى أساسه القائم على التوحيد . وهذا
هو ما جعل المسلمين بعد أن طغت عليهم دول كثيرة يحتفظون
بإسلامهم ولا يبتغون غير الإسلام ديناً . وذلك ما جعل القوة
الروحية التي امتاز بها الإسلام تظل محتفظة بكيانها وإن أضعف منها
هذا الذي حدث وأخضع أهلها لغيرهم من الدول .

ولو أن هذه القوة الروحية طادت تملأ نفوس المسلمين اليوم كما
كانت تملأ نفوسهم في صدر الإسلام وفي عهوده الأولى لما استطاعت
قوة مادية أن تتغلب عليها وإن آزرتها معجزات العلم بكل سلطانها .
وليس هذا العود بالأمر العسير إذا تضافرت جهود المسلمين الصادقين
عليه . ولو تضافرت هذه الجهود لأسدى أصحابها للإنسانية يداً
ولا تقذوها من أزمة تمايها وتعالج الخروج منها فلا تجد إلى الخروج
من سبيل .

(٢)

أوروبا والإسلام ولم لا يتفاهمان ؟ (*)

أما أنه ليس هناك تقام بين أوروبا والإسلام فهذا أمر لاشك فيه ، غير أن كثيراً من الأوروبيين يرجعون هذا إلى الدين ، وهم يقولون إن المسيحية والإسلام عاشا في خصومة مستمرة منذ ثلاثة عشر قرناً ، ولذلك كان من الطبيعي أن ينشب بينهما الخلاف وأن لا يتم التفاهم بين أوروبا والإسلام ، تلك فكرة خاطئة ، وإذا كان فيها ظل من الحقيقة فهو بمقدار ما في قولنا إن فرنسا وإنجلترا لم يستطيعا التفاهم قبل سنة ١٩١٤ . فقد كانتا قبل هذا التاريخ عدوتين كأشد ما تكون عدوتان نفرة وخصاماً وليس من السهل على إنسان يحكم عقله فيما يعرض له من مظاهر أن يقبل نقاشاً من هذا النوع ، إذ أن هاتين الدولتين متفاهمتان تفاهماً تاماً ، وليست الأفكار الديمقراطية التي شاعت في فرنسا سنة ١٧٨٩ إلا نفس الأفكار التي جاءت بها الثورة

* وكانت صحيفة — الكايه دى سيد — التي تصدر في فرنسا قد بعثت إلى الدكتور هيكل تطلب إليه أن يكتب مقالا بالفرنسية ليفسر في العدد الذي خصصته هذه الصحيفة — للإسلام والغرب — فبث إليها بهذا المقال عن أسباب عدم فهم أوروبا للإسلام وما يراه من الوسائل الكفيلة بخلق تفاهم بينهما . وقد ترجمه الأستاذ أحمد عبد الغفار المحامى (١٩٣٦) .

الإنجليزية في سنة ١٦٨٨ ، وهى هى التى هيات لما نتج عنها من تطورات . وهذا نفس ما وقع بين أوروبا والإسلام . فإن أوروبا قد استفادت كثيراً من الجهود العلمية والفلسفية التى جاءت بها الدولة العباسية فى العصور الوسطى . ولا أحسب أنى أنهم بالمغالاة إذ قلت إن المسلمين هم الذين فتحوا عيون أوروبا على الحضارة والفلسفة اليونانية ، وذلك عن طريق نقل آثار أفلاطون وأرسطاطليس إلى العربية وتعليقهم على هذه الآثار . ولم يمنع الدين المسيحى ولا الدين الإسلامى أن تستفيد أوروبا من هذا الجهد الإسلامى .

ودليل آخر على أن هذه فكرة مخطئة هو أن كلا من المسيحية والإسلام إنما يقيران إلى نفس الآراء فيما يختص بالكون . قصص التكوين ، والخير والشر ، والخلق كله ، والآوارم والنوامى ، واحدة فى كل من الدينين ، فليس بين الدينين من خلاف إلا فى فكرة الوجدانية فى الإسلام وموقفه من فكرة التثليث ، وفى بعض الوقائع التاريخية التى تتعلق بآباء النبيين . غير أن هذه الخلافات — التى لا تمس الجوهر — ليس من شأنها أن تعدم التفاهم . أو تقيم خلافاً كالذى دفع إلى الحروب الصليبية قديماً ، والذى ما يزال حياً الآن بين أوروبا والمسلمين .

ومن ناحية أخرى فإن أوروبا تدعى أنها تطورت وأنها خرجت من الدائرة اللاهوتية ودائرة ما وراء المادة إلى الحالة الوضعية . وهذه الحالة التى تدعى أوروبا اصطلاحاً لا تساعد على جعل الدين

أساساً لصلات الاجتماع ، في حين أن المصالح الاقتصادية استطاعت أن تشمل نيران أكبر حرب عرقها الإنسانية حتى اليوم .

ومعنى هذا أن تلك الحالة الوضعية لا تبيح أن يكون الدين — وفقاً لمنطقها ذاته — سبباً في استبعاد التفاهم بين شعبيين ، بله بين أوربا والمسلمين .

وقد يقول أحد الأوربيين : حقاً إن الدين ليس في ذاته سبباً في عدم التفاهم هذا ، ولكن هذا لا يمنع أن يكون تعصب المسلمين هو السبب في تلك الحالة التي يتبادل فيها الأوربيون والمسلمون العداء . وهذا كلام ليس أكثر ابتعاداً عن الصواب مما قدمنا ، فلست أتردد في أن أقول إنه إذا كان هناك تعصب فعلاً فإن هذا التعصب ليس من بضاعة المسلمين ، ولست ألقى هذا القول جزافاً فإن الحقائق كلها تؤيد ما أذهب إليه . فلما جاء بونابرت إلى مصر في سنة ١٧٩٨ ، لجأ إلى العلماء لكي يمدوه بالمساعدة في إدارة البلاد . وإذا كانت غزوة بونابرت لم تنجح في مصر بعد رحيله عنها ، فذلك لأن القائمين عليها إذ ذاك أغفلوا الشعور الوطني متأثرين بالتعصب الديني . ولو قد كان التعصب لدى المصريين على هذه الصورة التي يتخيلها الأوربيون لكانت تكفي تصريحات نابليون وكليبر ومينو ، وقد كان العلماء الدينيون في مصر معهم ، كانت تكفي هذه التصريحات لكسب شعور البلد ، ولكنهم فشلوا لأن النزعة الوطنية كانت أقوى من التعصب الديني عند الأهليين ولذلك لم يستطع لا نابليون ولا من خلفه

على الحملة الفرنسية أن يكسبوا المصريين في صفهم .

وحقيقة أخرى ثبت بوضوح أن التعصب الديني منعهم تماماً عنده المسلمين . تلك أن أغلبية البلاد الإسلامية — إبان الحرب الكبرى — انضمت إلى صف الحلفاء مع أن تركيا وحدها هي التي انضمت إلى ألمانيا ، ولقد فشلت الدعاية القوية التي بذلتها تركيا لإنعاش هذا التعصب الديني المزعوم لكي تضم البلاد الإسلامية إلى جانبها ، والسبب في هذا أن البلاد الإسلامية كانت إذ ذاك لا يدفعها إلا الشعور الوطني ومصلحتها المستقبلية . وحقيقة ثالثة ثبت أن هذا التعصب لا وجود له — هي تركيا الحالية . فقد اتجهت بكل جهودها إلى أوربة لكي تقتبس منها ما يعيد إليها شبابها . ولست في مقام الحكم على مدى نجاحها في هذا السبيل ، ولكن كونها وبقاؤها إلى الآن بلاداً إسلامياً ، قد أظهرت بمسلكها هذا أنه لا الدين ولا التعصب يمكن أن يكون سبباً لعدم التفاهم بين أوربا والمسلمين .

ولكي نتعرف هذه الأسباب يجدر بنا أن نستعيد جانباً من التاريخ ، فبعد وفاة النبي العربي صلى الله عليه وسلم بثلاثين سنة ، أنشأ المسلمون امبراطورية إسلامية واسعة النطاق . ولم تكن فكرة الاستعمار هي التي تدفع المسلمين للغزو ولكنه كان إيمانهم وتعصبهم لفكرة الوحدةانية هو الذي يبعث فيهم روح الغزو أينشروا ما آمنوا به في كل الأنحاء ولجئوا آثار الوثنية . وبعد ذلك بمائة عام قام المسلمون بغزوات أخرى . وكان نفس هذا الباعث هو الذي يدفع

المسلمين ، ولكن بجرارة أقل ، وحاس ديني أقل . فقد كانت
غكرة الغزو للغزو في هذه الآونة ، وفكرة الاستعمار حياً في الاستعمار ،
تساوى تماماً فكرة نشر الدين الجديد .

وبعد ذلك بخمسين سنة قام المسلمون بغزوات أخرى . ولكن
في هذه المرة لم يكن الباعث الديني هو الذي يحمل المسلمين على الغزو ،
بل كانت فكرة الغزو للغزو ، والسبب في هذا واضح ، فقد كان
الإسلام منتصراً كل الانتصار فلم يعد في حاجة إلى زيادة التوسع
بقدر ما كان المسلمون أنفسهم في حاجة إلى غزو بلاد جديدة تدفعهم
فكرة الاستعمار . وهذا التطور من فكرة نشر الدين إيماناً بوجود
نشره ، إلى فكرة الاستعمار للاستعمار يعتبره الكثيرون السبب في قيام
الحروب الصليبية ، ومع ذلك فإن بعض المؤرخين يذهبون إلى القول
بأن الحروب الصليبية هي حروب سياسية بقدر ما هي حروب دينية ، وأن
الملوك الذين اشتركوا فيها لم يلجأوا إلى الشعور الديني عند رعاياهم
إلا لاستئثارهم وزيادة حماسهم وزيادة القوة المعنوية بين صفوفهم .

ومرت بعد ذلك قرون حتى انتهى الأمر باستيلاء الأتراك على
استانبول في القرن الخامس عشر . وكان أثر هذه الحملة الآسيوية
التي قام بها الأتراك في البلاد الإسلامية عكس أثرها في أوروبا ، فقد
شعرت شعوب أوروبا بهزة أيقظتها من سبات القرون الوسطى .
وأما في البلاد الإسلامية فإن الأمر يختلف عن ذلك . فلم يكن بين
الشعب الغازي والمسلمين أية علاقة تجمعهم جميعاً إلا علاقة الدين ،

لا علاقة الجنس ، ولا علاقة اللغة ، ولا علاقة التفكير . وأما الدين فلم يكن في نظر الأتراك إلا راية للحرب تتخذ وسيلة لعقاب كل بلد إسلامي لا يخضع للأتراك . وقد ترتب على هذا أن العالم الإسلامي راح في سبات عميق عند غزو استانبول في حين أن أوروبا بدأت تستيقظ وتنتج إلى حياطين ذهنية وروحية جديدين على دوى هذا الغزو .

يبد أن هذه النهضة الأوروبية لا تشابه تلك النهضة الروحية التي كانت شبه جزيرة العرب مسرحاً لها قبل ثمانية قرون تحت تأثير ما بعث به محمد من الحق .

وليدست النهضة الدينية التي أظهرت لوثر إذذاك إلا خلافاً على تفاصيل الدين لا على جوهره ، ولذلك فإنه ليس يمكن أن توازن هذه النهضة بما كان من نهضة الإسلام الأولى ، ولذلك كانت ثورة لوثر أقل من أن تؤثر في أوروبا كلها ، وإن تكن قد عبثت الطريق لمذعب ديكارت والفلسفة الوضعية بعد ذلك . وبينما كان هذا التطور العقلي يهز أوروبا ، كان مبدأ الجنسيات يتأكد في الأذهان تمهيداً لأن يكون قاعدة للحياة السياسية المستقبلية . ومن الحق أن نقول إن هذا المبدأ كان دائماً موجوداً في أوروبا ، ولكنه لم يكن يمثل القوة التي ظهر بها بعد عصر النهضة وإحياء العلوم ، وقد اقتضى هذا المبدأ الدول الأوروبية أن توسع من نفوذها خارج أوروبا تفادياً لقيام حرب بينها في داخلها . وهكذا بدأت السياسة الإستعمارية أشق طريقها في أوروبا ، تلك السياسة

التي تكون السبب الحقيقي لعدم التفاهم القائم بين أوروبا والإسلام .

ولنشرح هذا قليلا ؛ ففي غضون القرن السابع عشر نصح الفيلسوف الكبير ، ليننتز ، لويس السادس عشر أن يحفر قناة تصل ما بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر ، ولم يكن غرض ليننتز بالطبيعة من هذه النصيحة نشر فلسفته ، بل كان الغرض الذي يرمى إليه هو فتح الطريق أمام التوسع الأوربي في أفريقيا وآسيا . فقد كان لإسبانيا مستعمراتها في أمريكا وكانت تدر عليها الذهب ، فكان من الضروري أن يكون لغيرها من الدول مستعمرات كذلك . وفي نفس هذا الوقت انتهت المفاوضات التي كانت جارية مع تركيا إذ ذاك بمنح المسيحيين الذي يقيمون في البلاد الإسلامية امتيازات من شأنها أن تسهل لهم الإقامة والاتجار . ولم يكن أحد يفكر عندئذ في إدخال المدنية إلى الشرق ، ذلك الادعاء العبقري الجليل الذي لجأت إليه الدول الأوروبية لتبرير الاستعمار بعد ذلك بقرنين . هذا وقد منح الباب العالي امتيازات للدول المختلفة للوصول في النهاية في شرط أولى الدول بالمراعاة . وهكذا رسمت التجارة الأوروبية في الشرق توطئة للحضارة الاستعمارية .

وقع بعد ذلك حدث — لست أدري أكان وقوعه لحسن الحظ أم لسوئه — ساعد على رسوخ هذه الحضارة الاستعمارية ، ذلك هو الصناعة الكبرى . فلنكي تجد الدول الأوروبية الأسواق اللازمة لاستهلاك ما تخرجه صناعاتها الكبيرة من منتجات . أخذت هذه

البلاد تتنافس في غزو المستعمرات . وكانت الفسكرة في هذا إيجاد أسواق جديدة للنتجات الصناعية والبحث عن حقول جديدة كذلك لإنتاج المواد الخام .

وكانت هذه الروح الإستعمارية في إبان سطوتها عندما انفجرت الثورة الفرنسية فهزت أوروبا من أدناها إلى أقصاها بما أشاعت من فكر عن الحرية والإغاء والمساواة . وبما جاهدت في سبيله من توطيد لحق الشعب في حكم نفسه ، ومن وضع لقواعد الديمقراطية الحالية .

ولكن كيف يمكن أن نوفق بين هاتين الفكرتين المتناقضتين : الحرية والاستعمار ؟ من العسير حقاً أن نفهم هاتين الفكرتين معاً ، ولكن أصحاب الثورة الفرنسية لم يترددوا لحظة أمام هذه الصعوبة في التوفيق بين الفكرتين ، فلقد قالوا إن المبادئ الجديدة التي جاءت بها الثورة الفرنسية يجب أن تظل محصورة ضمن أوروبا فلا تتعداها . وعندما جاء نابليون إلى مصر ، لم يكن مدفوعاً إلى اجتياز البحر الأبيض بدافع الحرية . ولكنه كان مدفوعاً بمقاومة وضع اليد الإنجليزية على مصر توطئة لمرقعة النفوذ البريطاني في الهند . ولأن قد كانت فكرة الاستعمار ، والاستعمار فقط ، هي التي تحكم نشاط كل من إنجلترا وفرنسا في مصر . ولذلك فإن هذه المبادئ التي نادى بها الثورة الفرنسية ، مبادئ الحرية والمساواة والإغاء لم تقف قط عقبة في سبيل تقدم أوروبا في الشرق وفي البلاد الإسلامية .

يبد أنه من الواجب — إلى جانب هذا الدافع الحقيقي — أن

تبحث أوروبا عن تعلقة أخرى تبرر بها الغزو الأوربي للبلاد الشرقية . ولم يكن البحث عن هذه التعلقة بالشئ العسير . فإن هذه الشعوب المستعمرة شعوب أولية ومن الحق على أوروبا أن تعلم هذ الشعوب ، وأن ترفعها إلى مستوى الحضارة الجديدة ، وأن تكونها وتدرجها بحيث تستطيع أن تحكم نفسها بنفسها وفقاً للأراء الديمقراطية . كانت تلك هى التعلقة التى استترت أوروبا وراءها ، وإنها لتعلقة عبقرية حقاً . فلو قد كانت هذه العواطف صادقة ، ولو قد كانت أوروبا مخلصه فيما تريد أن توطد قدمها من أجله فى الشرق ، لكان واجباً على هذه الشعوب الشرقية أن تتبادل التهئة على روح العطف على الآخرين التى تبدو من أوروبا إذ ذاك .

ولقد آمنت هذه الشعوب الشرقية بسداجة تامة بهذا الإخلاص الذى أبدته أوروبا ورغبت بكل قواها أن تقتبس الحضارة والثقافة الأوربية . ولكنها سرعان ما تبينت أن لا مؤامنة هناك بين هذه الجهود التى تبذلها وبين الأغراض الحقيقية لهؤلاء الأسياد الذى كانوا يحكون أقدار هذه الشعوب عندئذ . فالحضارة الأوربية إنما تقوم فى الواقع على العلم وعلى رأس المال الصناعى وأرادت الشعوب الشرقية أن تستعيد القرون الثلاثة التى سبقتها أوروبا غسبت أن مبادئ الإغناء والمساواة من شأنها أن تملى على أوروبا واجب الأخذ بيد هذه الشعوب لى تحصل على نصيبها من العلوم ومن رأس المال المستغل فى الصناعة . كما كان الحال مع المسيحيين الأول الذين حاولوا بكل ما يملكون من جهد أن

ينشروا ما جاءت به المسيحية والإسلام . ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . ومنذ أوائل القرن التاسع عشر رغب المصريون في اصطناع العلوم والصناعات في بلادهم ، وساعدتهم الظروف على مواتاة أملهم هذا ، ثم نما هذا الأمل بعد الاحتلال البريطاني ، فقد كان من حق المصريين أن يعتقدوا أن إنجلترا سوف تصدر لمصر — فيما تصدر من مصنوعات متبجائنا القطنية — حضارتها الجديدة كذلك . فانتظر المصريون أن يروا إنشاء الجامعات ، ونشر التعليم العام ، وإنهاض الصناعات الكبيرة . ولكن هذا الأمل ما لبث أن خيب ، فقد اتهمت البلد المغزو بأنه بلد بعيد عن الحضارة ، وأن هذا ناشئ عن الدين الإسلامي .

ولقد جاهر اللورد كرومر ممثل بريطانيا العظمى في مصر — في تقاريره الرسمية — أن الغرض من التعليم يجب ألا يتعدى إخراج موظفين مطيعين يعملون في الإدارة . ولم يكن يهم إنجلترا أن تقدم مصر في ناحية من النواحي إلا في إنتاج القطن والمواد الأخرى الخام التي يحتاج إليها الاستهلاك وتحتاج إليها الصناعة البريطانية ، ويجب أن نعتز أن إنجلترا بذلت مجهودات هائلة لتحسين إنتاج القطن وغيره من المواد الخام . غير أن أى طلب ينصب على إنشاء صناعة كسيفها كانت يوظف فيها رأس المال المصرى ، كل طلب من هذا الطراز كان يقابل بالرفض البات ، أو بوضع عقبات — لا يمكن التغلب عليها — في طريقه . وما حدث في مصر حدث

في غيرها من البلاد المستعمرة . ولم يكن التنافس الاستعماري المسرف غير الدافع لتقليوم الثاني على أن يقول إن مستقبل ألمانيا ليس إلا في البحر ، ولم يكن إلا الدافع إلى إعلان السلام المسلح ، الذي أمل على أوروبا أن تنفق مئات الملايين في التسليح ، ولم يكن إلا الباعث على نشوب الحرب العظمى في سنة ١٩١٤ . وسياسة كهذه لا يمكن أن تطمئن إلى غدها ، ولا يمكن أن تضع ثقها في شيء ، ولذلك لم يكن لأوروبا بطبيعة الحال ثقة في مستعمراتها ، ولم يكن للبلاد المستعمرة — من باب أولى — ثقة في نوايا أوروبا ، ومن أجل هذا كان عسيراً أن يقوم تقام بين أوروبا والإسلام .

ولم يكن للشعوب المستعمرة ثقة في أوروبا ، ليس فقط لأن أوروبا كانت تعاملها باعتبارها شعوباً غير متحضرة ، ولكن لأنها كانت تطبق في مستعمراتها الآراء التي حكمت عليها — داخل بلادها الأوروبية — بأنها ، ألفة الضرر . فقد قررت فرنسا مثلاً فصل الكنيسة عن الدولة داخل بلادها ، وقررت كذلك تجريد رجال الكنيسة من أموالهم ، وأعلنت بعد ذلك الحالة المدنية . ومع كل هذا فإن الحكومة الفرنسية المدنية تعطي أموالاً طائلة للبعثات الدينية التي تدعى أنها تنشر المسيحية .

ومن الحق علينا أن نعترف بأن هذه البعثات الدينية — سواء منها الفرنسية والأمريكية والإنجليزية وغيرها — قد قامت بأعمال إنسانية في الشرق فقد أسست هذه البعثات معاهد علمية ، ومستشفيات ومؤسسات خيرية . ولكن البعثات المدنية قامت كذلك .

بأعمال كثيرة من هذا الطراز . والواقع أننا لا نستطيع أن نفسر هذا التناقض الظاهر في مسلك الحكومات ؛ الأوربية إذ أن هذه الحكومات تطارد البعثات الدينية من بلادها لكي تحميها في الخارج ، فإن لم يكن الباعث هذه الروح السياسية الاستعمارية لما عاملت البلاد المستعمرة غيرها من البلاد وفق المبادئ التي قامت الثورات حندها عند الأمم الأوربية .

ومن العوامل التي ساعدت على عدم قيام تفاهم بين أوروبا والإسلام هجرة العناصر غير المرغوب فيها في البلاد الأوربية إلى البلاد المستعمرة بحثاً عن الثروة دون إقامة أدنى وزن للوسائل والأساليب التي يستخدمونها فيها بمسيلة من غرض . ويمكن أن يقرأ الإنسان كتاب « لدمون أبو » ، القديم المسمى « الفلاح » ، لكي يدرك الإنسان إلى أى ددرك تحط هذه الوسائل والأساليب في أغلب الأحيان ، ولكي يعرف أن الربا قد يكون أقرب هذه الوسائل إلى الخير والفضيلة .

وعند ما غاب أمل الشعوب الإسلامية — كما وضعنا ذلك — في نيات أوروبا ، أحست هذه الشعوب ، قبل الحرب الكبرى بمدة سنين ، أن من واجبه ألا تعتمد إلا على مجهودها الخاص . ولم يكن أمل هذه الشعوب الإسلامية كبيراً في النجاح ؛ ولكن يجب أن نعترف إلى جانب هذه الحقيقة التي قرناها ، أن ضعف الأمل في النجاح لم يقف عائقاً دون هذه الشعوب وما تبنت من الأغراض ؛ بل لم

يمنعها هذا من الإستزادة من النشاط مع الإيمان دائماً بالعدالة الإلهية العالية .

واشد ما كان دهش هذه الشعوب عندما اندلعت أول شرارة للحرب المظلمى فى الثانى من أغسطس سنة ١٩١٤ : فى غضون المدة الطويلة التى استمرت فيها الحرب كانت دعاية الحلفاء التى تنادى بأنها تحارب الروح العسكرية الألمانية لى تنصر الحرية ، والوعود التى كان يبتدئها هؤلاء للشعوب المستعمرة ، والمبادئ التى جاءت بها الهدنة ، وخاصة الاعتراف بحق الشعوب فى تقرير مصيرها — كل هذه أمور كان من شأنها أن تفتح أمام الشعوب المسئلة آفاقاً جديدة وبالأخص أمام الشعوب التى انتصرت لقضية الحلفاء .

وإذ انتهت الحرب ، ووقعت المعاهدات ، أخذت آمال هذه الشعوب تذوب !! أكانت إذن خدعة من أوروبا عندما قام من ينادون بحق تقرير المصير ؟ أكان إذن خدعة ذلك النضال ضد الروح العسكرية الألمانية ؟ وهل بقيت أوروبا ما بعد الحرب إزاء الشعوب الإسلامية هى أوروبا ما قبل الحرب ؟ لقد كانت خيبة الأمل فى ذلك كله أكبر من الآمال التى عقدتها هذه الشعوب على أوروبا .

يبد أن شيئاً لا يمنع من قيام تفاهم متبادل بين أوروبا والإسلام إذا وجد الرجال ذوو المزايا من الناحيتين ، الذين يأخذون على عاتقهم القيام بهذا العبء الضخم .

ولكن أين يوجد هؤلاء الرجال ؟ أين الكتاب والفلاسفة

ورجال العلوم ؟ أعتقد أن من الواجب على أن أقول — دون أن
أخذش جميع من ذكرت — إن هؤلاء كلهم يتحملون نصيباً كبيراً
من المسؤولية عن قيام عدم التفاهم الحالى بين أوروبا والإسلام ، إذ
أن الأغلبية منهم تنسى أن لهم رسالة إنسانية ، رسالة لا تعرف حدود
الدول السياسية ، فهؤلاء الكتاب والفلاسفة وأصحاب العلوم يضعون
نبوغهم وعبقريتهم في خدمة سياسة بلادهم القومية ؛ وليس من ينكر
أن هذا واجب عليهم إذا تعرضت أوطانهم . للأخطار ولكن هذه
الأخطار قليلة الحدوث في الغالب ، ومن واجب رجال السياسة
أن يسيروا أمور الوطن وقت السلم تسييراً يكون من نتائجها الابتعاد
عما يوقد نيران الحرب ، ففي هذه الأوقات ، من الحق على أصحاب
الإنسانية من الكتاب وغيرهم من رجال الفكر ، أن يسخروا
جهودهم لخدمة قضية الحرية والتعاون بين الشعوب .

وحرية الشعوب التي نعنيها شبيهة بحرية الأفراد . يحترمها الجميع
ويعترف بها الجميع ، دون نظر لثرواتهم أو لقواهم المادية ، وتعاون
الشعوب الذي نعنيه تعاون قائم على القاعدة السابقة بين الأمم .
وحسبنا بهذه وسيلة للتفاهم المرموق .

ولكن هل يمكن أن ينجح الإنسان في دفع رجال الفكر
في العالم إلى طريق كهذا الطريق ؟ تلك هي المشكلة ، وذلك أن المصالح
المادية — لسوء الحظ — من القوة بحيث لا تجعل محلالاً مل العريض .
فهذه المصالح حتى الآن هي التي تدير النشاط في العالم ، بل إنها تدير

حياته الروحية والخلقية . غير أننا لا يجوز أن نياس مع ذلك . فإن كثيرين يعتقدون أننا الآن في سبيل بعث أكبر من البعث الذي رآته أوروبا في القرن السادس عشر في عصر النهضة وإحياء العلوم ، وأن هذا البعث لن يقتصر على أوروبا ، بل إنه سوف يشمل دول العالم جميعاً . وسيكون هذا البعث نتيجة طبيعية لهذه الحرب الاقتصادية المستمرة بين الشعوب ليس في أوروبا فحسب ، ولكن في آسيا وأمريكا كذلك . فلنؤمل إذن أن يقترب موعد حرية الشعوب والتعاون بينها لسعادة الجميع ورفاهة الجميع .

ويومئذ ، لن يوجد عدم التفاهم بين أوروبا والإسلام ، بل سيوجد تفاهم عالمي للوصول إلى الحقائق الخلقية العالية ولتوطيد السلام بإقامة الحياة الخلقية على البصيرة الروحية والحياة الاقتصادية على الحياة الخلقية .

(٢)

وجهة الإسلام

و يجب علينا في الحتام أن نقسّم عما يمكن في مستقبل نظام العالم أن يكون وضع الجماعة الإسلامية بصفة عامة ؛ وأن تكون صلاتها بالجماعات الإنسانية الأخرى بصفة خاصة . لقد أوضح الأستاذ برج بحق أن لقاء الشعوب الإسلامية بوزنها في كفة الغرب أو في كفة الشرق يتعلق تمام التعلق بموقف أوروبا من العالم الإسلامي ومن الشرق بوجه عام . والإسلام لا يمكن في نفس الوقت أن ينكر أسسه الذاتية وأن يعيش . وقد رأينا أن الإسلام في أسسه يتصل بالجماعة الغربية بمعناها الواسع ، بل هو جزء منها ، فهو مكمل الحضارة الأوروبية ومعدّها ، استقى من الإنياييع التي استقت منها هذه الحضارة وتنفس الهواء الذي تنفست . وما هو حادث اليوم بين أوروبا والإسلام إنما هو في أوسع صور التاريخ مدى استعادة حضارة الغرب كالمها الذي تصدع تصدعاً مصطنعاً بالهضة (الرينسانس) ، والذي يستعيد الآن وحدته بقوة ساحقه .

والمشتغل بدراسة التاريخ ؛ وإن كان يدرك مزالي الأقيسة لا يسعه إلا أن يذكر لحظتين قديمتين (وإن لم تكونا أقدم مثيلتهما) من لحظات التفاعل الإنساني بين نصفي العالم الغربي ؛ فقد كان جلال

الأمبراطورية الرومانية وعظمتها أنها وجدت بين القسمين تحت سلطانها ، وحدة نشأت منها القوى الروحية التي سيطرت على مجرى التاريخ الغربى . وفى منتصف الطريق بين ذلك العصر وعصر النهضة الأوربية وثب الإسلام وثبته الفكرية الأولى عندما تشرب تراث الإغريق وأخرج منها زهوراً جديدة أمدت النهضة الأوربية ببذورها . ولا يمكن أن تقف الحركة عند هذا الحد ، بل هى ستتر تحت أعيننا وفى ميدان أوسع وأرحب ، وإن كان التباين بين العالم الإسلامى باعتباره كلا وبين التقدم الصناعى المدهش الذى بلغته أوروبا الغربية قد يحول أحيانا بيننا وبين مشاهدة هذا الاستمرار . ولو أن الأمر كان بالعكس لما تغيرت النتيجة ولكان لزاماً علينا أن نلجأ للمجتمع الإسلامى ليعيد إلى المدنية الغربية توازنها الذى أفقدها إياه تقدم الغرب دون الشرق . وربما يتضح على مرور الزمن أن معقل الأمبراطورية العثمانية كان فى دفاعها عن الإسلام ، وأنها بجعله فى معزل منته من الاشتراك فى تقدم الوطنية الأوربية المبالغ فيه وجعلته يأخذ الصبغة البلقانية — وهذا هو المصير الذى وقعت فيه تركيا نفسها والذى ورثته عن ماضيها السياسى البيزنطى لا عن ماضيها الإسلامى . ومهما تكن الظروف فإن الإسلام ليقف جنباً إلى جنب مع أوروبا على خلاف المجتمعات الشرقية الأخرى فى الهند والشرق الأقصى . وفكرة إنشاء عصبة أمم شرقية تشمل البلاد الإسلامية والهند والصين واليابان فكرة خيالية أنتجها استياء الشرق من سيطرة أوروبا الإقتصادية المؤقتة . وإن استطاع المجتمع الإسلامى

أن يستغنى عن التعاون الأوروبى لبلوغه الغاية التى يصبو إليها من التقدم لثقافته وحياته الاقتصادية ، كما أن المجتمع الأوروبى ليس يستطيع الوصول إلى الغاية القصوى من التقدم فى ثقافته وحياته الروحية بدون الاستعانة بالقوى الكامنة فى المجتمع الإسلامى . ثم إن المجتمعين لن يتمكنوا من استعادة كامل القوات الكامنة فيهما واستغلالها قبل أن يستعيدا ذلك التفاعل الذى كان قائماً بينهما فى ظل الامبراطورية الرومانية .

« ولا يزال الإسلام عامل التوازن بين النقيضين فى العالم الغربى . فهو يقف فى وجه فوضى الوطنية الأوروبية كما يقف حائلاً دون زحف الشيوعية الروسية . ذلك بأنه لم يخضع بعد لضغط الجانب الإقتصادى الذى يعمد من خصائص الحياة فى أوروبا وفى روسيا على السواء فى حركتنا الحاضرة . وقد لخص الأستاذ مسينيون أدب الإسلام الاجتماعى تلخيصاً يثير الإعجاب فى قوله : « يمتاز الإسلام بأنه يمثل فكرة مساواة صحيحة بمساهمة كل فرد من أفراد الشعب بالعيش فى موارد الجماعة . ومبادئ الإسلام تنبذ التبادل غير المقيد كما تناهى بالعداء الأموال المصرفية (الربا) والقروض الحكومية والضرائب غير المباشرة على ضروريات الحياة ، فى حين أنه شديد التسك بحقوق الوالد والزوج والملكية ورؤوس الأموال التجارية ، فهو بذلك يقف موقفاً وسطاً بين الجورجوازية الرأسمالية والشيوعية البلشفية . »

« والإسلام مطالب كذلك بخدمة أخرى يسديها للإنسانية . فهو

إلى الشرق الحقيقي أقرب من أوروبا إليه . وله ماضٍ بديع من تعاون الشعوب وتقاهما . وليس من مجتمع آخر إله مثل ما للإسلام من ماضٍ كله النجاح في جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة في الحقوق والواجبات . ولقد برهنت الطوائف الإسلامية الكبرى في إفريقيا والهند والهند الشرقية ، والجماعات الصغيرة منهم في الصين واليابان ، على أن الإسلام يستطيع أن يوفق بين العناصر التي لا سبيل إلى التوفيق بينها . وإذا ما أريد لإحلال التعاون محل الخلاف بين المجتمعات في الشرق والغرب فإن وساطة الإسلام ضرورية لا غنى عنها . فهو وحده الكفيل بحل المشكلة التي تواجه أوروبا في علاقاتها مع الشرق . فإذا اتحدنا عظم الأمل في أن تكون النتيجة سلاماً . أما إن رفضت أوروبا معاونة الإسلام وألقت بنفسها في أحضان خصومه فإن العاقبة لا يمكن أن تكون إلا نكبة لها معاً .

* * *

ما أتم القارئ الآن تلاوته هو ختام كتاب «وجهة الإسلام» ، الذي تعاون في وضعه الأساتذة جيب بجامعة لندن . وماسنيون بجامعة باريس ، وكامبفهاير بجامعة برلين ، وبرج بجامعة ليندن واللفنتانت كولونل فرار . وهؤلاء جميعاً هم كبار المستشرقين في ممالك أوروبا المختلفة . وقد تولى الأستاذ جيب نشر هذا الكتاب ووضع مقدمته وخاتمته التي حاول فيها أن يصور اتجاه الشعوب الإسلامية في هذا العصر الحاضر . أما الأستاذ ماسنيون فقد

كتب عن شعوب إفريقيا الشمالية فيما عدا مصر والشرق العربي وتركيا وفارس وأفغانستان ، وكانت الهند الإسلامية موضع دراسة اللفتنان كولو نيل فرار ، كما كانت أندونيسيا موضع بحث الأستاذ بروج . وقد تعاون هؤلاء الأساتذة جميعاً في دراسة العوامل والاتجاهات التي تبدو وتعمل في الممالك الإسلامية وأرادوا على ضوء دراستهم ومباحثهم أن يصوروا موقف الإسلام من أوروبا وموقف أوروبا من الإسلام وما يجب أن تكون صلات القرّيين في المستقبل بعد أن وصفوا ما كانت عليه في الماضي .

ولعلك شعرت من قراءة خاتمة الكتاب ومن هذا العرض السريع لمشتملاته أنه كتاب سياسي يقوم على أسس من البحث العلمي ، وأنت لذلك يجب إذا قرأته أن تقرأه بما يجب من حذر السائر في مسالك السياسة ، ومن سكينه المظلمة انزاهة مباحث العلم ؛ ويجب عليك كذلك أن تعمل للاستفادة منه كسلم وكشرقي في مثل الغاية التي وضع لها .

(١)

يبلغ عدد المسلمين على حساب إحصاءات الأخيرة من مائتين وأربعين إلى مائتين وخمسين مليوناً ، منهم مائة وثمانون مليوناً في آسيا ، وخمسون مليوناً في إفريقيا ، والباقي موزعون بين أوروبا وأمريكا . وهؤلاء المائتان والخمسون مليوناً موزعون توزيعاً جغرافياً عجيباً يجعلهم جميعاً متصلين أرقى حكم المتصلين بعضهم ببعض . فهم يتنابعون

في سلسلة متصلة من غرب إفريقيا حيث يتاخون الأطلانطي إلى السودان ومصر ويمتدون بحاذين البحر الأبيض المتوسط إلى غرب آسيا وجنوب أوروبا عما حول البحر الأسود ثم تستمر سلسلتهم مطردة الاتصال شمالاً في قلب سيبيريا وشرقاً في منغوليا ، كما أنها تنحطى الدجلة والفرات في العراق إلى العجم وإلى أفغانستان وإلى الهند حيث تنقطع السلسلة هروناً ما لتتصل بعد ذلك في جزر الملايا وأرخبيل الهند الشرقية حتى تنتهي إلى الفلبين وهي تنزل جنوباً من السودان إلى شاطئ أفريقيا الشرقي حتى مدغشقر . يضاف إلى هذه السلسلة المتصلة بعض شعوب إسلامية منعزلة خلال الصين أو على حدودها وفي جنوب أفريقيا وفي بولونيا وفي أنحاء مختلفة من أوروبا وأمريكا . يقول جب : « إذا أنت نظرت إلى العالم الإسلامي على الخريطة رأيت أشبه شيء بهلالين عظيمين تنبعث قرونها من مركز مشترك في آسيا الغربية . فالهلال الشمالي يتكون من شريط يزيد عرضه على ألف ميل ويكاد يحيط بأوروبا من أقصاها إلى أقصاها ويعزلها جغرافياً عن بلاد آسيا الجنوبية والشرقية الكثيرة السكان . أما ذراع الهلال الشمالي الرفيعة فتضم أثنائها المحيط الهندي » .

هذا العالم الإسلامي الفسيح في ترائي أطرافه ، الجامع لذلك بين شعوب وأجناس وبيئات مختلفة التاريخ كاختلافها في ظروف العيش ، له مع ذلك وحدة في الحضارة ووحدة في الثقافة . ومرجع ذلك إلى أسباب عدة : منها أن هذا العالم الإسلامي لم يتكون تدريجياً على الزمن ،

ولكنه وجد وامتد في فترات قصيرة متقاربة هيأت لهذه الوحدة النفسية والعقلية ، فقيما بين بعث النبي عليه السلام في سنة ٦٣٢ ميلادية وسنة ٧٥٠ — أى في فترة لا تزيد على مائة وعشرين سنة — امتد سلطان الإسلام من أسبانيا ومراكش إلى أواسط آسيا وظل مستقراً هناك قرنين ونصف قرن من الزمان أمكن فيهما تركيز حضارة وثقافة مستمدتين من أصل الإسلام والبيئة التي نشأ منذ أول أمره فيها . وفي المائة السنة الواقعة ما بين سنة ألف وسنة ألف ومائة امتد سلطان الإسلام في ميادين أربعة : في غرب أفريقيا ، وفي آسيا الصغرى ، وفي آسيا الوسطى ، وفي شمال الهند . وبعد قرنين آخرين — بين سنة ١٣٠٠ وسنة ١٤٠٠ نفذ سلطانه إلى البلقان وإلى روسيا وسيريا وإلى بقية الهند وإلى أندونيسيا . ومن يومئذ وقف سلطان الإسلام عن الامتداد إلا في حدود ضيقة أكثرها في أفريقيا . وفي كل واحدة من هذه القفرات التي قفزها نفوذ الإسلام وسلطانه كانت الحضارة الإسلامية التي نمت وترعرعت منذ القرنين الأولين من عصوره الزاهية تزداد نماء وقوة بما تتصل به من حضارات جديدة تؤثر الحضارة الإسلامية فيها وتخضعها لسلطانها وتتأثر في نفس الوقت وتتغذى بما قد يكون من صالح فيها . وذلك بأن الإسلام لم يكن منذ اللحظة الأولى ديناً وعبادة وكفى ، ولكنه سرعان ما كان ثقافة وحضارة تكونت على أسسه وأصوله التي توطدت في حياة محمد بخير ما توطدت الحضارة والثقافة أسسها وأصولها الأولى . لذلك كان طبيعياً أن تتغذى الحضارة الإسلامية وأن تتغذى الثقافة الإسلامية

من كل ما غزوا من ميادين العلم والبحث ، على أنه كان كسكل قوى الحياة السليمة دائم النمو دائم النشاط لا يستقر ولا يهدأ بل يريد دائماً جديداً يهضمه ويتمثله ليلفظ قديماً لم يبق صالحاً لدرك الغاية التي ترمى الأصول والأسس الأولى لإدراكها ، وفي مقدمة ما ترمى هذه الأصول والأسس له تحرير الفكر من قيود المادة وتصوير العالم فكرة لا آلة والعمل للاستزادة من معرفة العالم لزيادة الاتصال به وحسن تمثيل فكرته . والغاية التي يرى الإسلام لها درك كمال النفس في حسن اتصالها بالله ، وإسلامها له إسلاماً صحيحاً . وهذا وذلك لا يتحققان إلا بتحقيق المعرفة في أسسها ما تستطيع عقولنا وعواطفنا وأفئدتنا وقلوبنا أن تصل إليه . في هذه الحدود المترامية الأطراف كانت الحضارة وكانت الثقافة الإسلامية تعملان . وبروح من الإخاء الصحيح الذي يقرر أن إيمان المرء لا يكمل حتى يجب لأخيه ما يجب لنفسه كانت الجهود تتضافر لإقامة الحضارة والثقافة . وبحكم اجتماع المسلمين في مكة أيام الحج كانت نتائج هذه الجهود تنتشر وتقرى وتنقل إلى المسلمين جميعاً في مختلف أقطار الأرض . أضف إلى هذا أن الإسلام سكت حدة الفوارق الجنسية حتى لقد كاد يهدم الحدود فيما بين الدول المنتسبة له ، كما أن أخوة المسلمين يسرت الهجرة لهم جميعاً . فلم يكن عجيباً أن نرى المعري ينتقل من الشام إلى بغداد ويتمخذاً زمنياً ما سكناً ، ولا كان عجيباً أن يقيم من أهل الحجاز بمصر ومن أهل اليمن بالقام ومن أهل مصر بالمغرب ، وأن تنتقل ثمرات الفكر والبحث العلمي في أنحاء العالم الإسلامي على أيدي هؤلاء المهاجرين .

ولهذه الظروف ازدهرت الحضارة وتأصلت جذور الثقافة من
عصور الإسلام الأولى . على أن نظام الحكم والأصل الذي يقوم
في الإسلام عليه مالم يك أن تغير وإن اندست إليه فكرة تخالف
الفكرة التي عرفت منذ صدر الإسلام ، فكرة كانت شائعة إلى يومئذ
في فارس وفي بيزنطة وفي البلاد التي تغلب المسلمون عليها ، فكرة
سرعان ما طورت كيانه النظام الاجتماعي من الحياة الحرة إلى حياة
مقيدة وما مهدت لدخول دول الإسلام في تيار تفكير العصور
الوسطى وما يسرت للحاكم أن يزوج في نطاق الدين بكل شيء ،
وبكل ما ليس من الدين في شيء ، وأن يقيد بقيود الدين حركات
الناس وسكناتهم وما كلمهم ومشربهم وطريقة مشيتهم وسلامتهم
وبصور حديثهم وسكونهم . يقول جب : « وبالرغم من أن الدعوة
الإسلامية نفسها لم تنتشر بالسيف فقد كان تحت جناح الحكم
الإسلامي أن وجد المبشرون بها خير الظروف في نشاطهم للدعوة » ،
ولئن كان هذا النشاط قد وجد في أوروبا المسيحية خصومة للدا
منذ الساعة الأولى ومنذ أيام النبي عليه السلام فإن تسلط المسلمين
وسرعة انتشارهم في أقطار الأرض حكماً قد استهوى النفوس إلى
دعوة الحق التي بعثت إلى أرواحهم بكل هذه القوة . لكن هذا
التطور الذي أشرنا إليه كان مقدمة الضعف والركود الذي استولى
على الإسلام زمنياً ، والذي امتد إلى زمننا هذا فيما خلا فترات يقظة
كانت تعود بالإسلام إلى كل مجده ثم ما تلبث أن تطفئ تحت عيب
هذا التطور والفكرة التي أدت إليه . ولست أجد خيراً في تصوير هذا

التطور والفكرة التي قام على أساسها من أن أقل عبارة الاستاذ عبد الحميد العبادي حين أرخ لهارون الرشيد في أحد ملاحق «السياسة» إذ قال : (ما النظام الذي كانت تخضع له الدولة العباسية ؟ هو نظام الخلافة بالطابع . ولكن الخلافة على عهد العباسيين كانت غيرها على عهد الخلفاء الأوائل . خلافة العباسيين مختلفة عن خلافة أبي بكر وعمر كما يختلف الحكم الاستبدادي عن الديمقراطية الصحيحة . ذلك بأن العباسيين أخذوا عن الفرس نظرية الحق الإلهي في الحكم . ولكي يعطوا هذه النظرية الصبغة الإسلامية زعموا أن الخلافة ميراث عن النبي صلى الله عليه وسلم وأجروا عليها أحكام الميراث ، وبذلك يكونون هم أحق الناس بها ، وفي هذا المعنى يقول شاعرهم :

أننى يكون وليس ذاك بكائن لبنى البنات وراثته الأعمام

« ويقول السفاح في خطبته التي خطبها الناس عند مبايعتهم له بالكوفة : « واعلموا أن هذا الأمر فينا ، ليس بخارج منا حتى نسلبه إلى عيسى بن مريم عليه السلام » . ويقول المنصور من خطبة له : « أيها الناس ! إنما أنا سلطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوقيقه وتأييده ، وحارسه على ماله ؛ أحمل فيه بمشيئته وإرادته وأعطيه بإذنه . فقد جعلني الله عليه قفلا ، إن شاء أن يفتحني فتحنى لإعطائكم وقسم أرزاقكم ؛ وإن شاء أن يغلني عليها أقفلني . . . » . ولكي ندرك مدى التغيير الذي أصاب الخلافة في عهد العباسيين نستقي بأن نورد بعض خطبة أبي بكر التي خطبها على أثر بيعته فقد قال :

أيها الناس ، قد وليت أمركم . ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ؛ وإن أسأت فقوموني . . . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فيكم ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم . . . ، كما نورد الشعر الذي خاطب به الخطيبه عمر بن الخطاب بعد أن بوبع : قال :

أنت الإمام الذي من بعد صاحبه ألقى إليك مقاليد النهى البشر لم يؤثروك بها إذ قدموك لها لكن لأنفسهم كانت بك الأثر

وكما ورث الرشيد الحكم بموجب النظرية المذكورة ، فقد ورث بالإضافة إليها ما يصح أن يعتبر من الوجهة الفعلية جزءاً من النظام السياسي للدولة ؛ ذلك نظام البلاط ، وهو شيء أخذوه عن الفرس كذلك ، فقد كان الأكاسرة يعيشون محتجين عن الرعية في بلاطهم ، تحف بهم خاشيتهم وخجائهم وحراسهم وغلمانهم ، ونفوذ نسائهم وجواريهم - إن صح هذا التعبير - وكثيراً ما كان بلاط فارس يهنا الخليلط مبعث الدسائس والفتن السياسية كما يرى من تاريخ متأخرى الساسانيين ، كذلك كان البلاط على عهد الدولة العباسية . وقد ظهر أثره السيئ في الشؤون العامة لأول ظهوره ؛ فقد ذهب المهدي والمهاضي ضحية مكاييد دبرت لهم في نفس بلاطهم .

« حكومة استبدادية تستند إلى نظرية سياسية جامدة ؛ وبلاط هو بحكم تكوينه ذو جو صالح للفس والمكاييد ، ذلك هو النظام السياسي الذي أصبح الرشيد يحكم بمقتضاه وفي حدوده ، وهو نظام من شأنه أنه إذا كان الذي يحكم في ظله قوياً كان من أقوى أسباب

الاستبداد والطغيان . وإذا كان ضعيفاً كان من أقوى بواعث
الفتنة والاضطراب . .

وهذا بالدقة ما يثبت تاريخ الدولة العباسية . فالمتقدمون من
خلفائها الذين يوصفون بالقوة والكفاية كالنصور والمهدي والرشد
والمتوكل كانوا جبابرة طغاة ، وأما المتأخرون الذين يوسمون بالضعف
فقد كانوا الأعياب في أيدي أهل البلاط ونساء القصر ؛ يصرفونهم
كيف شاءوا وشامت أهواؤهم . .

لكن هذا الذي حدث منذ العباسيين مما صور الأستاذ العبادي
لم يكن جذرياً أن يظهر أثره في سنين قليلة ، ولم يكن من شأنه بطبيعة
ظروف العالم العامة يومئذ أن تضعف الدول الإسلامية إزاء الدول
غير الإسلامية . صحيح أن الإسلام وقف في مركز جغرافي وسط
بين أوروبا المسيحية إلى غربه وبين الأديان الهندية والصينية إلى
شرقه . لكن نظريات الحكم ونظامه لم تكن في أوروبا خيراً مما
كانت في الدول الإسلامية ، ولم تكن كذلك في دول الشرق الأقصى .
على أن ظروف هذا الانحلال الفكري في الدول الإسلامية مهدت
للفوز المغولي والتتري . ولما كان هؤلاء وأولئك قد أسلخوا كان
قيامهم وغزوهم الدول الإسلامية الأخرى من عوامل يقظة الإسلام
وانكماش دول أوروبا الغربية ودول الهند والصين أمامه . ثم إن هذا
التطور الذي أشرنا إليه والذي نقلنا وصفه عن الأستاذ العبادي
كان لابد أن يؤتى من الثمرات ما آتى وأن يعهد للعصر الذي مهد له

بعد يقظة أوروبا وتسلم حضارة الصناعة زمام القيادة العالمية لتزج
بالعالم كله فيما زجت به فيه من مادية توشك اليوم أن تتهار وتنداعى .

ظلت الدول الإسلامية محتفظة بمركز القيادة رغم هذا التطور
السيء لأن أوروبا كانت خاضعة لتفكير مثله أو شر منه ، ولأن مركز
التجارة والرخاء الاقتصادى كان بين المسلمين . على أن نهضة أوروبا
فى القرن التاسع الهجرى وما وجه إليه تحرير الفكر أنظار هؤلاء
التغريبيين إلى الناحية العملية جديراً أن يقيم حضارة الصناعة وأن
يزرع هذا المركز الممتاز الذى كان للمسلمين .  لم تجرؤ على التفكير فى غزو الإسلام قبل القرن الثامن عشر المسيحى ،
وصحیح أن المسلمين ظلوا محتفظين بذاتيتهم وباستقلالهم وظلت الخلافة
الإسلامية التى رفع بنو عثمان عليها شجراً أمام التقدم الاستعمارى
الأوروبى ، إلا أن المسلمين شعروا بأنهم وقد كانوا إلى عصر قريب
غزاة العالم تغزوم صناعات وأفكار جديدة وبغزوم من نواحى
الغرب رجال يجهلون أول أمرهم أفاقين ثم ما يلبثون أن يصبحوا
أصحاب الحول وال طول وأصحاب النفوذ والمال . ماذا عسى المسلمين
أن يصنعوا ؟ بدأوا أول أمرهم يحدقون ذاملين بهذا الذى وقع
ويسائلون أنفسهم عن سببه فلا يميرون جواباً . وأدى ذلك بهم إلى
الإنكماش وإلى التوجه بقلوبهم إلى ناحية دولة الخلافة يأملون فى
قوتها الروحية والزمنية من هذه الكارثة عجزاً ، ولم يتقدم من بين
صفوفهم أولئك الأفاذاذ الأقوياء الذين يهزون العالم ويمشون

إلى النفوس روح الإقدام وروح الاستخفاف بالحياة والذين يصيحون بأهلهم قائلين : « قمنوا الموت إن كنتم صادقين » . بل استكان الكل وظل الأمر بيد الخليفة وبلاطه وبين حكم الخلافة المستبد وشهوات أهل البلاط المادية الوضيعة ودسائسهم المضحقة القذرة الدنيئة . ذلك بأن الفكرة التي أدت إلى التطور الذي قدمنا كانت قد آتت في هذا الظرف كل ثمراتها . يقول جب : « ظل علماء الإسلام يعلمون الناس مدى عشرة قرون تباعاً — لمناسبة ولنفي مناسبة — وجوب الإذعان للسلطة سواء أكانت هذه السلطة شرعية أم مقتضية ؛ وبنوعى الملوك الذين هذا الدرس في النفوس بصورة لا تحتل الريب . وتبدى الهمود السياسي وكأنه متأصل في الشعوب الإسلامية حتى عزاء الغربيون الذين لاحظوا عظيم تحمل المسلمين للضغط وسوء الحكم إلى العقيدة القدرية في الإسلام ، لكن هذه لم تكن قط أكثر من نصف حقيقة . فالقدورية بهذا المعنى المطلق لم تكن شيئاً بمقدار ما كانت نتيجة . والاستكانة السياسية التي بدا بها الشعب الإسلامى إزاء الغير ترجع في معظمها إلى أسباب مادية ؛ البؤس الاقتصادى من أكثرها ظهراً . . . ولنا حاجة إلى القول بأن الأستاذ جب لا ينصف الإسلام حين يعزو إليه أى حظ من هذه القدرية التي أدت بشعوبه إلى الاستكانة . فالإسلام لا يدعو للإذعان إلى أحد إلا لله . والقرآن الكريم أعظم الكتب السماوية دعوة لطاعة الوالدين ورضاهما ، يقول في صدر الكلام عنهما : « وإن جامداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وحاسبهما في الدنيا معروفاً » . فإذا كان ذلك شأن

والوالدين فما بالك بمن يجاهدك على أن تخضع لما ليس لك به علم ، وأن
تصل من الخضوع له حتى تجعله في السطان لله شريكا . إن أقل ما يأمر
به الإسلام في هذا الظرف الثورة عليه وتحطيمه وتحطيم تعاليمه . فأما
ما جاء بعد ذلك من خضوع استسلام فإنما كان أثرا لهذا الانقلاب
النفسي في تصوير أساس الحكم في الإسلام .

لم يجرؤ أحد على أن يحجر بهذه الحقيقة خلال القرنين السابع عشر
والثامن عشر ومن جهر بها كان معناه التعرض للتشريد والنفي والإلقاء
في أعماق الدردنيل جزاءه . لكن المدنية الأوروبية كانت دأبة لغزو
الشرق ولغزو الأمم الإسلامية بتجارها وصناعاتها وثقافتها كذلك .
وإذا استمر الأمر على هذا فقل على الخلافة الإسلامية وعلى العالم
الإسلامي السلام . ورفع كتاب الغرب وساسته عقائهم يصيحون
أن الإسلام كدين هو سبب انحطاط الشعوب الإسلامية ، وأن هذه
الشعوب لا مفر منقرضة، وأن دولة الخلافة قد صار أمرها إلى أن أصبحت
الرجل المريض لا مفر له من الموت الذي هو آتية لا محالة . وقوى
نشاط المبشرين المسيحية في العالم الإسلامي وقوى إلى جانبه نشاط
الدعاة إلى الحضارة الغربية . فإذا عسى يصنع ساسة دولة الخلافة .
لا شيء في الواقع لكن المفكرين والكتاب من المسلمين بدأوا نشاطهم
في ناحيتين : أولاها سياسية هي الدعوة إلى الجامعة الإسلامية .
والثانية دينية تيجديدية هي الدعوة التي قام بها الأستاذ الشيخ محمد عبده
والذين قاموا في أثره . وكان غرض الدعوة إلى الجامعة الإسلامية

تجسيد الرأى الإسلامى ضد غزوة أوربا المسيحية وقد أيد الباب العالى وأيد الخليفة هذه الدعوة بكل ماله من قوة ، على أن هذه الدعوة وجدت فى غزو الحضارة الأوربية من قوة المقاومة ماضعتهما ، ذلك بأن الشعوب الإسلامية شعرت شعوراً عميقاً بضرورة الاستمادة مما كشفت عنه حضارة الصناعة وما روجت له هذه الحضارة من تنظيم اسباب الحياة فى المسكن والملبس ووسائل العيش . أما التجديد الدينى فقد قام على أساس شعور عميق عند الشيخ محمد عبده وعند طائفة من أنصاره وأصحابه بأن الجمود الذى استولى على الإسلام والمسلمين إنما كان سببه إقبال باب الاجتهاد وأخذ الناس بالتقليد الأعمى وترويج خرافات وأوهام باطلة ونسبتها إلى الدين واعتبار الخارج عليها وغير المؤمن بها ملحدآ يرمى بالكفر . وقد بنى الأستاذ الشيخ محمد عبده دعوته على الإسلام الصحيح الإسلام المستند إلى القرآن وإلى السنة ، الإسلام الذى أراد أن يحرر العقول والأفهام من كل معنى من معانى الوثنية ، هذا هو الإسلام الذى ينقذ المسلمين ويرد إليهم مجدهم . أما هذا الإسلام التقليدى الذى جاءنا بعد ثلاثة عشر قرناً تداولته فيها أعاصير السياسة ودست فيه الفكرة الاستبدادية من الأوهام ما يمكن للاستبددين ويحمل لهم السلطان المطلق فلا يمكن أن تقوم على بدعة وأوهام أمة من الأمم ترجو فى الحياة سؤدداً أو مجدداً . ومع أن الميدان الذى عمل فيه الأستاذ الشيخ محمد عبده لم يتناول إلا الشؤون الدينية البحتة فى حدود ما يطلق عليه الإفرنج التيولوجيا . وبالرغم من أن الشيخ كان يعمل لإصلاح الأزهر وصالح حال رجاله ، فقد قام

هؤلاء الرجال في وجهه أشد قومة وحاربوه أشنع الحرب ورموه بالإلحاد والكفر واعتبروا الدعوة التي كان يدعو إليها — والتي تعتبر في نظرنا متواضعة غاية التواضع إلى جانب ما دعا النبي عليه السلام إليه من حرية الفكر والفؤاد والقلب — دعوة الحادية جدير بصاحبها أن ييؤم بغضب صاحب العرش وأن ييؤم بغضب الجمهور . على أن شخصية الشيخ محمد عبده الممتازة تركت في العالم الإسلامي أثرها وأتاحت للنسبين أن يتخلصوا ولو تخلصاً ضميئاً من سلطان التقليد الأعمى ومن سلطة الدجاجة الذين يتقدمون إليهم باسم الدين يسمون عقولهم وأفكارهم بالخرافات والثرهات .

لم تصادف الدعوة إلى الجامعة الإسلامية من النجاح إلا حظاً نظرياً صرفاً . وظلت دعوة الأستاذ الشيخ عبده محصورة في حدود ضيقة لأن برنامجاً إنشائياً لم يوضع لها ولأنها لم تبلغ من الجرأة في هدم الأوهام المبلغ الذي يطوع لها حقها الكامل من النجاح . وفي هذه الأثناء كان غزو أوروبا مطرد التقدم . وفي هذه الأثناء كانت العناصر غير الإسلامية في العالم الإسلامي تتعلم وتتقدم وتنال الخطوة والثروة . وفي هذه الأثناء كان رجال الدين في شغل بالمناقشات البين فطية العقيمة ويرى الشيخ عبده وأصحابه بالإلحاد والمروق وبمثل هذه النهم التافهة التي لا تروج إلا في عصور الانحلال والتدهور وتحت سلطان الإستبداد والظلميان ، وكانت مصر قد امتد إليها النفوذ الأوروبي بأكثر مما امتد إلى الإمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف

بجعل هذه المدينة الغربية ومبادئها وما تدعو إليه محسوساً فيها مقدراً من أهلها . والمدينة الغربية كانت دعائمها العقلية حرية الزأى والفكر وتحطيم أغلالها أياً كان نوع هذه الأغلال ، إذن فلا بد إن كانت هذه الحرية مصدر هذه القوة العجيبة التي طلعت لأوروبا أن تغزو الشرق وأن تغزو العالم الإسلامى هذا الغزو المريع . فلنأخذ بالحضارة الغربية ولننسخ على منوال الغرب ، وكذلك قامت الدعوة إلى نظام فى الحكم كالنظام القائم فى الأمم الأوروبية وإلى تعليم كالتعليم الموجود فى أوروبا وإلى ثقافة غربية بجمّة ، وحسب بعضهم أن لا مفر من هذا أو يقضى على الشرق القضاء الأخير . وغلا بعضهم فى ذلك حتى رأى واجباً أن يقطع العالم الإسلامى صلاته بالماضى كله وأن يستل عن المدينة الغربية بحذاقها . وهذه الدعوة هى ما يسميه مؤلفو الكتاب الذى أوحى إلينا بهذا الفصل بهذا الاسم العجيب : تغريب الشرق .

ويلاحظ الأستاذ جب وزملاؤه المؤلفون أن أصحاب هذه الدعوة نسوا أن مظاهر حضارة الغرب تعتمد على أصول قديمة وإلى ثقافة عريقة وأن قل الظاهر وحده لا يكفى لإقامة هذه الحضارة . وهذه ملاحظة أبدأها منذ عشرات السنين اللورد ملنر فى كتابه : إنكلتريز فى مصر ، عن سعى الحديوى الأول إسماعيل باشا لنقل مظاهر الحضارة الغربية إلى مصر . لكننا لا نوافق الأستاذ جب على ملاحظته ونقف منها موقف الناقد للغرب فى حضارته القائمة على الأثرة والأناية والمشبعة من المادة الاقتصادية بروح هى التى خلقت لأوروبا

متاعها في الحرب ومتاعها الحاضرة . فقد أدرك هؤلاء المصريون أن مظاهر الحضارة الغربية تركز إلى أسس وآها بأعينهم من سافروا منهم إلى أوروبا وتغذى منها من درسوا في الجامعات الأوروبية ومن اطلعوا على أدب الغرب . ولذلك قاموا في مستهل هذا القرن العشرين يدعون إلى إنشاء جامعة على نظام جامعات أوروبا يكون لها استقلالها ويكون للعلم فيها أساسه الصحيح من حرية البحث والتفكير . لكنهم ما كادوا يفعلون حتى وقفت السلطات الرسمية الخاضعة لنفوذ الإنكليز في مصر منهم موقف الخصومة وحتى دعا لورد كرومر الأتالي والأعيان المصريين الذين طلب إليهم أن يكتبوا لإنشاء هذه الجامعة كي يكتبوا لإنشاء الكتاتيب ؛ وظلت الجامعة بعد ذلك تحارب في السروفي العلن وما يزال ذلك شأنها إلى وقتنا الحاضر ، وهذا عجيب ، فقد كان المسلمون لا يكادون ينزلون بلاداً يفتحونها حتى يهدوا منذ أول نزولهم فيها لتشييد بناء حضارتهم بها ، ولم يكن يدور بخاطرهم أن يحرموا أهل هذه البلاد من النهل من أصول هذه الحضارة ومصادرها . فوقوف بمثل الحضارة الغربية في وجه انتشارها بصورتها الصحيحة واكتفاؤهم بتناول الشعوب الأخرى مظاهرها وآثارها غير متمثلة ، أنانية غير جديرة بالدعاة إلى الحضارة وإلى التقدم . على أن ما حدث من هذا كان له أثره الحسن . فقد شجع القاددين على أن يرسلو بأبنائهم إلى أوروبا ليدرسوا في جامعاتها على القيام بهذا العمل على ما فيه من كلفة

ومشقة . وازداد عدد هؤلاء وكثروا في مصر كما حفت الأمم الإسلامية الأخرى حذو مصر وعاد هؤلاء وأولئك إلى بلادهم يبنون الحضارة الغربية . لكنهم مالبثوا أن صدمتهم ظاهرتان عجيبتان أثارتا دهشتهم لتناقضهما مع أصول الحضارة الغربية تناقضاً بيناً : الأولى هذه الحرب المنظمة التي يقوم بها الاستعمار الأوروبي لحرية العقل حرية مستندة إلى النظام الجامعي الذي يقرر البحث الحر الطليق من كل القيود ، سواء أكانت دينية أم غير دينية . والمستند إلى القواعد العلمية الصحيحة ، قد راعهم من هذه الحرب أنها لم تكن تقبل هزيمة قط ؛ وأن مثل إنكسارها في مصر لم يكن يأتى أن يكتب في تقاريره أن مصر تغير حاجة إلى علماء بالمعنى الغربي وإنما هي بحاجة إلى موظفين مطواعين . والظاهرة الثانية انتشار المبشرين الغربيين في كل مكان في المدن الكبيرة والصغيرة بل في القرى ، يدعون إلى المسيحية ولا يأبون التعريض بالإسلام . وبالرغم من هاتين الظاهرتين ظل هؤلاء الشبان يدعون إلى الحضارة الغربية مستندة إلى أصلها الصحيح ، أى إلى حرية البحث ونزاهة العلم ، ويدعون إلى ذلك في حراوه لم يكن من شأن الجامدين على التقليد الديني الذين رموهم بالإلحاد إلا أن زادوها قوة واستعاراً . لكن مرور الزمن فتح عيونهم على حقيقة أخرى لم تكن أقل إثارة لدهشتهم من الظاهرتين اللتين قدمنا . فإصدر الغرب للشرق من آثار حضارته قد وقف أو كاد عند أسوأ ثمرات الغرب من الزبح المادى ما يمدد بأسباب

الرغاء والترف . فتجارة الرقيق الأبيض والكحول ومواد الزينة واللبو وجوقات الهذر المسرحى كانت هى أول ما يصدم الناظر لآثار الغرب فى الشرق . ولم يقدم الغرب إلى جانب هذا من صالح ثمرات حضارته ما يستر سوءاتها هذه . بل هو كما قدمنا قد وقف حائلا دون سرعة انتشار العلم الصحيح مما كان هؤلاء الشبان يحاهدون بكل ما يدخل فى حدود طاقتهم لنشره والتسكين له .

(٢)

ظلت الحال كذلك إلى أن أعلنت الحرب الكبرى ودخلتها تركيا إلى جانب ألمانيا . وكان من أثر انتصار الحلفاء أن قضى على الرجل المريض — الامبراطورية العثمانية — وأن وضع الحلفاء أيديهم على بلادها المختلفة ؛ وخضع العالم الإسلامى كله فيما خلا تركيا وفارس وأفغانستان وشبه جزيرة العرب إلى النفوذ الأوربى مصوراً فى صورة الانتداب أو الاستعمار أو الاحتلال العسكرى أو ما شئت من هذه الاسماء المختلفة اللفظ المتفقة المدلول . وجاء فى أثر ذلك أن خلعت تركيا الخليفة السلطان عبد المجيد ، وأن نفته وأهله، وأن أعلنت رغبتها عن الخلافة . وربما شعرت الأمم الإسلامية التى تحررت من النير التركى بشيء من التخفيف عنها أزل الأمر فقد كانت هذه الأمم متعطشة من زمن بعيد إلى نهضة تنهضها وينهضها الإسلام وكانت ترى فى تركيا وفى الاستبداد التركى وفيما كان رأى عند ساسة الترك قبيل الحرب من قترك العرب حائلا دون هذه النهضة . وقد

بذلت دول الغرب أثناء الحرب وفي أعقابها من الوعود وتغنت من أغنيات السلام والعدل المجرد من الهوى والحرية التامة الشاملة وحق الشعوب في تقرير مصيرها ما جعل هذه الشعوب الإسلامية تطمع في بئس جديد تناله في ظل هذه المعاني . لكن تعاقب السنين من بعد الحرب كشف عن الحقيقة المضنية المؤلة ، فهذه الأغنيات كلها لم تكن إلا وهماً وخداعاً . وقضية أوروبا التي حاربت في سبيلها أربع سنوات تباعاً والتي بذلت فيها مهج أبنائها وملايين ما كدست من الثروة على مر السنين لم تكن إلا قضية الاستعمار ومن يكون له حق التوسع فيه : دول الوسط أم الحلفاء . ثم بدت حقيقة أشد من هذه الحقيقة مرارة وإيلاماً . تلك أن الغرب الذي تزعم دوله أنه تحرر من قيود التعصب الديني ما زال يذكر الحروب الصليبية التي نشبت خلال القرون بين المسيحية والإسلام ؛ وأن كلمة لورد النبي يوم استولى على القدس وقوله إن الحروب الصليبية قد انتهت كانت تعبر عن معنى يحول بخاطر الدول الأوروبية جميعاً وإن كان هذا الجندي المقدم هو الذي صرح بها وكشف عنها . في ظل هاتين الحقيقتين الاليتين جعلت دول الغرب التي وضعت يدها على العالم الإسلامي تمد في أسباب الجود الديني عن طريق الجامدين المتعصبين لتزيد الشعوب الإسلامية جوداً ولتزيد الجود ضعفاً ؛ وجعلت تحمي الجماعات التبشيرية الدينية وتمدها بكل ما تستطيع من قوة وتحاول أن تحطم كل قلم وكل رأس يقف في وجه هؤلاء وأوائك .

هنا كانت اليقظة المربعة ، يقظة هؤلاء الشبان الذين دوسوا في أوروبا وجازوا ينشرون في البلاد الإسلامية لواء حضارة الغرب . ما هذا ؟ إلى أي حضيض يهوى أهل هذه الحضارة ؟ وكيف تطوع لهم ضماؤهم أن يستخدموا العلم الإنساني لإذلال الإنسانية وإلهاذار كرامتها ؟ وكيف تظل أوروبا على تعصبها الديني الممقوت الذي انبعثت جنودها في القرون الوسطى باسمه لمحاربة المسلمين ؟ وكيف تسبخ أوروبا في سبيل الحياة المادية وتوفها وأن تحول بين شعوب كاملة ، بل بين عالم بأسره ، وبين النور المقدس الذي يضيء به الله الأرواح والقلوب من طريق العلم والمعرفة ؟ وكيف تطمع المسيحية في أن تكتسح الإسلام وهو أسنى الأديان التي دعت إلى الحرية الحقة ما أخذ في صفاء جوهره وما نفيت عنه هذه الترهات التي أضيفت إليه على أنها منه وليست منه ؟ وقامت لذلك في نفوس هؤلاء الذين أتى إليهم النهوض بأعباء الحركات القومية التي اهتزت بها أمم الشرق في أعقاب الحرب ثورة على هذه الأساليب التي لجأ الغرب إليها وجعل كل يفكر . وكانت ثمرات هذا التفكير هي ماذكر الأساتذة ماسنيون وكينغاير وبرج والفتنات كولونل فرار في فصول كتاب « وجهة الإسلام » .

جعل الكل يفكر في سبيل الخلاص من استعمار الغرب وتبشير . فأخذ جماعة بـمذهب الرابطة الشرقية تربط أمم الشرق الخاضعة للنفوذ الغربي جميعاً ، وأخذ آخرون بمبدأ الجامعة العربية يظل لواؤها

الذين يتكلمون العربية جميعاً . وفكر آخرون في إحياء الخلافة
لترابط من جديد بين الأمم الإسلامية ، ولكن على أن تكون
خلافة روحية ليس لصاحبها سلطان زمني ، ورأى بعضهم التمسك
بمبدأ القومية ومقاومة الاستعمار الغربي بأسلحة الحضارة الغربية ،
وفكر جماعة في رفض ماضيهم الإسلامي والاختد بماضيهم السابق
على الإسلام كما فعل الأتراك وكما يحاول بخاطر بعض أهل الغرب
الأقصى من المراكشيين . وكانت لهذه الصور المختلفة من التفسير
مظاهرها العملية . فقد تألفت جمعية الرابطة الشرقية في مصر كما
تألفت فيها جمعية الشبان المسلمين وانعقد فيها في سنة ١٩٢٥ مؤتمر
الخلافة . وتألفت في الهند جمعية الخلافة وكان مولاي محمد علي علي
رأسها إلى حين وفاته ، كما أن الدكتور إقبال من أكبر دعاة إن ظل
الدكتور أنصاري إلى جانب غاندي من دعاة القومية الهندية .
وانعقد مؤتمر إسلامي بمكة في سنة ١٩٣٧ كما انعقد في القدس سنة
١٩٣١ : وبدأت في مختلف العالم الإسلام كله ثورة نشاط قوى دلت
على أن التبشير لن ينال أى نجاح أكثر من إثارة الشعوب الإسلامية
عليه وعلى أن الاستعمار لن يكون من أثره إلا إثارة الكراهية والمقت
في قلب الشرق وفي قلب العالم الإسلامي للغرب وحضارته المادية
التي هوت بأساسها حرية العقل إلى صور من الأدب ومن الموسيقى
ومن الرقص ومن ألوان الحياة والترف تدل على أن هذه الحضارة
قد آذنت بالافول ، وأنها تخطت جانب الصعود إلى جانب
الانحدار والتدهور .

وكان تهدم الحضارة في الشرق من أقوى العوامل لبث هذه الآراء ولتدعيم كل مظاهر نشاطها . والذين يقومون بأمر الصحف في الشرق ويؤيدون هذه الأفكار الثائرة على الغرب وعلى استعمارهم وتبشيرهم كثرتهم الساحقة إن لم تقل كلهم من الذين تعلموا علوم الغرب وكانوا يبشرون بحضارته ومن الذين يؤمنون ما يزالون بأن الأساس الذي قامت عليه ، حرية العقل والتفكير وحرية البحث العلمي بحثاً جامعياً منظماً ، هو خير أساس تقوم عليه حضارة ، على أن لا ينكر هذا الأساس حاجات الروح للإتصال بالعالم على أنه فكرة لا على أنه آله ، وعلى أن لا ينكر كذلك على العاطفة وعلى وحى النفس وإلهام الفؤاد سلطانهما في الحياة ؛ وعلى أن ينظر إلى العالم على أنه كله وحدته العليا ، لا على أنه كم مادي يستطيع العقل أن يصل إلى كنه كل ما فيه بالتحليل والتشريح وبأدوات البحث العلمي الناقصة غاية النقص ما تزال .

ليس يكفي إذن لإقناع الغرب بأنه غزا الشرق في كل ميادينه أن تكون أساليب الغرب في الحياة وكسب العيش قد انتقلت إلى الشرق فأصبح يستعمل الآلات الزراعية الغربية في زراعته والصناعية في صناعته وأنه أصبح يلبس لباس أهل الغرب ويأكل على طريقتهم ويقتل بوسائل انتقلهم . بل ليس يكفي لهذا الاقتناع أن ينقل الشرق أساليب حكم الغرب . فهذه كلها مظاهر خارجية إن بهرت النظر فقد لا يكون لها في دخيلة النفس أثر . وهذا ما يلاحظه

الاستاذ جب بمنتهى الدقة : حيث يقول : « إن مستقبل —
 التغريب — وما سيكون له من أثر في العالم الإسلامى لا يتعلق
 بأى من هذه الاستعارات الخارجية . فالأشكال الظاهرة في المحل
 الثانى . والأمر كذلك في هذه الشؤون — الاجتماعية — أكثر منه
 في الشؤون المادية . فكلما كان التقليد الظاهر أكثر دقة كان التمثيل
 الداخلى أقل قياماً . ذلك بأنه كلما ازدادت الإحاطة بالروح والمبادئ
 التى تقوم عليها الأشكال الظاهرة دقة ارتباطها عادة بقصور ما تقتضيه
 الظروف المحلية لاقتباسها . وقد يهدم كثير من النظم الغربية ومع
 ذلك لا يكون العالم الإسلامى أقل — تغرباً — عما كان ، بل لقد
 يكون أكثر تغرباً . ولو أننا أردنا أن نعرف القدر الصحيح الذى
 أثرت به الثقافة الغربية في الإسلام فإننا يجب أن ننظر تحت السطح
 وأن نوجه نظرنا في المحل الأول للأفكار والحركات القائمة على
 أساس من التمثيل الخالق للفكر الغربى بعد تحضير داخلى في النفس
 عميق . أما ما سوى ذلك فسطحي كله . وهما يكن العمل
 دقيقاً وشاقاً فإننا يجب أن نبذل جهدنا لنميز بين ما استورد
 من موارد الغرب الفاسد أكثرها والتى ترحم الآن أسواق الإسلام
 وميادينه تلك التى تقيم الأسس الأولى لبناء ثقافة جديدة . »

وهنا يمس الاستاذ جب قاع المسألة ويتحدث عن التربية والتعليم
 وعن إقامة نظمها في العالم الإسلامى على أسس غربية . وهو في الوقت
 نفسه يتحدث عن الصحافة وعملها وسلطانها في إقامة أساس الثقافة

الجديدة . وهو يقول إن التريه والصحافة ومقومات الحياة كانت أكثرها ترى إلى التفرقة بين الحياة الزمنية والحياة الروحية الدينية ؛ فليس شيء من شئون هذه الحياة يصح أن تسبغ عليه الطابع الدينى إلا ما كان دينياً بطبعه . وقد استطاعت الثقافة في نظر الأستاذ جب أن تحقق هذه الغاية . يقول الأستاذ : « إذا كان الإسلام كدين لم يفقد إلا قليلا من قوته فهو كنظام للحياة الإجتماعية ؛ قد نزل عن عرشه وقامت إلى جانبه أو من فوقه قوى جديدة لها من السلطان ما يتعارض في بعض الأحيان مع تقاليدہ وتنظيحاته الإجتماعية وهي مع ذلك تقوم في موقف الاحترام منه . ولنصف الواقع في أبسط صوره فالذى حدث هو ما يأتى : إلى عهد قريب كان المسلم المزارع أو ساكن المدينة وليست له مهام ولا واجبات سياسية ، وليس له أدب سهل التناول غير الأدب الدينى ؛ وليس له أعباء ولا حياة عامة إلا ما اتصل بالدين ، ولم يكن يرى من الحياة الخارجية إلا قليلا أو لا شيء إلا من خلال المنظار الدينى . فالدين كان إذن كل شيء عنده . أما اليوم فقد انفسحت مهامه في الأمم التي أصابت حظاً من التقدم ولم يبق نشاطه محدوداً بالدين . فهو يقرأ أو تقرأ له فصول شتى في شئون من كل نوع لا علاقة له بالدين ولا تناقش فيها وجهة النظر الدينية على الإطلاق . ويكون الحكم فيها النظريات ومبادئ لا شأن للدين بها . وهو يجد في كثير من متاعبه ومنازعاته أن لا فائدة له من التقدم إلى المحاكم الشرعية وأنه إنما يقيدہ قانون مدنى قد لا يعلم من أين يستمد

سلطان نفاذه ولكنه يعلم أنه لا يستمد هذا السلطان من القرآن ولا من السنة . ولم يبق الشؤون الدينية شاغله الوحيد في صلاته بغيره من مواطنيه بل أخذت المشاغل والمهام الزمنية بنظره وتقديره وبذلك خفت سلطة الإسلام في الحياة الاجتماعية وتراجعت شيئاً فشيئاً إلى ميدان من النشاط أشد ضيقاً ، وقد تم كثير من ذلك عن غير وعى وحس ؛ وبين نسبة قليلة من المتعلمين كان الشعور بهذا الذي تم . والذين حاولوا إتمامه عن إدراك وشعور كانوا أقل من أولئك نسبة ، وهنا يجب أن نعترف بأن الأستاذ جب قد لمس الحقيقة كالمسها من قبل . لكننا نعتقد من فاحيتنا ، مع الاعتراف بما كان لدوافع الحضارة الغربية من أثر في التطور الذي أشار الأستاذ إليه ، أن هذا الاتجاه الحديث الذي تأصل في نواح كثيرة من نواحي الحياة الإسلامية إنما دفع إليه الثورة على الجود وعلى التقليد الأعمى وعلى الحرافات والأوهام القديمة وعلى هذا الإزدراء بالعقل الإنساني وبحريته مما امتازت به المدرسة العتيقة التي كانت سبباً في تدهور الإنسان وانهايار الشعوب الإسلامية . وليس أدل على ذلك مما لاحظته الأستاذ جب وزملاؤه مؤلفوه ، ووجهة الإسلام ، من أن كثيرين من الشباب الذين حملوا ألوان الحضارة الغربية وصاروا يبشرون بها قد عاد الكثيرون منهم يشعرون شعوراً قوياً صادقاً بأنهم في حاجة إلى أكثر مما تقدم الحضارة الغربية به ، وأنهم لذلك يجب أن يلجأوا إلى تراث السلف

من المسلمين لالتباس ما ينقص هذه الحضارة الجديدة . وزادهم شعوراً بهذا النقص أن رأوا الفكرة القومية تقوم في الغرب على نضال اقتصادى عنيف لا يعرف مواد ولا يقف في وجهه اعتبار من قواعد الخلق أو من الإغناء الإنسانى أو من المودة والرحمة . نضال في سبيل المادة بين أهل البلد الواحد وبين الدول المختلفة هو الذى كان مثار الحروب ومثار أسباب الشقاء والتعس في هذا العصر من عصور الإنسانية . وقد زادت الصناعة التى كانت وما تزال مظهر هذه الحضارة بآلات الحرب بشاعة وقسوة ، فهل ترى يجد العالم الإسلامى في تراث الماضى ما يشفى غلة روحه بما عجزت الحضارة الغربية عن أن تقوم به وما يقيم حياة جديدة وحضارة جديدة ليس فيها هذا الجشع المادى الفظيع الذى يهوى بالإنسان إلى مرتبة لا ترضاها النفس الفاضلة ؟ إن هذا التراث قد اختفى تحت طبقات وطبقات من أباطيل عصور الإنحلال الذى أصاب العالم الإسلامى قروناً متواصلة فليكن من عمل رجال العالم الإسلامى أن يزيحوا أكداس هذه الطبقات وأن يعيدوا إلى الوجود فى إحدى صور الوجود وعلى طريقة علمية صحيحة ما يشتمل عليه هذا التراث الذى غزا العالم وغذاه بأدوات الحضارة أجيالاً وقروناً طويلة .

عند هذه النقطة يقف العالم الإسلامى اليوم . ومظهرها الصريح الواضح أن أولئك الذين كانوا دعاة الحضارة العربية وحملة أعلامها والذين بلغوا من إدراك حقيقتها أن وقفوا على هذا المعجز والقصور

فيها هم الذين يقومون اليوم بهذه الدعوة ، وكثيرون منهم هم الذين يقومون اليوم بهذا البحث . أولئك يشعرون شعور الوائق بأنهم سيجدون لاريب في هذا التراث ما يبعث إلى عالم اليوم الرانح تحت ظلمات المادة ضياء روحياً هم وحدهم القديرون على بعثه من جديد لأن اتصاله بروحهم دون روح الغرب هو الذي يذكى ضيائه . ويوم يوفقون إلى هذا فسيتاح للعالم الإسلامى بموقعه الجغرافى بين الغرب والشرق وبين المسيحية والديانات الآسيوية أن يمد يداً إلى ناحية ويد إلى الأخرى ليرتفع بهؤلاء وأولئك إلى ميادين الحضارة الصحيحة . الحضارة التى تترك وحدة الوجود على وجهها الصحيح . الحضارة التى تقوم على أساس الإخاء . وتقول إن المرء لا يكمل لإيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، الحضارة التى تبث فى أنحاء الحياة بسمات السعادة الصحيحة وتضيئه بنور الحق الذى يقف محجوباً بحجب المكان والزمن . الحضارة التى لا تعرف إسلاماً لغير الله ولا تعرف للحق حدرداً ولا حرية العقل قيوداً . والتى تنير ظلمات العيش بالشفقة والرحمة والإيثار وإطعام المسكين وابن السبيل والمؤاخاة بين الناس جميعاً أياً كانت أجناسهم وعقائدهم والمغفرة للذنوب والمحبة المتبئة فى أرجاء الكون كله والتى تندس اليوم إليها هموم المادة فتجعلها عداوة وحسداً وتقيمها كما تقيمها حضارة الغرب على أساس من حرب الطبقات . يوم ينهض الإسلام بهذا العبء العظيم يستمد من ماضيه بعد أن يكشف عن نوره ليضيء العالم كله ، يومئذ يبدأ

العالم يشعر بنعمة السلام الحق المنبعث من أعماق قلوب ملئت رحمة وعطفاً ومحبة : أما إلى يومئذ فستظل المادة حاكمة متحركة . وسواء أكان النظام الذى يجعل الحكم للمادة بلشفاً أم كان نظام رأس المال فالشقاء حتم على الإنسانية لا محالة . ذلك بأن حكم المادة هو حكم الوحشية التى تستطيب الدم والدماء والموت ، أما حكم العقل والروح وما يستمدانه من كل ما فى الكون من مودة ورحمة لحكم الإخاء الذى لا سبيل غيره إلى السعادة والسكينة والنعمة والسلام .

فهرس

٥	مقدمة بقلم الأستاذ أحمد ميكل
١٣	الفصل الأول : الشرق والغرب
١٣	١ - في العصور الوسطى
٣٠	٢ - إبان البعث الأوربي
٥٣	٣ - الحضارة الاستعمارية
٧٨	الفصل الثاني : الشرق في طور بعث
٧٨	١ - أثر الحركات الفكرية في بناء الأمم
١٠٧	٢ - الحرب وحركة التجديد في الشرق
١٢٩	٣ - حضارة الشرق متى تبعث من جديد
١٣٨	الفصل الثالث : البوذية
١٣٨	١ - أصول البوذية
١٥٢	٢ - مميزات البوذية
١٦٣	٣ - النظر
١٧٧	٤ - العمل
١٩١	الفصل الرابع : غاندى
١٩١	١ - غاندى والسلام
٢٢٠	٢ - أساليب غاندى وكيف تخفف التوتر داخليا ودوليا
٢٢٩	٣ - حول الهند
٢٤٦	الفصل الخامس : الإسلام والحضارة الجديدة
٢٤٦	١ - القوة الروحية في الإسلام
٢٥٢	٢ - أوروبا والإسلام ولم لا يتفاهمان
٢٦٧	٣ - وجهة الإسلام

مصادر الكتاب

الفصل الأول : الشرق والغرب

- ١ — في العصور الوسطى :
السياسة الأسبوعية ملحق العدد ٣٢٣٢ في ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٣٣ صفحة ٣٣
- ٢ — إبان البعث الأوروبي :
السياسة الأسبوعية ملحق العدد ٣٢٦٠ في ١ نوفمبر سنة ١٩٣٣ صفحة ١٢
- ٣ — الحضارة الاستعمارية:
السياسة الأسبوعية ملحق العدد ٣٢٨٥ في ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٣٣ صفحة ٨

الفصل الثاني : الشرق في طور بعثه

- ١ — أثر الحركات الفكرية في بناء الأمم:
(١) محاضرة أُلقيت بحلب عام ١٩٥٣ بدعوة من دار الكتب الوطنية بها
(ب) السياسة الأسبوعية في ٩ أبريل سنة ١٩٢٧ .
- ٢ — الحرب وحركة التجديد في الشرق :
السياسة الأسبوعية العدد ١٠٣ في ٢٥ فبراير سنة ١٩٢٨ ص ١٠
- ٣ — حضارة الشرق متى تبعث من جديد:
السياسة الأسبوعية العدد ١٤٧ في ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٢٨ ص ١

الفصل الثالث : البوذية

- ١ — أصول البوذية :
السياسة اليومية العدد ٢٩٠ في ٤ أكتوبر سنة ١٩٢٣ صفحة ٣
- ٢ — مميزات البوذية :
السياسة اليومية العدد ٢٩٦ في ١١ أكتوبر سنة ١٩٢٣ صفحة ٣

٣ — النظر :

السياسة اليومية العدد ٣٠٨ في ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٢٣ صفحة ٣

٤ — العمل :

السياسة الأسبوعية العدد ٣١٥ في ٢ نوفمبر ١٩٢٣ صفحة ٣

الفصل الرابع : غاندى

١ — غاندى والسلام :

بحث كتب في يناير ١٩٥٣ في ندوة غاندى بالهند .

٢ — أساليب غاندى وكيف تخفف حدة التوتر داخليا ودوليا :

بحث كتب في يناير ١٩٥٣ في ندوة غاندى بالهند .

٣ — حول الهند :

مشاهدات في الهند عقب ندوة غاندى سنة ١٩٥٣

الفصل الخامس : الإسلام والحضارة الجديدة

١ — القوة الروحية في الإسلام :

مجلة الشباب العدد الأول في ١٧ فبراير ١٩٣٦ ص ٧

٢ — أوروبا والإسلام ولم لا يتفاهمان :

مجلة الشباب العدد ٤ و ٧ و ١٢ في ٩ و ٣٠ / ٣ و ٥ / ٦ / ١٩٣٦

٣ — وجهة الإسلام :

ملحق السياسة رقم ٢١٣١ في ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٣ ص ١٠

استدراك

على الرغم من العناية التي بذلت أثناء طبع هذا الكتاب ، فقد وقعت مع ذلك بعض أخطاء مطبعية لا نخفي على فطنة القارئ الكريم إلا أننا ، لمزيد من الإيضاح ، نرى أن نضرب بعضها هامنا :

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٥	٢	فصول	أجزاء
١٤	١٦	إلى واحدة	لواحدة
٢٣	٢١	يتمتع	يتمتع بها
٣١	٢	الجزء	الجزء الأكبر
٣٦	٨	المتأثرين	المتأثرين
٣٧	١٦	مغلا	مغلقة
٤٩	٦	رينسان	رينان
٥١	١٨	أنكفرا	فرنسا
٦٩	١٦	بعد	بعض
٦٩	١٧	بعض	بعد
٨١	٢١	العلم	العالم
١٠٠	١٩	مدارج	مدارج الحضارة
١٠٣	٣	المختلفة	المتنوعة
١١٠	١٩	الحسن	الحس
١١٣	١٩	النواحي	نواحي الحياة
١١٤	٢١	البحث	البحث
١١٨	١٠	السطى	السطحي
١٢٦	٢٠	أدبي	أدنى
١٢٧	١٤	الإدارات	الأدراة
١٣٢	١٤	كانت	كنت

صفحة	سطر	خطاً	صواب
١٤١	٣	للاحتفك	لأحطات
١٤٨	٩	تضكير	تسكير
١٤٩	٧	قوارص	قوارس
١٦٦	١٣	فوق درجة من	فوق درجات أولئك
١٦٧	١١	مستوى	مستوى
١٨٧	١٧	حيواناته	حيوانه
١٩٠	١	خليفة	خلفة
٢١٠	٥	غير	نحو
٢١١	١١	تقتنع	تقتنع
٢٣٥	١٦	هذه	هذه المساجد



مطبعة نجيم